
القلق السري
فوزية رشيد
روايات الهلال

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

إهداء ٢٠١٠
المرحوم / محمد بن علي الدعفس
المملكة العربية السعودية

العدد ٦١٥
مارس ٢٠٠٠ ● ذو الحجة ١٤٢٠هـ
No 615 - MAr- 2000

القلق السرى

من عذابات شهر زاد

فــوزيــة رشيــد

●

دار الهلال

الغلاف هدية من الفنان :
نجاح طاهر

إنها الأشياء التى :

لا نتوقعها .

لا نتخيلها .

لا نعرفها .

يكفى فى ذلك أننا نحاول .

فراشات القلق السرى

ها أنت الآن وحدك.

عارية من كل شىء ومن أى شىء .

وحدك والمرايا .. مجرد مرايا تُرجع الوجه كصليل الصدى، وجدار .. مجرد جدار يُسند السقف الواطىء والزمن المتدحرج فى ثنايا السكون .

كل شىء يشبه بعضه أو يشبه لا بعضه.

لكأن :

العالم كله يستند إلى فراغ .. إنه من ذلك النوع الذى تصعب ملاحظته ولكن بقليل من ربقة الجنون، وبقليل من الاقتراب، يدرك من هو مثلكِ مدى الخراب الذى يسرى فيه .

ورغم أنكِ :

مطفأة فى ثنايا المرآة العتيقة ومكتنزة بذخائر شفيفة، فها أنت الآن تقفين بعيدة عن كل الأبعاد .. تلك التى تجعل من مساحة ما ، شكل غرفة أو سرير أو زنزانة ، أو – فى الامتداد الآخر للمرآة – شكل فضاء لا محدود .

كل شىء انتهى ولم ينته .

بدأ ولم يبدأ .

ولكن :

لا قدرة على التحليق فى هذا الركام المنثور الذى يسمى كوناً أو وطناً أو ريفاً أو بيتاً .

لا يبقى الاّ وجه واحد يغطىّ الفراغ ويرتعش تحت وطأة الظلام الثقيل، هو وجه القلق والبحث عن مغزاه ، بعده لاشىء يهمّ فى مثل هذا الفراغ، لا شىء يهمّ، سوى الانهماك فى وجيب الزمن دون أن يعلن بداية وقتكِ الخاص، وسريان الليل الذى ينذر بالانفلات ويدّق ناقوسه المبهم ليشملكِ الاضطراب كروح طريدة .

القسم الأول

تلك الحكايات الأولى

(١)

مجرد مرآة ونافذة تتبعج على شفة الفضاء وهسيس مريك للشجر. كل شيء يذوب في ذبذبة الضجيج. إنه الليل يطوّق الطبيعة بأجنحة من ستار، تختبيء معه الطراوة أو النداوة المعتادة في فجر الأرق اليومي، تحت غلالته السوداء. وأيضا: مجرد وحشة أليفة تتسرّب في أوصال البلاط الرخاميّ، متجاهلاً أي شعاع يأمل أن ينتشي بين حواشيه.

في مثل هذا السكون تسمعين الهسيس المعتاد لبوح خاص يتسرّب من فم الشيخ مسعود ومنه إلى جسد امرأة تتمدّد قربه، وقد قيل، أو هكذا وجدت، أنهما بالنسبة لك أب وأم .

بوح اعتاد أن يمتزج بريح خفيفة، تعصف بسيقان الحشائش الرثّة في الحديقة الخلفية، وهي تتهاود مع الكلمات تحت سطوة الخدر الكليّ المنداح من الأفق إليهما.

خدر يتساوق بجبروته الطاغي في مثل تلك اللحظات مع دغدغة خفيّة يداعب فيك شيئاً أسموه «الغريزة» ولكنه ذلك النوع الذي سرعان ما ينطفيء مع انطفاءة الهمس المبحوح المتسرّب منهما إلى الجدار .. اليك .

أيضا من هناك تسمعين – بعد ذلك – هسيساً آخر يبثوه الصوت الأنثوي بعد إفراغ شحنته المخدّرة:

– كفاك تبرما. ألا ترى أن غرفتها ملاصقة لنا.

ثم تردف بعد صمت شملهما :

– هذا السكون الريفي مخيف وفاضح .

ردّ الرجل بصوته الواثق والمتبرّم :

– فاضح ! ماذا لو لم نكن زوجين ؟

قالت متبرّمة بدورها :

– وهل يختلف الأمر بالنسبة لك كثيراً ؟

تنبه إلى ما تريد أن تقوده إليه فأراد أن يلجمها. قال صائحاً :

– ألن تكفّي عن هذا الذي في رأسك أبداً !

– ليس في رأسي الآن سوى أنها تقترب من العشرين ولم يتقدّم إليها أحد.

– وهل رآها هذا الـ «أحد» الذي تريدينه التقدّم اليها.

– بل قل وهل يعرف أي كان أن لدينا بنتاً بهذا العمر .

نفضت نفسها من جانبه وقالت بصوت متردّد:

– أكاد أختنق . قل لي كيف يعرفون وأنت تداريها كالخبيئة.. كصندوق الأسرار!

حدّق في عينيها وهو يقول :

– هكذا هي تقاليدنا ياامرأة وهكذا هي النواميس.

لحظتها علا صوتها أكثر ودخل مشارف الانفجار:

– وأين تقاليدنا تلك حين تخرج كل ليلة و...

الهمس المتقطع يتواصل بنبرة أعلى ويضيع . يقولان أشياء كثيرة لا يعود لها رنين أو دهشة من كثرة تكرارها ، فيما تذوب هي في الغياب وتذوب الوجوه الأخرى .

(٢)

ربما هى العناصر قبل أن تأخذ شكلها الأخير.. أو ثبات ما انتهت اليه ، ماء ونار.. هواء وتراب .

كان ضباباً، وكان شيئاً يشبه الهلام، أو عالماً صغيراً من الرؤيا – يتماوج قمراً مسافراً فى العتمة ووجهها يركض خلفه. فحيح النور يلاحقها. قيل إنه القمر وهى الشمس .. إنهما يلاحقان بعضهما ولا يلتقيان . هو ذكر وهى أنثى، له دورة خاصة به فى فلك الليل، ودورتها تبدأ فى النهار. تلك الأزقّة الضبابية الشاحبة، تطلّ أطيافها من نتوء الزوايا أو من ثقب باب خلفى أو من شعاع نافذة موارية.. أو من .. كل الاحتمالات واردة. هنا الكلّ يعرف الكلّ ، لا شيء يستقيم ولا شيء يختبىء، حتى همسات الليل الصاخبة أو الساكنة لها أوقات محددّة يعرفها الجميع.

العالم صغير صغير .. كحبة سكر أو قطعة حلوى.

إنه العالم الذى يشى بالرائحة البعيدة ويشى بالزوارق، وهى تخترق زبد البحر وتمتزج بالأفق فى انعكاسات بلوريّة.

حين وقفتُ خلف الباب المغلق والمستند إلى جدار مسجد يطلّ مباشرة على البحر، حيث يعيش الجدّ والجدّة ، كانت لحظتها قد توقفتْ عن لعبة أليفة، وربما عن تيهٍ فاض العقل الصغير به، فى ظلام السطح المسقفّ والمكتظ بالرتابة وببعض حشايا من سعف النخيل. أرضيةّ السطح قلّة من المفارش ، أما تلك المطارح القديمة فإنها تلبس الآن ثوباً جديداً يليق بليلة عرس ساخنة أو ليلة لقاء بوهيمى يفرضها عليها أحدهما، وكان هذه المرة – وككل مرة – هو ، دون غيره، الشيخ مبروك. ذلك الجدّ المترنحَ فى بقايا عظامه والذى يطرب دائما لصوت الأذان المتواشج مع رائحة البحر، والذى بعد أن تكتمل عدّة افتتاح الأمسية أمامه، من

شاي وشيشة تدخين، يجلس كساحر أسطوريٍ يقبض على الزمن والبشر، ليحكى حكايات شيقة عن الأميرات والسلاطين والفرسان الداخلين فى غبار التاريخ. ومن هذه الحكايات الغامضة والعجيبة جاء اقتراح اسمها قبل أن تولد.

قال لعائشة وهى فى شهرها الأخير :

– إذا جاء بنتاً فاسمها سيكون شهر زاد.

وهكذا كان . وهكذا بقيت ملتصقة بحكاياته وأسفاره فى مبهم العوالم الغريبة والمدهشة حتى الثمالة، حتى يأخذها النوم إلى فضاءات البرّية الواسعة والقصور والبخور والجوارى. هارون الرشيد والمردة. السحر والخدم السود. عوالم الليالى المدلهمّة والبحار. السندباد وعلاء الدين. الارتحال المخضبُ بالدم والأسفار. الحكمة والغريزة . اختلاط الحلم باليقظة واليقظة بالوهم. أماكن سرّية وغرف مظلمة تتدثّر بالغموض والألغاز والغدر. الزهور المسحورة والممرات المؤدية إلى العربدة والمكائد. بشر ليسوا من هذا العالم. فتنة غريبة تمتزج بنسيج الشخصيات. بهاء وبريق وخوف. عفاريت وملوك ومخلوقات أسطورية فوق الخيال. مغامرات ونساء غالباً ما يكنّ – للدهشة – ماكرات ويتلاعبن بالعقول. وفيما الذاكرة النائمة تسرح فى جوانح الفضاء العائم وفى صمت الخليقة الرهيفة يدّق الصوت الموجع دقاته المباغتة. يقتحمها المشهد . هكذا تفتح عينيها بوجل وهكذا تراهما هيكلين يندمجان عنوة. تتلوه الجدّة تحت ثقل الساقين المتطاولتين. ظلام وسكون وشبح عجوز يهتزّ. قبل فترة وجيزة كان مهيباً ورقيقاً وهو يحكى الأساطير الرائعة ويُدخل القلب والذاكرة فى عوالمها الخرافية. ما الذى حدث الآن؟ ما الذى يحدث؟ لِمَ هو فى هذه اللحظة يشبه العالم القبيح، ويوّلد ذلك الشعور الذى يزدريه، قبل غيره، وهو يستعيد ويعيد حكايا الأشرار. لِمَ الجدّة تتألم. ما الذى يسرقه هذه البرهة من عظامها؟ ولِمَ هي هكذا مستكينة تتأوه بألم مكتوم؟ لماذا يتكومّ فوق بطنها ويضغط بقدميه على السجادة القديمة ؟

ما الذى جعل الأسطورة الرائعة تنقلب فجأة إلى لعبة قاتلة؟

حين أدركتْ أن ضربات قلبها تزداد ، أوشكت على البكاء، وربما على الصراخ. مرة فعلتها .. لا تذكر جيداً .. كانت أصغر كثيراً ولا تذكر كم كان

عمرها آنذاك، إنما كان العمر الذى، اتضح لها فيما بعد، أنه يسمح للجدّ أن لا يخجل فيه منها ومن فعلته أمامها. ظلّت تبكى حتى تململ وقام من فوق جسد الجدّة التى سرعان ما جاءتها لتحتضنها، وتتوسّد بها الصدر الذابل.

في الوسط تتضحّ نقطة حمراء. تبزغ من الذاكرة وتتدلق فوق المساحات الشاسعة لتنقلب سواداً. جذعان يتأرجحان ورنين خلخال طفولي يتسرّب من جهة ما، تحديداً من قدميها، إلى حيث يمتزج الطيف بمسافة الطفولة وبعتمة آخر الليل.

تضيء النقطة الحمراء، ومرة أخرى يطلّ وجه الجدّ الأسطوريّ ويطل وجه الجدّة الشاحب. مرة أخرى وبشكل أكبر يطلّ ذلك الشيء الذي دخل عظام الجدّة في ليلة حالكة وأبى أن يخرج من العتمة أو من ذاكرتها.

معلم الطرقات الغريبة هو الحب ،

فبألفاظه السحرية علم النهر أن يتدفّق.

موسخوس

(٣)

من بؤرة السكون تتسلّلُ بجسدها، فراشة خارجة من مسام الظلام نحو الماء. رفيف جناحين منطلقين، أرجوحة السماء ريح تؤجج في عيون البيت الكبير نيرانه. نار تتفتت إلى قناديل مضطربة، يمسك الشيخ مسعود إحداها وهو يبحث في كل غرف البيت .

يعود مخذولاً ، هادراً بالغضب وناثراً في وجه الأم المختومة بتوتّر دائم، شظايا هديره :

– ليست في غرفتها ولا في أي مكان آخر في البيت.. أين تكون قد ذهبت؟

– ربما في الحديقة الخلفية تحت شجرة السرو تقرأ كعادتها.

– أفي مثل هذا الوقت ؟

– أتركها وشأنها .إنها لا تفعل شيئاً سوى القراءة.

– الأساطير وحكايات الجنّ وكتب التاريخ ! لقد جنى أبوك عليها ياعائشة.. دوخّها وهي بعد صغيرة.. هو الذي يزودّها من حيث لا أدري بكل ذلك.. لم نره قط الاّ وملء ذراعيه كنوز معرفته كما يسميّها . لن تصلح حال هذه البنت أبداً .

الشيخ يقف خلف انحناءة الخط المستطيل للضوء القادم من الممرّ الضيقّ ، عيناه مغرورقتان، يقتنص فلول الليل، ويقتفي أثر القنديل المتهدجُ بين يديه. إهتدى أخيراً إلى شجر السرو. وجدها منطفئة في الظلام. وقف أمامها بحيرة. مدّ يده نحو ينبوع الماء . رأى أسمالاً ممزقّة منسوجة من أجنحة الفراشات . قنديل الضوء المعلّق فوق الشجرة يتهادى أرجوانياً على هيكلها الباهت الذي بقي في صمته. قال وقد استعاد هدوءه :

– ألا ترين أن الوقت قد تأخّر كثيراً . لم لا تدخلين إلى دارك؟

– ولِمَ أدخل .. إنني هنا أستأنس النبع والشجر والسكون .

أجابها مستدركاً:

– الليل غير مأمون . أنتِ في حديقة البيت والحيطان واطئة.

– لا تخش شيئاً . أشعر بالأمان هنا.

يتهدّج صوته، كان يستشعر القلق، أراد أن يقول شيئاً ثم عدل عنه، في اللحظة الأخيرة أدار ظهره وقال بصوت مقتضب: «سأخرج بعض الوقت. لن أتأخر». ابتسمت دون أن يراها. لماذا لا يقول إلى أين هو ذاهب في مثل هذا الليل. ألأنه يعرف أن جميع من في البيت يعرفون مثله، ولا أحد يجرؤ على المكاشفة ، ليست سوى إيماءاته الشاردة تنبيء عن أمسياته التي يقضيها بعيداً عنهم. إلى أين يذهب بالتحديد .. لا أحد يعرف. كل ما يعرفونه أنها باتت إحدى نواميسه المقررّة ، وأن وجهه الكئيب في النهار يكتسب رونقاً خاصاً حين عودته في آخر الليل. هو رجل وله خباياه التي لا يريد الكشف عنها لأيّ كان. «ماذا يهمكمّ من أمري. ألست أقوم على شئون البيت كأكمل ما يكون».

ثم يغطّ في نومه وكأن شيئاً لم يكن.

(٤)

إنه الآن يخطو بعيداً، ينتظر بشوق رخاء الساعات القادمة. مأخوذاً بالبحيرات الصغيرة المتناثرة هنا وهناك ووهج الضوء القمّري يلقي ببريقه عليها فيما الأغصان المتدلّية تلقي خمارها على حواف الماء. لم يكن واثقاً كعادته، شيء ما يوخزه منذ الصباح وهو يتذكرّ تلك العرّافة اللعينة التى ألقت بكلماتها فى وجهه «ياشيخ مسعود هكذا ستبقى. كما أنت الآن». حين سألها عن توضيح لما تقوله ردّت «لاشيء . لا تشغل نفسك كثيراً . مجرد تحايل العجائز حين يفشلن فى قراءة الطالع». ولم تَزِد، إنما فى وجهها المتغضّن كان يكمن السرّ. مزيج من الخوف والسخرية ينتابه حين يسترجع كلماتها الأخرى. يعرفهن جيداً ، ورغم حذره المرتبك من قراءة الطالع، الاّ أن ذلك لايمنعه من أن يتربّص بأية واحدة منهن حين تواتيه الفرصة. هذه العجوز بالذات ارتبط بها منذ وقت طويل، دون أن يعرف كيف تفتح المجهول. فى البداية يستهزىء بما تقوله، ثم يكتشف بعد سنوات أن ما قالته قد حدث. مرة أومأت له بلغة الاشارة عن عجزه فى أن يتّخذ قراراً يمتّ إلى حياته الخاصة. «فى بيتك فراشتان. فراشة ستبقى والأخرى ستطير» . لحظتها ردّ مستنكراً وغاضباً: «ليس فى بيتى سوى زوجتى وابنتى وأبنائى من الصبيان أيتها العرافة!». لم تعبأ باستنكاره، إنما أضافت: «جحيم الأولى لن يهدأ وسكون الثانية لن يدوم!». تطيرّ من تلميحاتها .. شيء من القتامة ألقى بظلاله عليه. أراد أن يفتتّ الغمامة الثقيلة التى كبست على أنفاسه حينها« أية ألغاز هذه التى تتحدثين عنها؟». لم تول أهمية لاعتراضاته وإنما أضافت بصوت مكتوم حيرّه: «أنت مغرم بالنساء والقيثارة لن تعزف طويلاً». قال لها: «كل الرجال مغرمون بالنساء.. أين الجديد فى هذا؟ ثم ما شأن القيثارة بذلك.. ما الذى ترمين إليه؟». فى صوتها ما يشبه الفحيح: «لاشيء .. لا شيء على وجه التحديد». وقبل أن يفيق من شروده وجدها قد تبخّرت. مجرد امرأة تهذي، تتذرّع بالغيب وقراءة النجوم ثم تهيم فى البراري شبحاً مسربلاً بالخفاء ، لكنها بالصدفة صدقت فى بعض ما قالته «جحيم الأولى لن يهدأ». أبعد كل تلك السنوات يستعيد كلماتها

تلك، منذ ليلة زواجه الأولى، والرماد الذى فى عقل عائشة لايزول. تسللّ اليها فى العتمة بعد صخب الحفل الباذخ. استفزّه بكاؤها وحزنها . قررّ أن يطلّقها فى صباح اليوم التالى، ولكن منذ الوهلة الأولى أيضاً شعر برائحة غريبة تتسللّ إليه. عبق خاص اعتمل صخباً فى كيمياء جسده. هكذا بقي الصراخ والندب والعويل، مترافقاً مع نبع لا يجفّ فى فحولته الهوجاء نحوها، وبقدر ما يزداد كرهه يزداد شغفه. حاول أن يبعثر شبقه على كل نساء الأرض فلا يرتوي الاّ من غديرها . طلقها مرتين منذ ذلك الوقت وأعادها . هل هي ساحرة أخرى تربصت به فى بغتة من خرافة أو عبث؟ المرأة !.. سرّ لم يستطع أن يكشفه بعد، رغم كل من عرفهن، تفحّ فى وجهه فحيح الأفعوان المتوحش، لكن تمائم السحرة يطفى فلا يتخذّ موقفاً. سيّد هو فى كل مكان الاّ معها . لها سطوة غريبة على روحه. تكتشف مناوراته ومغامراته وتهزأ بالمخبوء لتتوغلّ دون مواربة فى جوانب أخرى من أدغال روحه العاجزة. أهي الدروب التى جميعها توصل للا شيء؟ «وهج الحياة فى لحظة الحركة، وإئتلاف الحركة مع نهاية محتومة أسموها الموت.. ثم العبث .. مجرد عبث بلحظات الرتابة المستبدّة» هكذا يقول الشيخ مبروك. فى كلامه شيء يخلخله، لكنه لم يعد يعبأ بما ستنتهى إليه اللعبة . هكذا هي الحياة إذا فما شأنه بها . يكفيه الآن، أنه كل ليلة، بامكانه أن يملأ الوقت والرتابة المستبدّة تلك ، بنشيد الأخرى، عبثه الجميل، معشوقته الصغيرة (صفيه). وحدها دون الأخريات سرقته دفعة واحدة من حضن عائشة الذى كان لا يرى غيره. ارتاح فى حضنها واستبدل به ذلك العبق الآسر الذى للأخرى. شبابها الغضّ يجعلها عاشقة رائعة لعطاياه ، على خلاف عائشة تتمرغ بين ذراعيه بلهفة وكأنه هو الذى يعطيها الفرح. مقابل ذلك لم يبخل قط . سخى عليها بكل شيء، وهي بدورها تدفقتّ عليه، بأمزوجاتها الربيعية وجعلته يرتشف من شفاهها أعذب رحيق. حوريّة غضة لها خبرة المتمرسات رغم أنه كان أول من يطأها . موشّاة بالندى والورد. من خاصرتها تبزغ اللآلىء وفى جيدها تنام النجوم . «القيثارة لن تعزف طويلاً!». العرافّة اللعينة! ما الذى كانت تقصده بذلك؟ هل ستفلت «صفية» من بين يديه؟ إنه يريدها معه إلى آخر العمر. ما جدوى الحياة بدون هذا العشق وهذه المعشوقة؟

ما جدوى أى شيء إذا لم ينته إلى دفئها. بامكانه أن يترك كل شيء خلفه الآها. وحدها الآن تختصر كل نزواته، وتعرف كيف تداعب جوانحه الهرمة، وتبعده عن الغلالة الكئيبة التى تغلفه بها عائشة، وقد اعتادت فى الآونة الأخيرة، الخروج على هيبته، ولكن لم يعد يشغله ذلك، ما يشغله هو أن يحافظ على معشوقته الصغيرة بعيداً عن الأنظار، فى كوخها البعيد خلف سياج الريف، حيث لا يراها أحد سواه. إنما يقلقه تلميحاتها الأخيرة حول ضيقها من سجن الكوخ كما أسمته. ماذا تريد أكثر؟ .. ألا يزورها كل ليلة ويصطفى بها أوقاته النادرة. كيف له أن يُظهر ما لا يستطيع إظهاره . إنه يحافظ معهم على مواعيد الصلاة، رغم ذلك يسمع بعدها بعض الهمهمات الفالتة، لكنه واثق أن لا أحد منهم يملك إلى الآن برهاناً قاطعاً على أوقاته تلك. مثل حيوان خرافي يترنحَ بروحه نحوها ويجلب لها الهدايا الثمينة. ألم تُخلق النساء لمتعة الرجل وخُلق الرجل ليصرف كل ما فى جيبه عليهن. ما الذى يضيرهم إذاً . هكذا هو يفعل، وهكذا هم يفعلون، وليس عليه سوى أن يستجيب للنواميس، إنما هم حاسدون لاغير، ولن يعبأ بذلك أبداً.

(٥)

الأشياء تتطاير ، تضمحل، يتدحرج وجودها في عتمة المبهم. ينام الليل فاغراً فمه في كل الجهات. هاجس عتيق يستيقظ ليشقّ العتمة. كل الصباحات تتشابه الاّ ذلك الصباح البعيد وهو يتمرغّ على سطح المنزل، مغسولاً بالندى وأول اليقظة. تنكمش على الفراش المبلول بخجل متكررّ، بعد أن يخترقها الصوت المباغت، يشق بكارة صحوها، ويزرع في داخلها غابة من الوجل.

كانت تتلّمس ذراعي «عائشة» بذلّ. «أرجوك ياأمي.. لا تفعلي.. لا تجعليهم يسمعون» لكن الأخرى فقدت في تلك اللحظة أمومتها.«بل سأفضحك اليوم على الملأ حتى تتوبي». صوتها الضعيف يبهت أكثر «لن أفعل هذا مرة أخرى. .لا أدرى كيف يحدث هذا معي.. إنه يحدث دون إرادة منيّ» يتلاشى الوجه المتوسلّ ويشمخ بدلاً منه ذلك المتوعّد. الحوافر الغليظة تطأ جسدها المنكمش. تنتفض الفضيحة في أرجاء المكان. تخال أنها تتسعّ لتشمل الزقاق كله. ينتابها البكاء الفجائي منصهراً بفقاعات الصوت المقيت. «لماذا تبكين .. ها .. قولي لماذا تبكين. تجاوزت العاشرة ولازلت تتبولين في الفراش. أي رجل سيقبل بامرأة تبول فوقه؟» لم يكن لها من ردّ لتجيب به عن سرّ ما يحدث لها.

الوقت متخم بالقلق وبالصوت الذي لا يهدأ بين الشيخ مسعود وأمها. ذاكرة تتلعثم في الانتهاك والسباب والشتائم. لعله شيء من الرماد ذاك الذي يغطّي كل الأفق المنظور من ثقبها الصغير، أو هي تلك الاستباحة تروّض ثنايا الهدوء لتحوّله إلى خلخلة أزلية تبدأ هناك... في تلك النقطة من العمر، لكأنه رجع الصدى يتضمّخ به الصوت محملاً بشجن النهايات المريبة، فضاء من الخوف يمتلىء القلب به، ويمتلىء بالشيء المعتم في الهواء المتلاشي بين براثن العراك اليومي. منذ ذلك الوقت اعتادت أن تترك الباب هكذا مفتوحاً، لا تطيق ما هو مقفل وموصود، فيما الليل الثقيل يعربد في مسام الغرفة. تمدّ يدها نحو وجه الوقت المتوزع بين اثنتي عشرة محطة زمنية وشاربين كثيفين، أحدهما أقصر من الآخر. القصير يشير إلى

الرقم «إثنين» والطويل إلى الرقم «عشرة» . مجرد عشر خطوات أخرى ويتوحدّ الشاريان المحكومان بالرتابة ليعلنا قلقاً نهائياً يدقّ فيه الزمن وقعه مرتين.. ثم ثلاث.. وككل مساء لا فائدة . محال أن يستكين هذا القلق المستنفر فى هدأة النوم. فى ذلك الرواق الخلفى للبيت القديم وهو يغرق، يتفتت كل شيء يحتويه فى الماء. يتأرجح المشهد فى تراخيه وينبت تمازج الوجوه فى غرق عظيم. كل شيء ينغمر فى الطوفان. الحوش .. الغرف والسلالم. الجنيّ يطمس كائنات البيت دفعة واحدة. مجرد أذرع .. سيقان .. وأوداج منتفخة بالامتلاء المائي المحتشد. عيون مورقة بالرعب والماء . كيف كانت الدموع تشقّ طريقها فى الغرق؟ وهل كان الأمر محض دعابة أم عبث ينتهك بسخريته كل شيء؟ تتذوّق طعم الغياب والموت، فى الأرض المطمورة فى الفيضان ، ودون الباقين تملك قدرة التحدّث. تناديهم كلاً باسمه .. الشيخ مسعود. عائشة. الجدّ . الجدّة وإخوتها الأصغر. تنعتق بصوتها من أسر الماء ، تسرج نحوهم خيولاً مائية، وحين تقترب وتمسك يد أحدهم يدفعها غول ضبابيّ، يربض فى مكان ما، نحو البعيدْ . هكذا كانت تراود الماء بشهيقها وتتحدث. تسمع النذير المنفلت من الأفواه الموصودة، تهتك رعبها بكلمات واضحة «إنه الطوفان.. الفيضان الكبير الذى كان ينذرنا به القدر منذ زمن.. كلنا سنموت وسننذثر». اليأس من إنقاذهم معاً يدفعها نحو السلمّ الطويل المتماوج فى صخب الماء. تصعده سلماً سلماً حتى تقترب من آخره. فى آخر سلمة يبزغ وجه الفضاء، ومن هناك تدرك أن البلاد كلها تغفو فى السديم المائى. النشيج يتناهى اليها من تحت . أحدهم يحاول أن يشدّها للقاع، وهي تمسك بوجه الفضاء وتقاوم الانذياح المرعب نحو الداخل. منذ ذلك الحين وهى لا تعرف بعد إن كان حلماً أو حقيقة ، وربما لم تفق قط من قبضة ذلك المجهول الذى كان يحاول أن يأخذها إلى سديمه.

بعدها :

لم يعد هناك ما يُصدّق، وربما لم يعد هناك ما يأسر اللحظة لتلك التى تليها.. مجرد فقاعات فى امتداد الزمن، يجازف فيه ذلك الذى يرتهن بفرس من ضباب. إغواء تضمحل فيه الكينونة. لاحضور الاّ للوقت الآسر والذائب فى فعل الغرق والغربة.

(٦)

لم تكن المرأة الغريبة مجرد زائرة للبيت، إنما وجهها سيطلّ مراراً بعد ذلك فى الأحلام . بائعة متجولّة تحمل فى صرتها أمشاطاً ومشابك وكحلاً وأدوات زينة، فى هيئتها ما هو غريب، خط أحمر يفصل مفرق شعرها من منتصفه، وفى حركاتها ونظرات عيونها مهارة من اعتاد التجوال والتحدث مع الغرباء، ورغم ودّها الظاهر الا أن شيئاً مخيفاً يتسرّب منها إلى من تحادثه. ربما سنوات الطفولة الأولى أوحت لها بذلك التوجس، وربما كلمات المرأة وصوتها المتحشرج أخرجها من دائرة الاعتيادية إلى دائرة الارتياب. حين أمسكت يدها مرّة، انتفضتْ وانتفضتْ معها جدائلها المضفورة بعيداً عنها. حشرتها هذه فى زاوية وتظاهرت أنها تعرض عليها بضاعتها وهى تمارس لعبة الإغواء:

– تعالي انظرى إلى هذا العقد الجميل..إنه من الخرز الملونّ

سيزين صدرك .. أو جربّى هذا السوار الفضى.. إنه من بلاد الحجاز.

وحين طال الصمت بها، قالت لها وهي تحدقّ فى وجهها تحديقاً غريباً : «لا تأنسي للوحدة كثيراً يابنية.. بل امرحي كالأطفال الذين هم فى عمرك. غداً ستكبرين وتعرفين أنه رغم كل شيء فإن الحياة لا تطاق دون الآخرين. الحياة ليست مجرد أوهام». طيفها المتسللّ من الباب، لايزال يناوش الجزء البعيد المنفلت من إرهاصات الذاكرة . كثيراً ما تتداخل ملامحها مع سحابة قاتمة ويخرج لسانها مرتجفاً لتزغّ به بعض كلمات مبهمة، كتلك التى قالتها فى زيارتها الأخيرة، فقد عرفت بعد ذلك، أنها رحلت إلى ديار أخرى، ومنهم من قال: إنها رحلت إلى أجلها المحتوم.

«إبنتك ياعائشة يضطرب فى داخلها شيء غريب.. إن لم تستطع أن تسيطر عليه فان روحها ستتمزق دون أن تعلموا» ، حاولت عائشة أن تبدّد الغموض الكامن فى حديثها أو ذلك التهديد الخفيّ أو ربما تدرأ عين الحسد . كانت مضطربة على أية حال وهى تقول : «إنها كأي بنت فى سنهّا وربما أقل كثيراً يا أم

العيّار.. فما الذى يدعوك لقول هذا» .. لكن الأخرى لم تسعفها: «نحن العجائز تصبّ الحكمة والنبوءة فى أرديتنا».. ثم حملقت فى وجه أمى وأضافت بما يشبه التحدى: «إنها كالدراويش ياعائشة . ولدت غريبة وستبقى غريبة ولكن بين مولدها ومماتها هناك هواء كثير» . التحدى السافر يربك عائشة أكثر: «كالدراويش! هواء كثيرا ما الذى تقصدينه بهذا الهراء؟». قالت الأخرى بنبرة أكثر هدوءاً : «من يدرى . إنها فتاة غريبة على أية حال. هكذا علمتنى وجوه البشر.. أقرؤها منذ اللحظة الأولى».

(٧)

كلمات . مجرد كلمات ينزلق نثارها في الروح شفرات مبهمة. من أين يجيء الدهر بمراسم ألغازه ورموزه السريّة؟ أي الجهات تلك التى تحتضن بذور المخبوء وتحرك الأوقات نحوها، فتخرجها من ضبابيتها إلى العلن، فيما الكائنات الاستثنائية تسرح وراء غوايتها وتمائمها وتصوغ من بريق الشهب والنجوم والأفلاك أقداراً محتومة.

أترصّد نثار الكلمات مثل بوهيمي ينجرف وراء طقوسه وينسلّ بـ مهده نحو مطاردة السخرية العابثة بالمصائر. أدرك الآن، أنه في النهاية لا يتبقى غير اللهاث، وربما مطاردة فاشلة بين صياد أحمق وطريدة أكثر حمقاً . البوهيمي وحياته يتسرّبان معاً فى إنطفاء الذبالة الأخيرة للعمر. يأتيه من يسخر منه فى نهاية المطاف ويعلن له دون دهشة أن مصيره كان محفوظاً فى الغيب ومرهوناً بما هو فى الكلمات وهو يعتقد أنه يصنع حياته ويقتنص حريته المراوغة والمنفلتة.

الصياد والطريدة، البوهيمي والناسك ، يجتازان فى اللعبة المريبة بأزليتها، ممرات معتمة فى غواية الرهان الخاسر لفك الرموز التى تطوّق الكائنات وتأسرها، وفى غمرة البحث المحموم يجيء الصوت المتحذلق يعلن نهاية اللعبة «كفى. كل هذا الذى يحدث مجرد سراب. لاشيء قابل للمعرفة النهائية».

الكلمات مرة بعد مرة.

لاشيء يقترح على المرء حياته مثل الكلمات.

لا شيء يدخل الريبة أو يحثّ الخطى مثل الكلمات.

لا شيء يصوغ العالم مثل الكلمات.

وهاأنذا أجازف الآن وأنساق وراء غبارها . «الحياة ليست مجرد أوهام» . ماذا إذاً ؟ أين هو ذلك اليقين المخبوء؟ قد يضيع العمر ولا يصل إلى شاطىء يقينه. ما يحدث أن العقل يجلس فى رواقه المعهود ليطيرّه الأرق فى أثير كأس مترع، ومزّة سمر ليلّي. يفعل ذلك ويسدل بعدها الستار عن مسرحية لاجدوى منها أو من سبر أغوار ما تحتفى به من إشارات.

أغلبهم يفعلون ذلك . أغلبهم، مجرد وجوه أخرى للشيخ مسعود. يفوحون برائحة الكؤوس والمضاجعات السريّة وجعجعة الدوران لطاحونة عابثة. بعدها فقط يفيقون من فراغهم، ويعودون إلى البهجة كالذى عاد من مهمة ثقيلة تمكنّ أن يحولّها بفطنته إلى متعة ظافرة بين الأثداء وبريق السحر النابع منها ومن سطوة الأرداف المترعة بالليونة. ومنهم إلى جانب ذلك ، من يتمتعّ بمزايا العالم السحري دون أن يحملّ نفسه عناء البحث عن أى معنى أو أي جدوى. الحقيقة هي ما يعيشه، والجدوى إعلان وقار مدروس بعد ارتشاف الفوضى.

أجازف مرة أخرى وأحدّق فى اللعنة التى تحيطنى.

مجرد امرأة ترتشف بعيداً عن كل ذلك، رموزها فى الوهم والكتب ثم لاشيء. فلتحتشد بالصمت الأبدي وترقب. طلاسم وأحجيات وأساطير . لا اقتفاء لأيّ أثر.. لا تحققّ من شيء ولا يقين، وإنما تمرغٌ فى جيوب الحاوى العجيب وبعدها خاتمة معهودة فى مكان ضيق هو العش المرتقب تحت سطوة حاو آخر، ليبدأ النبش والتفتيش في ذاكرة مهددّة بالانقراض . تلك الأخرى فى الأسطورة تمكنّت من ترويض شهريارها بالحكايات وتجاوزت الموت بالمهارة والمداهنة. أخرجت للحاوى ذى السطوة الأعلى كل شرائطه وعرضتها للاختبار وتماهت فيها ومعها . من أين جاءت رغم كل شيء بذلك الجبروت وهى رهينة السرير؟

أما الرجفة الدائخة فى فضاء العقل، بعيداً عن الأخرى ومهارتها، فلا مفرّ أن تبقى مركونة فى الزاوية، رهينة النسيان. رجفة صامتة وموصودة كالغيبوبة الأبدية. سلاسل تنهمر من السماء وتتلاحم فى الأرض. هو القدر يطاردها وهي فى مخبئها الأول والأخير. لولا هذا الجدّ النافر من وقته لما بقي شيء تقتات عليه.

الشيخ مبروك استطاع أن يجعل من صدفة وجودها سؤالاً. ليست الأسئلة ما يهرب منها وإنما يقين الاجابات . «قوانين التضاد أزلية . لا شيء يتضحّ تماماً ولا شيء يغمض تماماً .. بل الوضوح والغموض معاً» . كان فى صوته يومها شرخاً مكابراً . وفى كل مرة أسأله فيها ينتابه مزيد من القلق . «لم كل هذه الأسئلة ياشهر زاد؟ » وأنا أجيبه: «لم تبق الاّ الاسئلة. أليس من حقى أن أسأل». أشعر أحياناً أنى أحاصره. أطلب منه أن يبارك فعلاً مجنوناً يخرج الأشياء من رتابتها.

إعتدتُ أن أنظر فى عينيه وأستمر فى تحريضه على الردّ: «ولكن لماذا ياجدّ تكتسب المعادلة مذاقها الحقيقى معكم فيما نحن مجرد توابع فى حواشى الوجود؟».

يحاول المداهنة قدر الامكان:

«ليس الأمر هكذا .. إنما لابدّ من التضاد.. امرأة ورجل .. تلك هى سنّة الحياة».

وأحيانا ألجأ إلى استفزازه وأنا أكاشفه بكل ما أفكر فيه: «وهل التضاد يشمل الضرب فى دروب الحياة والبحث عن المعنى أيضا».

وقبل أن يتأمل السؤال أردف :

«هل الوجود يحمل معنى لكم ومعنًى آخر لنا. وهل هذا التضاد الطبيعى يستبيح تضاداً مفتعلاً فى قيمة كل منا؟ لماذا سادة وعبيد حتى بين متضادين من المفترض أن الطبيعة أوجدتهما هكذا ليتكاملا ، لا ليسود أحدهما الآخر.. ما الحكمة فى هذا والحياة تعبث بالاثنين معاً وتكيد لهما بالتساوى فى امتحان وجوديّ لا ذرّة فيه للانحياز لأى منهما».

يقول بتمعن وهو يفتح حدقة عينيه:

«ذلك رهن ببحث الكائن عن معنى وجوده ».

الاستفزاز يرتدّ إليّ :

«ماذا لو كان هذا الكائن مثلى.. أقصد إمرأة.. هل من إمكانية لتحقيق ما تقوله وهي أسيرة هكذا؟».

لحظتها يتأملنى بدهشة. يشعر أنى أسوقه لفخ منصوب. أستغلّ عقله المفتوح لدفعه نحو مزيد من المجازفة ، وأنا أدرك أن ليس بامكانه أن يأخذ بيدى ، لا لعجز فى فهمه هو وإنما لعجز ما حوله عن تقبلّه وفهم ما بامكانه أن يقوله ويفعله، خاصة إذا كان الأمر يتعلقّ بغيره، وبالأحرى بصبية دون أية خبرة عملية كما يرى. يضايقنى أن أراه فى حالة ضعف يمليها عليه ما لا إرادة له فيه، فهو نادراً

ما يخرج عن وقاره ورصانته وقوته، حينها أضحك في وجهه وأشعره أن الأمور ليست إلى الآن بالسوء الذي يتصورني فيه. ليس هناك ما يدعو للحيرة أمام كلماتي.. إنها مجرد كلمات.. رغم ذلك فإن تلك الكلمات تفعل ما أجهله. كمن يريد الانسياق وراء المنطق الذي أحدثه به ولكنه يخشى العواقب التالية.

★★★

هو الصوت الأنيس يبتعد والصوت الآخر يغيب في اشتعاله الفتيّ والمباغت ، عقارب الساعة لا تكفّ أن تعلن كل لحظة عن سريانها المتدفق. شيء من الجنون يلوحّ من بعيد وشيء من العتمة ينذره ويحذره ، أي تلاش هذا الذي يشبه النهايات التافهة والمألوفة؟

روميو وجوليت وآخرون مثلهما مجرد اختلاف في وقع المألوف وربما مجرد ناقوس متألق يدخل في برزخ الصدأ ليعلن الظمأ الطبيعي لعلاقة تتوق للاكتمال والتكامل .. ألذلك تنتهي بالفشل ؟

ثم ما هو الحب؟

هل هو الذي يجعل من حياتنا شيئاً أجمل.. أم أنه الأجمل لأنه يدخلنا في المدهش والمختلف عن سياق الرتابة ؟

هل هو ما نبحث عنه في داخلنا فنجده في الآخر.. أم هو الذي يعلمنا كيف نفتش في داخلنا عن أجمل ما فيه وأكثره رقياً ورقة ؟

ما الذي يحدث فجأة؟

لماذا يفتر المحبّون كل تجاه الآخر بعد أن يصلوا لبعضهم . هل هي النواميس المحبطة في فعل العلاقة بين الاثنين ، يصحو الواحد منهما فيجد الآخر المختلف بحكم كل ما ترسخ ، ليستمر بعدها مع الآخر لمجرد اجترار المفروضات . الرجال وحدهم ينقذون أنفسهم، وبحكم المفروضات ذاتها، يخلقون في حياتهم الواحدة حيوات أخرى. وحدهم القادرون على معالجة تلك الموسيقى الجنائزية المتسللّة منهما إلى ما حولهما بالتجاسر والغاء الكآبة عبر أخرى.

كيف يكون الاتفاق وأين الاختلاف ؟

كيف هي الأمور بالنسبة لعين تنفتح فتمتلىء بالردع والظلام.

(٨)

صباح القرية

يوم آخر كغيره يطلّ . الأحداث هنا تبقى قليلة مهما كثرت، وما يستفزّ مخزون الأخيلة فيها هو تلك الرتابة الطاغية على كل شيء دون استثناء . مرارتها من نوع خاص، فهى فى الوقت الذى تنأى بسكانها بعيداً عما يحدث خارجها، تجعل من آخرين قليلين ينأون عنها بالمقابل ، إلى محدودية أخرى ، تلك هى محدودية البيوت المغلقة، ومنها إلى الغرف المعزولة. الهواء والشمس فيها طارئان ، الا فى الأحواش المفتوحة للسماء، ومنها إلى أطرافها الخارجية المسيجّة بالحيطان ، كفاصل مرتبك بين الداخل والخارج. الرجال وحدهم، أو أكثر من غيرهم، يجدون فى معتركاتهم اليومية ما يدخلهم صخب الحيوات الأخرى، فى الأماكن النائية، حين يجىء رسول من هنا أو من هناك، ويصطحبونه إلى عالم آخر مفتوح على كل ما هو سرّى ومثير. النساء ، كالعادة ، هنّ الخاضعات أكثر فأكثر للمحدودية والضيق فى أقصى حالاتهما. إستثناءات قد تزخّ عليهم معاً مطر الآفاق المفتوحة خاصة حين يقيم الشيخ مبروك وليمة ليلية ، يدعو فيها الجميع للسمر والغناء والرقص الخجول، على دفوف زائر طارىء يرغب فىْ ضيافته.. ذلك ما يجعل منه قريباً إلى قلوبهم مع احتفاظه بمكانة عالية وجانب مهيب، تغفر له فى نظرهم ، غرابته وارتحالاته الدوريّة التى لا يعرفون عنها شيئاً ، إنما يتناقلون بهمس، عن بعض مجرياتها وعن مصاحبته للجنّ التى تمدّه فى نظرهم أيضا بقواه الخفيّة ، وطراوة روحه، وهو يحكى لهم حكايات مشبعة بالطرافة والمغامرات، ينتقلون معه إلى بهاء الأحداث الملتبسة بدهشة عيونهم، وهى ترمقه باعجاب خفى، كلما أطال حكاياته وأولم لهم الولائم البانخة بأنواع الشواء ، ودخانها يتخللّ أجساد الغجريات فى رقص بهيج ، دون أن يسألوا من أين يجىء كل مرة بهن ويحشرهّن بينهم، ثم يختفى المشهد كله فى صباح اليوم الذى يليه، وكأن الليل كان حلماً عابراً بدّد شيئاً من رتابة أرواحهم المستسلمة بكل الأحوال. بعدها يجىء نور الكلمات

والكلام، تستعين بها لتشحذ، بقية الفضول فى العقول الأخرى المحاصرة لبنات القرية، فوحدها دونهن تتوحد بالكتب وبالكلمات لتعود وتتأملها فى لعبة قاسية تشبه التمارين الرياضية. لا تكف عن ذلك إلا حين ينفتح الباب أمامها ويتحول زائر البيت إلى بؤرة الحدث، وهذه المرة كانت عرافة القرية.

تفرد ملاءتها فى منتصف الحوش وتجلس محاطة بالوجوه الفتية بعيدا عن رقابة الأهل، تشعرهن بالأمان، وهى تستعرض خبرات الحياة ومعرفتها ببواطن الأمور، ونادرا ما تفقد ثقتها فيما اختبرته، إلاّ إذا طرأ سؤال فى منتصف عرض حكمتها، ليربكها بعض الشىء . بالنسبة إليها فإن السر يكمن فى القدر او الصدفة التى يقودها القدر نفسه، فإذا باغتها كلام لا يعجبها من إحداهن، أرجعته إلى صوت الشيطان الذى يتلبس الأرواح على حين غفلة. تشعر أن الذى يحادثها هو لسانه، فتفتح عينيها على سعتهما، وتصيغ تحفظها بدهشة واستنكار من يعلم، فى حضرة من لا علم له، كأن تقول إحداهن وغالبا ما تكون شهر زاد «تتحدثين وكأن لا إرادة لنا»! لحظتها ترمقها وهى تلوى جانبا من فمها. «الحكمة طائر بلا قيد.. يحط أينما يشاء».. فتباغتها الأخرى:

«وهل حطت الحكمة فى ردائك وأخبرتك أن سر كل شىء يكمن فى القدر وفى الانقياد الأعمى له». لا تعرف ما الذى يجب أن تقوله ولكنها تحدس أن ليس من الحكمة أن تظهر أمامهن بمظهر العاجز فتقول «بل فى الإيمان به.. الإنقياد للقدر لا جدل فيه ياصغيرة».

« ولماذا لا تكون الحكمة فى أن يفعل المرء ما يروق له مادامت هى حياته.؟ ويحاول بيده أن يفك الطلاسم المحيطة به.. لا فرق فى ذلك بين أحد.. الكل منسحب فى النهاية نحو ذات المصير. »

ربما تستنكر بعض القول أو كله،، إلا أنها عادة ما تتجرف وراء حيرة السؤال فترد:

« وأين تضعين الخطأ والصواب.. الحكمة والنواميس إذا كان المرء يفعل ما يروق له ؟ » .

وفى محاولة لارباكها أكثر تسترسل السائلة:

«أضعهما حيث يجب أن يكونا . كل منا يتحمل خطأه وصوابه وبالتالى مصيره، خاصة أن الزيف يغطى كل ما حولنا... لم نعد نعرف أين الخطأ وأين الصواب والرهان الأفضل أن نكون أحرارا قدر ما نستطيع بعيدا عن ما أسميته بالمغريات أو الروادع».

تقاطعها العجوز باستراية:

«والله إنى موقنة أن الشيطان هو من يتحدث!»

تضيف الأخرى لمزيد من التوضيح والإرباك:

«بل قولى كيف نعى ذلك دون تجربة.. دون احتكاك بما حولنا. لماذا لا يجرب كل منا ما يفرضه عليه قلبه وإن شئتِ حدسه ويعيش. الأمر الأهم هو كيف بالإمكان تحقيق ذلك وما نصبو إليه يا عرافة وهناك من هو مثلنا رهين الجدران كما ترين».

عندها فقط تشيح بوجهها، لا تنتظر مجيء عائشة بقهوتها الطازجة. تحدس أن مثل تلك الثرثرة قد تجر عليها سخط البيوت المقفلة تتمتم «هؤلاء البنات لم يعدن كما كن أبدا» يسقنها نحو أفكار شيطانية مريبة. تبدو أمامهن وكأنها لا تحمل أية يقينية بما تقول. يتفوهن بكلمات تفوق خبرتها وتمرسها فى الانتقال بين البشر. ها هى الآن لا تريد شيئا سوى الابتعاد عن هذا البيت الموبوء. أليس من فيه من سلالة الشيخ مبروك.. ذلك وحده يكفى ليجعلهم خارج طبيعة البشر كما تعرفهم.

ووسط غمز الفتيات ولمزهن تنفلت بعيدا، وفى منتصف الطريق تلوذ بأول شجرة تصادفها لتنادى بأعلى صوتها، «سامحهن وسامحنى أيها الرب».. بذلك الدعاء الذى تبرىء فيه ذمتها، تعود لتطمئن على حيازتها الخاصة، تدخرها لأخريات فى مكان آخر. وفى ذات الوقت تبعد عن نفسها الصوت الممسوس الذى قد يتربص بها أحيانا، ويحتل رغما عنها حنجرتها أو أذنها لتنطق بما لا يجوز النطق به، وتسمع ما لا يجوز سماعه، وفى بعضه كما تعرف بالخبرة، ما يعرض

بضاعتها مع أسياد البيوت الكبيرة للكساد والنفور. يدهشها بعض الوقت ذلك الإحساس العبثى الذى يتسرب إلى عقلها ويجعلها أحيانا منفصمة عما تقوله ومتأثرة بما تسمعه. تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم. هل هو جنيّ يحتل جسدها دون أن تدرى؟

(٩)

من غبار الوجه يخرج مرارا ذلك المبهم الذى يحاصره ، هدير مفعم بالالتباسات، أين ترتحل هذه الصبية فى الليل السرّي ؟ عائشة تقول إنها تصاحب أهل النهر! يتطوعون لها بالغناء والرقص، ويحترفون سرد الحكايات العجيبة، «إنها تقول يا شيخ مسعود إنها أكثر طرافة من تلك التى يحكيها الجد» يشفقون عليها من وطأة الزمن وهى تأنس إليهم دون أن يصيبها أى وجل . «أتركها وشأنها .. إن سعيها الحثيث فى المناطق المجهولة لن ينوء بثقل ما بروحها» .. هذه البنت غريبة ، يحيره أمرها، منذ ولدت وهى موشومة بهالة لم يألفها. الجد نفسه يؤكد ذلك بين فترة وأخرى، يشعر أنه هو الآخر لا يختلف عن السحرة المدججين بقوى العوالم السفلية ، وحتى حين يحاول أن يقترب منه فإنه ينفضه بكلماته المستعصية بعيدا . يذكر جيدا ذلك اليوم الذى انتحى فيه جانبا من الحوش وأشعل نارا كبيرة، نار تشبه المحرقة وحين سأله:

«لماذا هذه النار يا شيخ مبروك.. ألا تخشى أن تحرق البيت ومن فيه؟»

رد عليه هذا بصوت ماكر:

«استدعى بها بعض اصدقائى من أهل الأرض يا شيخ مسعود»

يدرك جيدا أنه يسخر منه ويسعى للحط من مكانته وهيبته.

«ألن تكف عن مهاتراتك المخيفة هذه. بالبيت صبية وأطفال» .

حدق فى وجهه بشماتة وهو يقول:

«ابنتك لا تخاف كائناتى.. وبقية أولادك هم مثلك.. لا يعبئون بالاعيب أو مهاترات الجد كما تشاء أن تسميها».

حينها أدرك مستسلما أن تميمة سرية تجمع بين غموض الجد وروح شهر زاد. لم يتجاسر بعدها على السؤال، فلهذا العجوز غوايته الخاصة وهكذا هى أيضا إبنته التى أصبحت زوجة له. ارتبط بها وارتبط معها بذلك الصندوق الغريب

الذى ظل مرافقا لها دون أن يعرف ما تخبئه فيه أو يجرؤ على فتحه. مرة رشقها بفضوله المستبد. «ألن تفتحى هذا الصندوق لأعرف ما به يا عائشة ؟»

ردت عليه بتهكم:

«حاول وسترى».

«فى لهجتك اشارة تهديد!»

«بل أنا أدفعك إلى أن تفتحه ياشيخ مسعود لتنسى بعدها كل نزواتك فى هذه البلدة اللعينة.»

ورغم الحنق الذى غطى وجهه والفضول العارم إلا أنه لم يحاول ، اضطرب فى داخله وخشى العاقبة. ترك الأمر كما كان عالقا دون مجازفة او مناوشة. تعاويذها الغامضة تنتصب في وجهه كالشراك. يشعر أنه الخلاص المتردد بين الاستكانة لعالمها والفضول فى هتك أسراره. يذكر أيضا ما قالته له مرة إحدى العجائز وهى تحذره: «الشيخ مبروك يملك قوة لا طائل لك بها. إياك أن تعبث به أبدا.. بإمكانه أن يسخطك إلى عقرب أو سحلية» هل ذلك ما يجعله يقف عاجزا أمام ابنته، منهوكا ومنتهكا من البريق الغامض الذى يخرج من نظراتها . أحيانا يتساءل: إن كانت تملك قوة خرافية مثل أبيها فلماذا لم تؤذه أو تقوِّمه رغم ما تعرفه عنه؟ لا شيء يفعله إلا وتكون على دراية به. تواجهه وهو ينكر ولا تلتفت لإنكاره، إنما يحتشد وجهها بيقين آسر. وهى تقذف به فى وجهه: «أريدك أن تعرف أنى لا أعبأ بك وبما تفعله. لولا ذلك كنت سترى منى ما لا طاقة لك به» يتركها وشأنها ويبقى صوتها ملازما له وهو يبث حنقه للريح.. «النساء. سلالة الأبالسة والشياطين».

والشيخ مبروك. لماذا يتركه سادرا فى غيِّه؟ هل هى الإشارة ما يربط بين عالمه وعالمها؟ العجوز قالت: «إن بإمكانه أن يتقمص روح الحيوانات والطيور والحشرات!»

أنَّى له بكل ذلك. قصص وإشاعات تدفعه إلى الانتهاك والارتياب ما أن يفكر فيها، مثل ارتيابه فى تلك الجلسات المتقطعة بينه وبين شهر زاد. سمعها مرة تتحدث بلغة غريبة وتراهن مع جدها على أهل النهر. تحفظ أنساب السلالات وتاريخ الأمم والملاحم وكلاما لا يفهمه عن انعتاق الروح وسلامها الأبدي! إنها

ممسوسة بالخرافات التى تختبىء فى قاع المياه وبنشيد حزين لا تترنم إلا به وقت خلوتها الليلية تحت شجرة السرو. وعلى ضوء القنديل المعلق يرى وجهها، وهو يتلصص، يزهو بنورانية خاصة وظلال غامضة، وهى تشدو.

أما عائشة فهى كالبحر المحتدم، يعلو زبده حينا ويهدأ حينا آخر . لا بأس إن كانت تطيش وتطفح بالصراخ والغضب، هو يدرك أنها بطريقة ما، تحبه، بطريقة ما، لا تريد إيذاءه.

هذا الشعور الملتبس يجعله يستمرىء اللعبة «من يملك قلب أمرأة يملك أغلالها». الجد يحوك الروايات وهى تحيك حياته، تحرك القيثارة وقت تشاء فينصهر فيها دائخا بشهوته نحوها، مثل المرة الأولى حين رآها عند الشاطىء ترقص رقصة البحر. شعر أنها بهيجة ورقراقة كالينابيع والغدران، سأل عنها.. قالوا: «ابنة الشيخ مبروك.. كبير القرية» يعرف جيدا سطوة هذا الشيخ على الجميع ويعرف أيضا ما يمتلكه هو نفسه كرجل من أمكانيات يجذب بها النساء. ألم يختبر ذلك فى إحدى رحلاته إلى البلاد البعيدة. ترافق وجوده فيها مع طقوس خاصة لمناسبة موسمية. خرج النساء والرجال، الموسيقى تصدح، بالأيدى سباطات النخل أو العرجون، أطرافها مشتعلة بالنار وهى تتطوح بين أصابعهم. دائرة نارية كبيرة يمسكون بها ناحية الكتف، حتى إذا وصلوا النهر ألقوا بأجسادهم فى مجراه، تنطفىء الشعلة وتتحول إلى أشكال عصى خارجة من النار، مشاكسات بوهيمية يزخر بها هذا النهر، لها مذاق الطفولة الغاربة، لايهم من يشاكس من.. المهم هو الدخول فى ذلك الطقس الموسمى دون تحفظات. تسلل من مكانه نحو الشط. يومها أصاب بسهامه قلب إمرأتين معا، لكأنه بنيان يزداد سمتا كلما مسته النار، امتلك قوة رهيبة وكان بامكانه أن يعيش تلك اللذاذات الى ما لا نهاية لولا موعد رحيله. «نصف متاع الدنيا تملكه النساء» وهو الآن يتراجع حتى عن فكرته تلك، ويؤمن أن كل متاع الدنيا يتوارى خجلا فى أجسادهن. قال ذلك مرة لإحداهن. ضحكت وغمزت له وفاضت بتغنجها ليذوب فى حمم عينيها وماء ثغرها.

قالت وهو فى عباب الماء المسحور:

«نصف المتاع أم كله معنا يا شيخ مسعود؟»

رد واثقا:

«بل أكثر من كله يا امرأة !»

تلك الهنيهات السعيدة والنزوات العابرة المسروقة تزيده ظمأ. تجعله لايرتوى، إنما مسعورا فى البحث عن مزيد من المغامرات. النساء كالفاكهة.. من بإمكانه أن يأكل كل تلك الأصناف دفعة واحدة ؟ النزوات تكاد تطبق عليه بالجنون وكلما أزاد لا يشفى ذلك غليله، عائشة وحدها تسخر من الأمر كله وهى ترتمى بين أحضانه ساعة، رخائه النادرة معها، جسده لا يكف عن المطاردة وهو يسمع هسيسها المتباعد:

– هنا شراب خاص، كأس مترعة بالمتاع كله.. لن تذوق مثله حتى لو تقلبت فى حضن ألف إمرأة معا!

كان ذلك أول كلامها بعد أن اطمأنت إليه وهو آخر كلامها منذ قبل الشيخ مبروك أن يزوجها له.

لكن «صفية» تصف الأمر بشكل آخر:

– هنا شراب الآلهة.. لن تجده إلا فى فمى!

هكذا هو يترنح بين المتاعين! لصفية سطوة مختلفة المذاق ولعائشة سطوة أخرى تشبه الحبال المفتولة تجره بها حتى لو كان فى آخر الدنيا.

(١٠)

ترتفع الأهازيج وترفرف الرايات فى البيت المجاور. لقد رزق صاحبه بمولود ذكر بعد ثلاث بنات، كاد أن يطلق أمهن لو جاء الرابع مثلهن. طبل وزمر وأرغفة ساخنة وفطائر وحلوى، ولا أحد يدرأ عنها تلك اللعنة الغامضة المتجولة فى أرجاء القرية. الا يشبه ميلاد الطفل، أيا كان جنسه، رجفة الشعاع الأول فى الخلق؟ كيف إذاً اعتادوا أن يكون للطفل الذكر حظوة أكبر؟ احتفاء باذخ، ينحازون فيه للذاكرة الموبوءة، فى رقصاتهم ونداءاتهم الصاخبة . منذ الصباح وساحة البلدة لم تكف عن اعلانها الموتور بالفرح العلنى، دائرة الرماد تطغى فى كل الطرقات كغبش يغلف وجه الأرض وعقولهم التائهة، ضاربين بدروع مفاهيمهم المتوارثة، رغم ما تنذر به أن الرماد مسكن الشياطين، فكيف يعيشونه! ولكن ماذا يبقى فى مطافهم الأزلى غير الرماد؟ منذ أول الولادة حتى ختام الرحلة. موكب الهدايا يخرج من بيت لبيت، تتهدج النساء بالأغانى والزغاريد ويتلوان بالرقص على استحياء، فى حفل التطهير، حتى إذا حان موعد الفحولة تقدم الجميع إلى بيت فتاة منتقاة، وهم رافعوا الرأس ويمتشقون الألق وعلّو الهامة، فجمعهم هو جمع الذكر، وهم يعرفون ما للذكر من حظ الأنثيين. تسيطهم القيثارة المقدسة نحو تخوم المرح المنفلت، مجدولين معا بالألوان والأقمشة المزركشة وطالع الشموخ .

لم يهدأ المجون الاضافى على حواشى بيت العريس حتى غابت جفونها فى النوم. جاء الوجه الأسمر من قاع النهر. أراد ان يرتحل بها إلى أدغال قيعانه. بدا سامقاً فى ظلال الماء، مشرئبا كنخلة تنهل من ينبوع مقدس، نابضا بالكبرياء المهيب. رأته يمتطى عربة ذهبية تزينها الزخارف.

جرها من يدها وقال: تعالى. ثم لوّح باليد الأخرى ممسكا نباتا أخضر. لوحّه نحوها سبع مرات وعاد بعدها الى سمته السابق وهو يرمقها بشهوته:

– منذ الآن أنتِ لى.. هكذا هى تعاليمنا فى القاع!

ما أن انتهى من كلماته حتى بزغ فى الماء ذكور وإناث بهيئات مختلفة، تحولوا فى برهة الى صفوف مهندسة يصطف فيها جانبان على بعد مسافات محسوبة،

تعلو الزغاريد والتهاليل والرجل الأسمر يقترب ليلتصق بها، وقبل أن تضمحل الكائنات الأخرى ويهّم بها، انداحت نحو الجهة الأخرى بعيدا عنه . هناك أفاقت، على بكاء طفلة تركض في الأزقة الملتوية، ورجل أسود مخيف انشقت عنه الأرض يطاردها بضراوة.. الوقت أول الليل ولا أحد في تلك الطرقات النائية تلوذ به، إنما الترياق يسرى فى قدميها المتعبتين، أمام الهياكل المتشققة والبيوت المنحنية فوق صمتها الثقيل، تهاوت قليلا، المعول الفولاذى يدق الأرض خلفها دون هوادة، ذلك جعلها تتجاسر على الخدر الذى يسرى فيها سريانا بطيئا، حشدت كل طاقتها وضجت بقدميها،. لتنأى أكثر عن هذا الذى يريد أن يطوّق طفولتها برعونته، تقترب من الذوبان فى اللهاث المتصاعد.. مطرقة القلب تهتك سريعا بأطرافها المتعبة. ظل يتلاشى، تتلاشى الطرقات معه. يبزغ دهليز ضيق لباب مفتوح يجرها إلى داخله. الآن وقد رمت بنفسها انحسر اللثام عن الوجه الأسود الذى ما أن رآها تنبطح على بطنها مغشيا عليها حتى ابتعد واختفى. من أنقذها فى تلك اللحظة، لم تعرف.. انما طيف استقر فجأة فى الطريق أفلتها منه لمسافة كانت تكفى لرؤية دهليز ذلك البيت.

وهى تهذى هذيان الحمى فى أحضان أمها قال الجد:

– سقوطها على الأرض غمر جسدها الصغير بالرضوض. جاءوا بالجمر والبخور، لفعّوها برداء أحمر والجد يدخل رأسه فى الرداء مترنما بتعاويذ خاصة.

– هل مسها شئ ؟

سألت عائشة والجد يشيح بوجهه عنها ويرد:

– دعينا من هذا الآن.. لن يكون ذلك معها.

قالت:

– لم أفهم يا أبى.

– لا تخافى ياعائشة. ستكون البنية بخير.

(١١)

يشرف السكون الآن على هودج من الرخاء. تقترب الحروف من اقحامها لتعلن الأبجدية وقتها في البدء. الأنثى الطريدة والرجل الصياد ولا زمن للفكاك من المطاردة.. أو وقت لسهد يشرف أول الصبح عليه، بل انتظار الريح القادمة من المسافات البعيدة. صحارى، مجرد صحارى، وخلف الامتداد الخرافى لها يقف الوجه مضمحلا، شاحبا، متعبا من مسافة الطريق وأول الغياب. الصياد وحده تهون المسافات لديه، فهل يحتمل حياة تحمل في شحوبها اصفرار الخريف وهو يتعاقب دون الفصول الأخرى.

تراه في المسافة المائية وفى المرآة المتأرجحة بين الحلم واليقظة. تكابد انتظارا طويلا موغلا في القدم ولا يجيء. تغمره المياه وتمرّ به كطيف من العهد القديم. في نقطة ما من المسافة وقفت أمامه مرة، تلال من الورد السماوى المتساقط يفصل بينهما.

قال لها: هنا يا حمقاء يمتزج النفى بالحضور.. رغم ذلك فأنت بعيدة.. اقتربى.

لوهلة شعرت انها لم تكن بعيدة، إنما غريقة بين صحوها والهذيان. ترفعها نحو السماء نشوة من الخدر اللذيذ فتنظر إلى وجهه بشيء من الألفة، ثم تستفيق من خدرها، فتشعر بالخوف، وهل مثل نورس مبتل ينتظر خيوط الصباح ويستبطيء بزوغها.

لم يتردد. قال لها: أحبك

قالت له: لو عرفوا ذلك لحجبونا معا في قعر النهر.

قال:

– سأتقدم لك، سأقابل الشيخ مسعود.

جفلت:

– وماذا ستقول له؟

– لا شيء آخر.. أريد أن أتزوج ابنتك!

– أهكذا ببساطة. سيسألونك كيف عرفتها؟ أين رأيتها؟

– كما يعرف كل الناس بعضهم.

– ليس بإمكانى أن ارتبط بأحد الآن.

– لماذا؟ ألست من سلالة النساء؟

– ربما جدى هو الذى لن يقبل وربما أوافقه الرأى.

– إنك فى الخامسة عشرة والبنات هنا يتزوجن فى سن أقل من هذه بكثير. قولى إنك لا تحبيننى.

– وما دخل الحب فى هذا.. إنما طريقى يختلف عن طريقك.

قال أشياء كثيرة ولم يفهم وأنا لم أتمكن من اقناعه. قادم من بعيد. متعب ومتوجع وذائب فى نشيج ما حوله . وحده يحمل وجه الألفة، رغم كآبته المعتادة. يرفع الصارية ويعلن تشبثه القاتل بكل لحظة مرت.

لكنه قادم ووجه البهجة غائب أو منطفىء فى غلالة خابية تناثرت فى أول المسافة من العمر، العمر الذى قال الجد إنه سيمتلىء بالحكايات المسحورة. لم أتبين ما وراء كلماته، لكنه الشيخ مبروك يتحدث بغرابة فى حالتين : فى خلوته مع نفسه، وهو يسترق السمع الى صوت الطبيعة، وفى زمن سرد الحكايات القديمة التى تمتلىء ذاكرته بها بشكل غير عادى، انه حين يسترسل فى الحكى يشبه صندوقا مطلسما مليئا بالشرائط الملونة، ما إن تبدأ السحب وتمسك أول الشريط حتى تنهال الألوان الطيفية وتتلالأ بنور الثريا المعلقة فى رأسه. الغريب أن صندوقه لا يخلو أبدا من شرائطه الملونة حتى لو قضى أحدهم عمره كله بجانبه ينسج منه ما يشاء.

مرة قال دون مناسبة وقد قطعت عليه خلوته.:

– هل تعرفين حكاية الفتاة الجميلة المعلقة بين السماء والأرض على أغصان شجرة عالية؟

ودون أن ينتظر الرد استرسل:

– إنها تلك التى ترعى الجارة العجوز وتهتم بالعصفور الجريح، تموت أمها فتقوم على رعاية ابيها، ولكنه يتزوج ليريحها من خدمته، وتأتى زوجة الأب ومعها

ابنتهـا .. وبينما كانت (فانا) وهذا اسم الفتاة، ترعى الغنم سقت نخلة، فدعت لشعرها أن يطول، وأطعمت غرابا، فدعى لشعرها أن يكون فاحم السواد، وأطعمت حمامة بيضاء، فدعت أن يكون جسمها أبيض ناصع البياض، ولكن زوجة الأب استمرت توغر صدر الأب حتى ألقى بها خلف الجبل، وهناك ملأت (فانا) زيرا ونامت بين أغصان شجرة، ومر ابن السلطان فرأى صورتها على سطح الماء فطلبها أن تهبط عليه . (*)

وفى حكاية أخرى يقال إن امرأة عاقر، أتت بدواء من ساحر لتلد، وأكله زوجها فجاءه المخاض، هرب بعيدا عن القرية، ومرّ غراب فقرر أن يساعده فى الانجاب، على شرط أن يكون المولود من نصيب الرجل، إذا كان ذكّرا، اما اذا كان أنثى، فمن نصيب الغراب، ولما كان المولود أنثى باهرة الحسن فقد صارت من نصيب الغراب. فطار بها وأسكنها فوق شجرة، وقام بالعناية بها إلى أن نمت، وذات يوم مر بها السلطان وشاهدها فوق الشجرة . (*)

– لماذا تحكى لى هذه الأسطورة يا جدى؟

– إنك مثل (فانا) جميلة وطيبة.

– وسيأتى أبن السلطان ليأخذنى!

– سيكون لك فى الحياة النصيب الذى تستحقين.

ولكن ما لفت نظرى فى الحكاية شىء آخر:

– فى الحكاية الأخرى التى ينجب فيها الرجل.. هل كان هذا معتقدا يصدقه الناس؟

– الحكايات لا تعرف حدودا، إنها حين تبدأ، تنسج نفسها حتى تكتمل بما يرضى خيال من صنعها.

– ولكن ماذا لو كان هذا حقيقة، وليس خرافة، هل كانت أمور الدنيا تختلف؟

– الحكايات يابنيتى لمجرد استلهام الحكمة.. ولكن لماذا مثل هذا السؤال؟

---

* خرافة نوبية .

* خرافة نوبية .

– لا شيء ...... مجرد استرسال في الخيال.

– لقد أصبح خيالك أكثر تعقيدا كما أرى.

– بل مجرد خيال يضاف الى خيال خزافاتنا.. تسلية مضافة إن شئت.

هل كانت صادقة فيما قالته ؟.. أهي مجرد حكايات للتسلية أم أن الرهان كثيرا ما يبدأ هكذا؟ أخيلة وخرافات فإذا بها واقع منظور يتحقق.. المرأة الشيطان.. المرأة الأفعى.. والطلسم يشبك خيوطه العنكبوتية في تلك الدائرة.. وبعدها إما أن «ننتظر الدائرة السرابية لتخلع عنها سرابيتها أو نقبل بها كما تداولناها فينمحي التحقق الحقيقي لبني البشر لأنه لا يجيء من سراب مهما طال مكوثه».

أهذا ما كنت تقوله أيضا؟

ألهذا يبعد كل شيء عن ذواتنا أبعاداً كونية لا تُرى؟ ألهذا البحر هودجك لا البيت الشاسع، والسماء سقفك لا القصر الباذخ، والمعنى سريرك لا الهودج اللامع؟

أية حكمة تبتغيها وتدفعني اليها باشاراتك وطقوسك وأنت تعرف أني مكبلة؟

الطريق الذي تنام فيه البيوت ساكنة في هدأتها، يعود منه الرجال لأسرة النوم الليلي، بعد نزواتهم العابرة إن تحققت . وحده تطل لعينيه ذات البيوت أشباحا نائمة دون أن تغويه. يتوجس به الطريق وتلتمع السماء في وجهه بنجومها النائية، يشع القمر في دمه وكأنه رفيق رحلة طويلة، اعتادا قطعها معا. منذ أن ماتت الجدة وهو وحيد يمضي الأيام في سرد غرائبه ، وهو وحده يدرك أية لجة عميقة يقطعها مع ذاته، أي مأوى كانت الجدة تمثله ، وأي مهرجان للسنابل كان يتراقص بينهما حين يقتربان من بعضهما.

لم أشأ أن أجعله يفلت من إضافتي لحكايته:

– ماذا لو أن الحكاية الثانية كانت واقعا. لو كان الرجل مثل المرأة في طبيعة جسده.. أكانت مسارات الدروب ستختلف.. هل كان لي بعدها أن أنطلق مثلك تحفني الريح وألهج بالألغاز والكائنات الغريبة.. هل كان مصيرنا سيتغير؟

– لا اعتقد أن الأمور ستحل في توقعات كهذه..

يدخل صمته ويسرح بي الخيال.

عـائشـة

وردة هنــــا
وردة هنــــاك
ويتفتح بستان الحياة
على ابتسامة عادلة

كم مرة حدث ذلك؟ أن تقف عائشة فى مدخل البيت الكبير، تنظر إلى شبح زوجها وهو يتوارى، ثم ينوب بعيدا خلف النهر حسب مقتضيات اختفائه الدورى كل ليلة. لكنها الآن تعيش إحدى المرات النادرة التى تنتابها فيها حالة من الصفاء الرخيم. تنظر باستخفاف الى حياتها، التى لم تكن قط راضية عنها، والى مجريات الأمور، وهى تمضى أمامها برتابة موشومة بحزن عتيق .

فى مثل هذه اللحظات تسترجع الشريط المضطرب، وتعاود التأمل فيه بنظرة قاتمة، سرعان ما تزول بعد أن تنقاد لا شعوريا لوقع طبيعتها المألوفة. ومع انقضاء كل هذا الوقت، لم تعد حتى هى نفسها تعرف سر تبرمها المتواصل، ولم تعد تأبه قط لما يقوله الشيخ مسعود :

«إنك تقضين على فرصة التفاهم الوحيدة بيننا وعلى الراحة المتاحة لنا معا. لديك بيت يحسدك عليه كل الريف. أب ذو سطوة يشهد له الجميع ويخشاه. زوج تاجر يُحسب له ألف حساب فى أى مكان. أولاد مرموقون. ابنة ذات جمال وعلم، وإن لم تكن قد تزوجت بعد فحتما لن يبخل عليها القدر برجل يليق بها وبمكانتها مثلما هو متاح لمن هن أقل منها جمالا وعقلا . أولادك الثلاثة جميعهم سافروا إلى المدينة الى حيث يواصلون دراسات عليا كأبناء أكبر العائلات.. ماذا تريدين بعد؟!»

هكذا هو يرى الأمر، وهكذا يسرد مدائحه المتفائلة لحياة مرفهة تعيشها دون أن يعرف سببا لتبرمها وضيقها الدائمين أو ربما هو يعرف ولا يريد الاقتناع. أما هى فلا ترد عليه عادة، وانما وهى فى حالتها هذه تنزوى فى ركن بعيد وتنتحب خلسة. تهاجمها التخيلات والأوهام والوساوس وما تلقيه النبوءات المحظورة من ظلال سوداء.

تسأل نفسها السؤال ذاته ولا تجد تفسيرا واضحا او قدرة في مواجهة الجانب الخفي والمتوثب منه، لأنها ببساطة لم تعد تعبأ بشيء مما يدور حولها.

كان البيت منزويا في الحقول، منفردا كلحن ناقص على طريق جانبي من الحقل والريف، يحيطه العراء من كل صوب ، وعلى أسطح البيوت المتناثرة على مبعدة يترامى للنظر كعلامة طريق، ربما شيء بسبب ذلك يجعلها تمتقع بغتة، ويستيقظ فيها خلسة شبح الوحدة، تنظر أحيانا الى الحديقة الخلفية وتبتسم بيأس: «لقد أصبحنا نتخذ من العراء والظلمات بيتا» .

والد الشيخ مسعود وهو يختار المكان للعائلة المتفرعة كان ينظر إلى الأمر بشكل آخر ، اختار قطعة الأرض هذه، لتميزها تحديدا بالخلوة، وبامكانيات الطبيعة التي سرعان ما ستنغمس بدفء الموقد الليلي، في أمسيات شتوية يستحضر فيها مع الشيخ مبروك، القصص والحكايات الشيقة وسط دخان الغليون او الشيشة الأثرية .

كان يقول بانبهار:

«هنا سنبني مملكتنا الخاصة. نحقق معا الحلم الذي ظل يطاردني طويلا. بيت متسع قائم كالعلامة يلم شمل الآباء والأبناء والأحفاد ويجمعهم يدا واحدة» .

سرعان ماتمّ بناؤه على المساحة الواسعة، دورين فاخرين، طوب متماسك تمّ انتقاؤه بعناية وسطح مسقوف بالقرميد المائل للاخضرار. لم يكن يدرك لعبة القدر القادمة معه وغدره بالحلم العتيق. تشرذم جميع أولاده، كل في شأن ومكان، حتى إذا انقطعت أواصر الود بينهم، مع ملامح الحياة الجديدة، لم يعد أحد منهم يرى الآخر الا في المناسبات الموسمية أو الطارئة.. مثل الأعياد والجنازات العائلية الكبيرة والأفراح الهامة . حتى جاء وقت اشترى فيه الشيخ مسعود نصيب اخوته في البيت مع ترعرع تجارته . وبكثير من الوقار والصلد، كانت عائشة تحاول جاهدة ان تحافظ على سمت اسرتها الصغيرة، دون أن تنسى أن تتنفس عن حنق مغلول ومنهك يتنابها بين الفينة والأخرى، مستعيدة مع نفسها ومــعهم كفاحها المغمور ودورها المؤثر في بقاء هذه الأسرة متماسكة رغم كل هواجسها. مغرمة بالضجة الخارجية علّها تسدل الستار قليلا على ضجيج داخلي أقوى.

«لولاكم لخرجت من هذا البيت وفررت منه منذ زمن بعيد»

هذا النزوح الفورى والدائم نحو الشكوى، رغم التزامها بضوابط الأسرة، جعل شهرزاد تنأى بنفسها أغلب الوقت فى الدور الفوقى، لا تنزل منه الا نادرا، أوقات الأكل وفى المساء حين تختلى بنفسها مرة أخرى فى الحديقة الخلفية تحت شجرة السرو الضخمة.

الشيخ مبروك هو التميمة الخفية، التى تجعل من عائشة كائنا يهدد كما يشاء ولا يفعل أى شىء مما يهدد به، يعرفها جيدا ويعرف السرّ وراء ندبها الرصين بين وقت وآخر . ألم يكن هو وأخته السبب فى فشل زواج كانت تطمح اليه من ابن أخته «علي».

وشـاج سـرّي ربط بينها وبين «علي» هذا . يجلسان مـعا حـول جمر الموقد الليـلى للشيخ مبروك ، بصحبتهما أختها الأصغر «آمنة» وأخوه «محـمـد» . تهصرهم معا حكايات المغامرات والحب..... البنت الجميلة والولد الشجاع الذى يأسر الطوفان ليصل الى حبيبته. بعدها ومعا ينصتان للسكون الجليل وهما فى طريق العودة الى البيت. تتلامس الأصابع اللبنية وقد تندفع الى حضنه الغضّ حين يداهمـهمـا فجأة نباح كلب متشرد يتسلل بغتة الى الطـريـق المظـلم ، وهكـذا تفعل آمنة مع مـحـمـد . الظـلام يجمعهم والسير المحلقة لأشخاص غـريبين، تخلق بينهم عـالما من الإثارة والرؤيا النازحة فى خبايا الطقـوس السحرية، مـأسورين بدغدغة الحكـايـات لقلبيهما الطفلين ، عـائشة وعليّ ، مـرصعين بالوثاق القدسى القـادم. لا أحد كـان يعرف مـا يدور بينهمـا أو فى جوانح القلب، لكن الشيخ مبروك وأخته المهيبة وبقيـة أفراد العائلة كانوا، رغم كل شىء يعرفون أن عائشة لعليّ وعليّ لعائشة. منذ أن ولدا والرابطة السرية ، وثقت اسميهما معا. هكذا كُتبا لبعضهما وهكـذا فيما بعد تم تـوثيق اسمين آخرين يصغرانهما . هما آمنة ومحمـد .

قال الشيخ مبروك لأختِه:

«ابنك يعـشق عـائشـة. لقـد كبـرا وعلينا أن نفى بالعـهـد الذى قطعناه فى تزويجهما ونفكر بعدها فى شأن محمد وآمنة » .

لكن ذلك لم يحدث قط. وقلبا العاشقين الصغيرين ظلا أسيرى ذلك الاختراق المشحون برسوم ومناوشات الإرث بين الشيخ مبروك وأخته. «العاشق فقد معشوقته الى الأبد» . هكذا قالت أمه وهكذا قال الجد الوقور وهكذا ترك العاشق الريف بأكمله واتجه الى مكان آخر، لم يعرف له أثر بعدها وكأنه يعاقب أمه وخاله معا.

تزوجت عائشة من الشيخ مسعود وتزوج هو بعدها بسنين طويلة زواجا مبتسرا من امرأة لا تنتمى الى العائلة بصلة قرابة او اليه بصلة قلب، وتكررت ذات الحكاية مع آمنة ومحمد.

الشجرة المائلة خلف الشباك المستكين يجعلها الآن تنظر الى البعيد.. الى تلك الجهة التى تخمن وجود «عليّ» فيها، وتجد فى الربط بينه وبين الشجرة الكبيرة التى استظلا بها كثيرا شيئا من الألفة والحنين والشجن.

فى الجهة الأخرى ، حيث «عليّ» تستلقى امرأة بساقين يراهما ممدودتين كعكازين من مرمر ينتظران الالتحام الذى لايجىء إلا بصعُوبة .

فى الجهة الأخرى نهر من شجن وطفولة من ماء يترجرج . فى الجهة الأخرى تكمن الخرافة التى تؤجج نفسها وتلج روح الحبيب فى أمسيات العبث والحزن القاتم . فى الجهة الأخرى لايرى الوجه المطموس بطين الفراق ، إلا مسافة الطريق الموصلة إليها ، ولا ترى عائشة بدورها إلا رفيف النزوع والشجن الأبدى المتسرب منها إليه .

هكذا أصبحت أختها «الخالة آمنة» شجرة السدر العتيقة التى تأنس لها عائشة كل يوم . تقابل الواحدة منهن الأخرى فى مسامرات لاتنتهى ، يصل الصوت أحيانا هامسا وأحيانا أخرى صاخبا ، لا أحد يعرف بماذا تهمسان أغلب الوقت ، ولا أحد يعرف سر ذلك التجانس وتلك الصلة الغريبة التى نادرا ماتربط بين أختين . هل هى الصلة العبثية التى قدرت لهما مصيرا مشتركا ؟ أم هو العويل الداخلى الذى يتسع ليتوزع بين ضلوع كائنين ، سفه القدر أحلامهما الصغيرة والكبيرة ، وطعنهما معا فى الخبيئة الداخلية .. الحب غير المعترف به وذلك الكبرياء المطعون فى مواجهة عدم التحقق .

عائشة وآمنة

أنا وهى .

قطفنا معا بهجة الحصاد الأول فى الطفولة والصبا ، وضعنا أول القدم على طريق القلب . ذهبنا معا نقطع المسافة إلى قمة الضوء . داهمتنا خيول ممشوقة تنظر إلى الخبايا الرهيفة بعيون من حديد . كركراتنا البريئة لم تفطن الى جثث الموتى التى سبقتنا وتتدافع نحو البحر ، من هناك جاؤوا ، ملثمين بلثام أسود . سحبوا آمنة . سحبونى معها . دخلنا جذور الشجر ورائحة الأزهار . تركتنا الأيادى وأهالت التراب فوق الجذور . من يعرف مكان سر قرر أن يختبىء فى التراب .

قالت آمنة :

- لا أريد أن أموت . ثم ماجدوى حب مطمور ؟

قالت عائشة :

- أنتِ أنا ومثلك أتشهى الحب والحياة .

- أين رحلت الخيول ذات العيون الحديدية ؟

- ترصدنا !

- أين ؟

- هناك ... خارج الضوء والشجر والنهر .

- سأكتم مابى وأخرج من هنا ياعائشة .

- الكتمان يلاحقنا أينما نكون !

- ليس بإمكان أحد أن يسرق نور القلب ياعائشة .

- بإمكانهم أن يحيلوا النور إلى ظلام .

- هل لأن الأشباح لاتعرف الحب ؟

- الأشباح رهينة الرماد والأماكن المغلقة .

- هى مثلنا إذا ياعائشة ؟

- أسمع دقات المطر .

- التراب يملأ فمي .

- النور في الخارج يضيء الخليقة .

- كيف أصبحنا في الجهة الأخرى يا عائشة ؟

- لا تتوسمي الحلم في أي مكان خارج مكاننا هذا .

- هو الذي يطاردني .

- أسمع صوت غناء وخطوات قدم .

- إنه صوت الخيال ياعائشة .

- والرجال الملثمون باللثام الأسود .. هل هذا صوت أقدامهم ؟

- نحن بعيدتان الآن عن كل الأشياء .

- لا نعيش الحياة كما نشتهي .

- من بإمكانه أن يفعل ياعائشة .

- إدفعيني إلى فوق .. أريد الخروج .. إنني أختنق .

- إلى أين ؟

- إلى حيث الآخرون .

- الجحيم ! .

- ترى كلمات من هذه ؟

- كلماتنا ياعائشة .

- نحن لا نتحدث هكذا .

- ربما صوت آخر يتقمصنا هذه اللحظة ... إنه يتحدث عنا .

- لاتحزني هكذا ياآمنة .

- وهل هناك غيره؟

- ومن يعبأ ياآمنة ؟

- أنا .. أنت .. أنا وأنت ..

النبرة الخافتة تنسج من الكلام لونا وشكلا . تسبحان معا فى ضجيج الجدران المترفة بهما . هكذا كل ظهيرة وكل مساء ينتابهما حنين قاس الى الوجود، برهة وينقطع الصوت الهامس . يرتفع مزلاج الباب الكبير معلنا صريره الكئيب.

المكان كما هو ولا وجود لأحد فيه إلاهما . خرج الظلان نحو النهر لمزيد من فعل التهامس الغامض فى حضور سماء رمادية تجاهد سحبها للانفلات بلونها الأصلى ... لكأنها توشك على الرقص والغناء ولو خفية ، مع طيفين متلاصقين يطرحان قلبيهما لجذور الشجر والبراعم الصغيرة علها تدارى شجنا قديما ، فيما الأخت الصغرى أكثر من الأخرى موتورة بالقلق والسرمد ، فآمنة فقدت أبنائها كلهم واحدا بعد الآخر لأسباب غامضة .. لم يبق لها منهم إلا الابن الأكبر .. «قاسم» الذى كان واضحا أنه عاش بمجرد الصدفة ونجا مرتين من حبال الموت، خمسة قبله رحلوا فكيف بقى هو وحده شاهدا على المأساة، ذلك الوجود والبقاء الحائر الذى يجتر عزوفه عن الناس والحياة .

فى عينى آمنة يطل حزن جليل ، يعرفه كل من يراها ، جاء بكامل مراسمه وطقوسه وسكن وجهها . اعتركت الحياة أكثر من غيرها ، تقلبت بين الغنى والفقر حتى اختارها الأخير شريكا ملازما وأبديا ، منذ أن مات زوجها الأول وأبو أولادها ، الذى لم تنجب من غيره ، مات فى لحظة خاطفة كانت أحوج ما تكون فيها إليه ، لكن الجرعة الزائدة من السم الذى كان يتعاطاه قلب كل الموازين ، لم تفق من الصدمة إلا بصدمات أخرى، فقد فقدت أربعة من أبنائها دفعة واحدة بعد ذلك وخلال سنوات قليلة . هل كان هروبا مستحيلا وهى تقبل بالزواج من الرجل الثانى ، الذى استهواها قليلا بألاعيبه ومرحه ولا مبالاته وربما لسبب من ذلك خسرته أيضا ، وهو الذى وضع القمار شريكا لها ، جعلته يقسم أن لا يعود الى ذلك أبدا ، وإن عاد فهى محرّمة عليه الى الابد ، وفى ليلة كالحة نسى عهده لها ، اختفى عدة أيام حتى اكتشفت أنهم وجدوه ثملا على مائدة القمار، سحبت طفليها، واختفت من بيته الى أن طلقّها وهى حزينة . مرت سنوات مكفهرة ، عاشت فيها النظرات المستريبة لامرأة تتطّلق مرتين، ربما ذلك مادفعها لتجرب مرة ثالثة ، وقد

كان هذه المرةأحد أقرباءها البعيدين ، قبلته دون مسائلة أو تفكير، ولعب الحظ السيء معها لعبته الأثيرة . فقد ثروته على مراحل زمنية متقاربة ... سكير ومقامر ولوطى .. لم تفطن فى البداية لسبب ابتعاده الجسدى عنها ، وحين اكتشفت الاسباب مجتمعة ، كان المرض قد داهمه ومات بعدها بقليل . ومنذ أن ترملت لم تفكر ، من حينها فى الارتباط بأى رجل ، ولم تعبأ بالناس ، خاصة أن الموت اختار ابنها الخامس ، رحل مع الليل مرة فلم تره بعدها إلا جثة هامدة . لم تكن تملك سوى بيت زوجها الذى مات عنها ، احتضنت فيه اثنين من أبناء «قاسم» الصغار ، تدارى بهما وحشة الليل وقسوة الزمن . فى الاربعينات من عمرها تتنابها نوبات من الرعشات الجسدية وتخترق فيها الذاكرة والروح لتبدو أشبه ماتكون بطيف نحيل منهك ، صامتة أغلب الوقت ، لا تؤانس صمتها إلا بهسيس الكلام المنثور مع عائشة، لكنه الحضور الذى هو الغياب ، والغياب الذى ينهمر فيه كل الأسى والشجن وحزن سكن وجهها ، ولم يغادره قط .

الشيخ مسعود وصفية

كأنما جسدى ليس لى .

لم يعد من ماء فيما تبديه عيون الحكمة لرجل مثلى .

وجود ضئيل ينازع ضراوة ريح عاتية ، مالذى بامكانى أن أفعله . هذا المساء وعدتها أن أحسم الأمر ، لقد بدأت ترمى فى وجهى غنجا ودلالاً من ذلك النوع الذى يتمنع فى اللحظة الأخيرة .

«أنت ياشيخ مسعود لاتحبنى وإنما تحب هذا الجسد الزائل .. إن كنت تحبنى تزوجنى واربطنى بالأبناء» .

لم تعد تعبأ بما أقوله أو بما أردده وأنا فى فورة العشق . هذه المرة أردت أن أقول لها «احكى ماشئت ياصفية فأنا مصغ ولكن مع الحكاية امنحينى جسدك ، وحده يجعل فؤادى برقة النسيم . وحده يجعلنى أنسى أنى مسعود التعس الذى تحاصره مأزق فحولته ، بصدك وهجرانك لى جعلت منى عبدا .. كيف يهنأ العيش لمن فارق أحبابه» .

لكننى صمت . لم أشأ أن أبدى لها ضعفى هكذا ، أردت أن أسمع كلماتها أكثر وكل ماتلومنى به ، لعل حديثها يصدنى عنها أو يرمينى تحت قدميها دون مكابرة .

قالت بحزم لم أعتده منها :

«إنك تقودنى كالذبيحة الى الفراش ، لا أرى تهالكك معى إلا فوقه . مابالك مسكونا بوحش جسدك وأنا متيقنة أنك لاتكتفى بواحدة ؟ لكأنك تكتفى بواحدة !».

لم تشأ أن أقترب منها . دفعتنى بعيدا . رأيتها تنحدر بى نحو المواجهة . ألم يكن هذا ماأريده . إما أن أفيق أو أزحف هناك كصرصار ، حيث وجه الأخرى الغائب فى ظلاله المعتمة ، وحيث ابنتها تستنطق مافى وجهى من ضياع ومجون لا أفلح كثيرا فى مداراته . يستقر بصرها على فمى وأنا أخاطبها ، توشك أن ترمى كذبتى علىّ وتسخر .

إننى الآن مثل غيمة سوداء محملة ، لاتعرف أين تحل بمطرها . مرارا حاولت أن أمنع نفسى عن صفية وسرعان ما أرتدّ إليها . تلك المرة تحديدا ، وما إن

رأتني أعاود طرق بابها الموصد بعد أيام من الصّد ، قالت وقد وثقت من مشاعري نحوها :

«هل أنا جارية أم معشوقة ، عاهرة أم حرة ؟ مابك وأنت الشيخ العجوز واللعوب أرضى بك ولاترضى أنت بي ؟ أم أنك نسيت مافعلته ونسيت وعودك يومها وأنت تحولني من بكر الى ثيب ..» .

ثم زاد صراخها ، وقد حلت الصاعقة على رأسي مما لم أتوقعه :

«أغرب عن وجهي .. لا أريد أن أراك بعد اليوم مهما حدث .. حتى لو جعلني الأمر ألا أتزوج حتى نهاية العمر» .

«ولكن ياصفية .. اسمعيني..»

«ماذا تريدني أن أسمع بعد .. ألم أسمعك في البداية بعذريتي وها أنت تعاملني كشيطان رجيم» .

صفقت الباب في وجهي ولم تفتحه رغم إلحاحي ، بقيت أتعثر في الطرقات الموحلة فترة لم أعِ طولها ، حتى إذا أوشكت على التعب تراءى لي وجهها وغنجها وجسدها ، جعلت أفكر في سر انقلابها الفجائي هذا فلم أصل لشيء ، ما الذي حدث لتريني وجهها المتنمر دون رحمة ؟ ومالذي يجعلها اليوم تفكر هكذا وتنطق بكلمات تكاد أن تلجمني . ألم يكن بإمكانها أن تعلن رفضها في البداية ... لماذا الآن وقد أحببتها كل هذا الحب . لم تعد بالنسبة لي مجرد امرأة أو كالأخريات ، أتسلى معهن بعض الوقت ثم أمضي لا ألوي على شيء . وحدها تمكنت مني وجعلتني مثل شجرة ترمي بثمار لهفتها كل يوم . وكل يوم يمر أزداد تعلقا وأزداد شغفا فإذا بها تصد وتتمنع . أليست هذه الحياة لعبة ملغزة ؟ لماذا نحب ولماذا يزداد حبنا مع تعذيب الحبيب لنا .؟

«مقتل الرجل قلبه» وهل تحلو المسرات دون قلب ؟

«شبقك انتقل اليّ أيها الشرير ، بت لا أعرف النوم دونك» .

هكذا كانت تقول لي ، وأنا كنت أطارحها القولُ بمثله وأكثر منه . ألاحقها في كل زوايا البيت كصبي مراهق يرى امرأة لأول مرة بعد طول حرمان .

«كلما تأزمت الأمور بينى وبين عائشة .. ونظر الناس الىّ نظرة ذات ريبة ومغزى وهزمتنى الحياة زاد جوعى إليك يا امرأة» .

وكانت ترد بفجر وهى تضحك ضحكتها المدوخة :

«الى أى جزء يارجل .. قل ولاتستح» .

فى الآونة الأخيرة تغيرت لهجتها تماما .. وكلما رأتنى أزداد شغفا بها . شدت الحبل من جانبها حتى أوشكت على الوقوع . لم أعد أرى شيئا سواها ، لم أعد أطيق الحديث مع أى أحد كان . وحدها تحفظ توازنى بصباها وجمالها ودلالها واليوم أبدو كالسعفة الناشفة وقد طال هجر الماء لها .

أطرق الباب طرقات سريعة تعرفها . تفتحه على عجل . وجهها يطل مشرقا. قميصها الحريرى يتثنى على تقاسيم عودها . ينتابنى جوع أشد ضراوة من كل ما اختبرته . أحاول أن أتمالك نفسى وأنا أقبل عليها .

- فراغ ذاك الذى يملؤنى ... غربة وضياع ولايزيح كل ذلك إلا أنت ياصفية» .

أرخت يدى وتحركت الى الجانب الآخر :

- بل قل لايزيح ذلك إلا جسدى ياشيخ .. وهذا يولد الوحشة فىّ .. أخشى أن يذبل هذا الجسد فتتركنى الى سواى .

- وهل ساكون حين تذبلين إلا فى التراب !

صمتت وكأنها تدير الفكرة فى رأسها .. أردفت :

- إنك لا زلت صبية يافعة .. وإن كان من يخشى أن يترك أحدنا الآخر فهو أنا من يخشى أن تتركينى لسواى .

– أتخشى ذلك .. كلكم سواء فى نظرى .. ولكن ينتابنى شعور أنك لاتحترم مابيننا ... أنّى مجرد شىء من أشيائك سترميه متى تمل منه .

قلت متدفعا :

- بل أنت كل شهواتى وأهوائى وجنونى .. وهل بامكانى أن أرمى كل ذلك عنى.

- ما بالك إذا حين تغضب تنسى أمسياتنا وليالينا وعنوية هذا الكلام ؟

شهر زاد وعائشة

من بعيد تتضح الرؤية أكثر .

في القرب قد تضيع ملامح الأشياء ، تدخل في نسيج التفاصيل دون مواربة . لذلك لم أكن أعرف سببا للخريف اللانهائي في سفر تكوينها .

أمي وأنا .

وجهان اقتربا من بعضهما أكثر مما يجب ، فلم يعد أحدهما يرى الآخر . لم يعد هناك مايستدعي السؤال أو الدهشة ، كأغنية تتردد ومن كثرة ترددها لايعود للكلمة أو اللحن مايستفز الألفة أو الاعتيادية .

الحنين فقط يقفز مباغتا عندما تكون بعيدا محاطا بالصلف والانتهاك . حينها يتسرب اللحن وتقفز الكلمات من مكان ما ، وحينها أيضا ينتابك شعور مدرار بالتآلف والحميمية والوجد وتكتشف كم هي الكلمات ، ذات الكلمات التي اعتدت ترديدها دون دفء ، تحرك فيك النبع الساخن المنمنم بصخب القلب وتوثبه .

إن هذا ما يحدث الآن وأنا أستعيد وجه أمي الضائع .

كلماتها تأتي من بعيد ، تفصح عن شيء مبهم ، كنت أقترب منه ولا أقرأ ما وراءه :

«النساء في كل الأحوال ثكالى ! اللاتي أحببن أو اللاتي لم يحظين بالحب ، اللاتي تزوجن أو اللاتي عشن بلا زواج ، والرجال .. يالهم من كائنات غريبة ومكشوفة ، لاشيء سوى أنانية ممجوجة وسطوة يدوخون وراءها وفيها . حلقات مفرغة وغرائز لاتستوعب أبعد مما تحت السرّة . لو كانوا غير ذلك لأصلحوا هذا الكون الفاسد بسيادتهم وقللوا من تبجحات سموهِّم أو العشق الذي لايعرفون عنه شيئا . هذه المخلوقات لايليق بها سوى ما أكنه لها من ازدراء! » .

لم تكن تلك هي كلماتها بالدقة ولكن المغزى لم يتغير ، ولم يتغير أيضا مغزى كلام آخر ، أكثر إبهاما ، كانت تردده بين حين وحين على مسامع طفلة صغيرة :

«أنا امرأة لم تمتهن نفسها قط .. لذلك فقط أتجاوز سلوكه وأنانيته .. بعد كل هذه السنوات ، أؤكد لك أني لم أعرفه كما يجب ، أبوك الذي يتبختر في هذا البيت

كبخار الماء المغلى ! لدى رغبة محمومة فى الابتعاد وأنا أدرك أن من يحب وطنه حقيقة بامكانه أن يحب أوطان الآخرين دون أن يشعر بغربة . الغربة الحقيقية فى مكان لايفهمك فيه من هو معك» .

الأفكار التى تتمحور حول نفسها تأخذ بالدوران حتى تصل نقطة البداية ، تلك البداية التى تنتاب ظلمات الأعماق بهواجس غير مرئية ، يتعذر ادراكها للتو، لكنها تسترخى فى بقعة هلامية خلف كل ماهو مرئى ، وفى لحظة تقفز الى السطح لتنير بشكل مباغت وصارم غموض أحداث كثيرة ، يتحول الخفى ليأخذ نصوع الدائرة الضوئية .. يتفرع فى السديم كشفا لاحجيات وأحجيات .

الشيخ مبروك يحضر دائرة الكشف أو هو يساعد الدائرة الضوئية فى الوجود وبثقة يقول :

«أحضروا الى بيتى متى يصل بكم التعب منتهاه . ستجدونى هناك انتظر وسيكون لدى مابامكانى أن أقوله» .

لا أحد يعرف إلى من يوجه كلامه ذاك ولا مايرمى إليه ولكنه سؤال نابت يجد طريقه إليه :

ـ هل فكرت قط فى أحوالها ؟

ـ من ؟ عائشة ؟

يتنهد قليلا وفى برهة تشبه الهذيان الخاطف يفصح :

ـ إنها تذكرنى بسلالات المطلق ! تنطوى هذه المرأة علي كل الاحتمالات .. من يدرى .. ربما جاءت من زمنها الآخر وتسربت الى أماكننا رغما عنها ، المصائر لغز محير . بامكان الصدفة أن تخلق ، فى كل لحظة ، للحياة عندنا شكلها أو شكلا آخر غير ماهى عليه . أن نكون هنا أو نكون هناك ، أن أعيش هنا وربما فى ذات اللحظة أعيش فى زمن آخر ، أو مكان آخر ! هكذا تتسرب الأرواح بين الأزمنة والأمكنة ، لولا صدفة الولادة .. لولا صدفة ولادتها فى إطار الزمان

والمكان والنوع لنشأت ـ ريما ـ جنرالا يتفنن فى إسداء النصائح ويتنعم على الآخرين بأوامره وهيبته !

يضحك خلسة ليضيف :

ـ أليست هى التى ترى أن الرجال أغلبهم حمقى ، حين يعتقدون أن كل شيء حولهم خلق لغاية العقل أو العمل ، إنهم لايدركون بنفس التوق والجدية قيمة الحب والمشاعر والوجدان ونمنمات الطبيعة الغامضة وكأن كل الأشياء والكائنات ليست متضافرة بذات الدرجة من الأهمية أو لكأنها لم تخلق لتحقق للكائنات كلها السعادة والالتحام بالمدارك الخفية .

يضحك أكثر :

ـ هى تعتقد أنهم حين يقولون: إننا نحب فإنهم يقصدون بالحب هنا حواس الجسد ونيرانه التى لاتنطفيء .. ليس من سمو أو إدراك أبعد إلاّ فى آخر العمر . ريما .. قليلون منهم فقط يصلون إلى تلك العتبات العالية التى توّحد كنه وكينونة المخلوقات والموجودات فى تجلياتها العميقة .

هذه المرة يحدق فيها ويوجه الكلام إليها مباشرة :

ـ فى هذه النقطة بالذات أرى أن الحق معها ، فلو تخلت المرأة عن وجدانياتها الرهيفة ساعية حثيثا تجاه العقل الجاهز كما يفهمه الرجل لأصبحت الدنيا خرابا .. جفافا وآلية تتحرك لتدفع مجرد آلات أخرى نحو الحركة ..

المرأة عاقلة بشكل أشمل .. عقلها فى الحدس الرهيب والجامع الذى تمتلكه .. هذا الحدس الذى يشمل العقل والقلب معا .. المرئى واللامرئى ويخيف الرجل .. ومن هنا تنبع طبيعتها النادرة فى الحفاظ على نضارة الحياة ولونها وقيمتها وكمونها وكل ماهو مخفى .. والرجل لايرى فى ذلك إلا مجردات قاتلة يصفها باللاعقل وبالضعف ويحتقر على أساسها تلك الهموم والعواطف الدقيقة الكامنة فى رهافة المطلق وشفافية الزمن والشحنات غير المنضبطة والمتسربة من الخليقة إليها ومنها الى الخليقة .

إنه الزمن الذى يحاصرنا فى النهاية معا .. رجالا ونساء دون أن ندرك حجم المصيدة التى نتحرك بداخلها ، منهمكين فى اصطياد الظواهر الجاهزة ولا إلتفات إلى ماهو أكثر باطنية .. كالتماثيل تحركها أيد خفية وتنقلها إلى أبعاد أخرى ، متناقضة وفارقة فى الزمن ولكن لن تألو جهدا فى أن تعلن كل لحظة ارادتها اللامتناهية وسطوتها وانسانيتها المنتقصة دون وجه حق .

غبش المخاض

قالوا : كانت تترنح فى وسط الحجرة تملأ الدار عويلا تصدره الأحشاء الممزقة، على عتبة البرزخ الفاصل بين حياة تولد وحياة قد تنتهى، استمرت الولادة متعسرة وآلام المخاض عندها لاتطاق .. الجنين يأبى أن ينفلت من دفء الرحم الهيولى ، أطل برأسه منذ ثلاثة أيام وكان الوقت أول الليل ، وعندما بلغت الاطلالة الصعبة دائرة الرأس الصغيرة تمرد عند أوله ، الجبين تحديدا واستنكف عن الخروج .

قالوا : «المسكينة ستموت وهذا الجنين مستعص لم نر مثله».

تتمايل هى فى فجوة الوقت وتتبعثر جافلة من ضبابية الزمن حيث تُهرق الروح فيها وليس من خلاص . «أريد أن أموت» ! قالت ذلك وأخذت تردده بين نفس متقطع وآخر والصوت يتلاشى ، ذائبة فى لجة عميقة من الألم المتشظى فى ذرات الغرفة الضيقة . من له أن يشهد مثل هذا الوجع المقدس ؟ وجع الخصب الذى استحال مع الوقت الى فخاخ منصوبة وخرائب قادمة ، تطوق رعشة الانبثاق الأول للخلق ، ومنها يتم انتقاص كرامة الألم وتكريس العالم الضيق لتدور فيه الى مالانهاية ، دوران أكثر إيلاما فى وقع الزمن والخروج من أسر القبيلة وطوقها لايتم إلا بالمخاض الوجودى الصعب مثل هذا الجنين الذى يأبى أن يطل أبعد من دائرة الرأس .

ربوة وحوافر خيل ، تهدر فى الجسد الأنثوى ، متشظيا فى شراك المخاض وغبشه ، أما الغياب الآخر ، فهو لوجه الزوج الذى لايرى فى الأمر ، إلا شأنا نسائيا بحتا ، لايعنيه إلا مع نهاية الأمر ، واضافة مولود آخر الى قائمة المقتنيات الثمينة واكسابه اسم السلالة التي تليق به . الابتهالات من حولها تؤجج سطوة الحوافر المغروسة فى الأحشاء . كيف يكون الانعتاق من هذه الكينونة الأنثويه

المجبولة بالألم فى كل المسارات ، أصفاد وهياكل فولاذية ضاغطة تجىء، بعدها رحلة الهذيان مترافقة مع خروج الروح من الروح ، خروج كأصعب مايكون، وحين اسلم الجميع بالقدر ويئسوا وهم يراقبون هدأة ذلك الهذيان ، انساب الرأس الصغير محزوزاً . بدائرة دموية ، وأطل معلنا اختياره العنيد لميعاد خروجه ، رحمة بالكيان المتمزق ، لحظتها انطلقت الزغاريد واختارت مسارها الفوضوى لتملأ جنبات البيت كله ، فيما أخذ الجسد المنهك يحظى بسكينة لا وصف لها ، وينعم بغفوة فجائية تشبه الارتحال البهيج فى عوالم الرؤيا ، لايعرفها إلا من عاش مثل ذلك الانبثاق الهادر والعميق لجسد من جسد .

يعلو صراخ المولود ، مغموسا بنار الأحشاء ولزوجة الدم . الأنفاس تنتظم والسواعد تتلوى . فى الجانب الآخر غياب ناعم ومنتش للجسد الأنثوى وحضور صعب لوليد قالوا جميعهم عنه فى بحة صوت واحدة «كادت هذه المضغة تقتل أمها» .

الجد وحده اقتحم الغرفة مهرولا :

«هل عائشة بخير ؟ والمولود بنت أم ولد» ؟

قالوا فى صوت واحد :

- «كلاهما بخير والمولود بنت» .

هدر صوته بمهابة :

«هي شهر زاد إذن» .

★★★

أبحث الآن عن وجهك فى كل مكان ولا أجده .. أمعن فى التحديق وأتجول فى ينابيع الضوء وأقبية العتمة ، لأرتد خائبة فى كل جولة .

«لا نعرف وجها كالذى تصفين» .

للفراشات أن تتأرجح بنعومتها المذهلة وهى ترتشف الرحيق ، ولا رحيق بعد، لأمومة غادرت جسدها بعد السنوات الأولى ، التى قيل لها إنها كانت ترفل فيها بالحنو والمحاباة لكنها لاتتذكر منه شيئا ، كل الذى تتذكره هو ذلك التربص القاسى

والصوت المجافى ، وهو يلاحق سريان روحها فى الشجر أو فى غيمة مسافرة ، تسرح فى المطلق باحثة عن الوجه الذى غاب عنها ، رغم حضوره ، ولم يعد . هل كان لصلف المخاض المجنون يد فيما آلت إليه الأمور بينهما .؟

تقفان بعيدا عن الدائرة ، يطوقهما الحصار والدائرة تومىء ولا تقترب .. هكذا تبقى تؤمىء ولا تقترب . لماذا أخذت صوت الشيخ مسعود وتلبسته لتسيطها به ، حفظت كل تعاليمه وإرثه الفج من النواميس لتراقبها به . كيف استحالت معها من ضحية له إلى جلاد لها ؟

البيت والريف .. الداخل والخارج .. عالمان متوازيان لايلتقيان . يقفان على طرفى نقيض رغم كل الوفاق ، منذ شهد الأفول توازيه الأول لرحابة العالم الخارجى الموصد بباب ورتاج ، طغى الشعور بربقة المكان وضيقه وبافتقاد دائم ولحوح لامرأة نفضت عن كاهلها عذابات كثيرة ووصايا لم يكن المخاض الصعب إلاّ أسهلها .

★★★

لم يكن الشيخ مسعود هو وحده الذى يطوق الطبيعة بذارعيه ، النظرة المغروسة فى العيون حولها أسوأ من مراسم الكبح المباشر.

فى سنوات الطفولة الأولى تمرست فى اكتناه السرّ . تتحدث مع الشجر وتلاعب أوراقه المنفلتة ببريق الندى الصباحى . تتآلف مع الحيوانات وتقلد أصواتهم وحركاتهم، تراقب السحاب الطائر ، وتتحدث مع الأفق والبحر وتدخل مع كائناته عالمهم السحرى ، تخاطب معهم وفيهم العناصر الأولى .. إنه الانفتاح على الأشياء انفتاحا لا حدود له ، وقد كبرت جذبها النضوب إليه .. هصر العناصر وأفسد اللغة السحرية التى كانت لها .

يدخل العسس قلب الاشياء .. يجرّون المواسم خفية ، ويكبلون البهاء الطفولى ليستحيل القمر إلى قطعة من حجر ، والنهر مجرد سريان آسن فى كنف الأصوات المبتهلة لحشرات ليلية . تميط اللثام عن وجه العراء وتبتدع قصصا وأخيلة عذبة ، تعزف على قيثارة الشيخ مبروك ، فتخرج منها أعذب الألحان

وأشجاها . متحلقين معا حول الموقد المتأجج بالجمر ، ينصتون إلى حكايا الكائنات الأثيرية التى تدخل الجدران وتخرج منها متى تشاء ، أو تحلق فوق الأرض على أكتاف العفاريت الأليفة سارحة معها فى آفاق رحبة ، معه تسير خلف الأطياف والحوريات ، تراودها الكلمات الآسرة فى فضاءات الرهبة والمتعة . وهناك، فى أقصى مكان ، يقطن عصفور صغير وفراشة . يباغتهما النداء فيتسللان إلى الحوش الخلفى للبيت الكبير حيث هى تتكىء كعادتها ، على جذع الشجرة فى الحديقة المعتمة ، يرشها العصفور بشىء من نتف ريشه وتسبغ عليها الفراشة ألوانها الشفيفة .

هذه المرة كان لوجومها سبب آخر تتحاشى أن تظهره حتى لنفسها . الحلم ذاته يتكرر كل مساء ، يتسرب إليها ويأخذها إلى ذات الفراغ حيث تتحول كل مرة إلى شىء آخر ... مرة إلى شجرة ومرة إلى حصان أو فراشة أو نهر ، يتماوج سطحه بالمرايا ويعجّ فى داخله بالأحياء الغريبة . فى تلك المرايا يتشظى وجه أبيها إلى قطع تتناثر فى الفضاء ، وكل وجه منها يأخذ شكل سحابة تظلل المرآة النهرية الطويلة ، وتعكس فوقه دخانا أسود لايرى غيره . بعدها تتفتق السحابة اللامتناهية ويحدث شرخ فى وسطها ، من هناك يخرج عصفور وفراشة . العصفور ينقر فى السحاب والفراشة ترف بجناحيها . هكذا يتوالى الحلم حتى تصحو فزعة من نومها دون أن تعرف مافعله العصفور أو الفراشة . كل ماتتذكره فى سراب ماقبل الصحو ، أن وجها غريبا لرجل سامق يشق السحاب ويقترب من النهر المرآة حتى يكاد يلامسها .

من أرشيف الحالة

قيل إن غياب السكينة نذير لعنة تطارد المكان .

في الليل، كل ليل، ينبثق من بيدر القمح المترامي صوت وحشي، يطمر الكهوف بسيوله المباغتة ويخترق بعدها سمع أهالي القرية . يمتد بعض الوقت ثم يختفي ليعاود ظهوره في الليلة التي تليها . لا أحد يعرف مصدر ذلك الصوت ولم يعبأ أحد باكتناه سره رغم تكرره ، فالظواهر الغريبة تحدث لوحدها وتختفي لوحدها وهم لذلك إعتادوها مثلما يعتادون كل ما ليس وراءه من سبب ظاهر.

يقف الشيخ مبروك على مبعدة من البيت الذي يتفيأ الظلال ويخبيء المروج خلف جدرانه ، سادراً في تأملاته الخاصة.

من يراه ويعرفه ، يدرك للتو أنه ملفع بشرود استثنائي، نادراً ما يرونه فيه. يتجه صوب الحديقة الخلفية ، يخطو ببطء ، ثم يتسامق ظله الطويل في ضوء القنديل المعلق فوق الشجرة مدارياً ملامح وجهه الصارمة وهو يقترب منها.

لاحظ وهي ترفع رأسها نحوه ، أن شروداً مماثلاً ، يحف هيئتها وقد نفضته عنها ما إن رأته، تأملته قليلا قالت:

«تبدو قلقاً يا جد».. وقف صامتاً لبرهة، مد يده نحو القنديل يبعد ضوءه المباشر . حين طال صمته تجاسرت لجره نحو لغة المداعبة: «أي شيء يقلق منبع الأسرار والأساطير؟.. » جاء صوته متحشرجاً وهو يوشك على الخروج من سمته الداخلي الى ما هو خارجه.

- ليس من هزء في ذلك.. لم استطع أن آخذ هواجسك في الأيام الأخيرة باستخفاف» .

ألم يعتد محاورتها في كل شيء؟ يبث فيها روحه الطليقة حتى لو لم يرتب لذلك - فما الجديد؟

- أتقلقك الأسئلة إلى هذا الحد؟ ليس لدي من أحاوره غيرك .

- ما يقلقني ليس الأسئلة فقط بل أنك تذبلين فيها!

- ما يذبلني هو هذا الركون الدائم تحت الشجرة دون حركة.

يعرف جيداً ما ترمى إليه، وهو يشفق عليها لسبب من ذلك . ليس بيده أن يغير ما حولها ولا أن يغير طبيعة تفكيرها . تلك هى المرة النادرة التى يبدو فيها عاجزاً أمامها إلى هذا الحد.

- وما الحل فى هذا بالنسبة إليكِ؟!

أكان يقترب من منطقتها بسؤاله ذاك.

- أن أنال رضاك.. وإن شئت مباركتك.. .. انت دون الجميع يا جد.

إلتفت إلى الجانب الآخر من الحديقة مبعداً عن نفسه وطأة ما تطلبه منه. سمعته يقول متردداً:

- وكأنك لا تعرفين ما يحكمنا؟

- بل أعرف.. الريف والتقاليد و ..

قال مقاطعاً يكمل لها بقية أفكارها:

- سادة وعبيد ومنطق الحريم وكل تلك الافكار الاخرى التى أصبحت تملأ رأسك.. كيف تعاضدت هكذا؟

إنه يتعذب بطريقة ما بسببى وحتى هذه اللحظة لم يتخل عن أريحيته ومجادلتى بالمنطق.

- ليس هناك من قناعة واحدة تنبع من داخلى.. هذا ما أنا فيه . أحقا لا تدرك يا جد ما أنا فيه!

صوته الرخيم يشى أنه يعرف ما هو أكثر:

- المشكلة أنى أدرك وقد يكون لى يد فيما وصلت إليه . ربما هذا ما يشعرنى بالحزن والحيرة.. لو تركتك كالآخرين ربما كان أفضل .. كنت عشت مثلهم بل واقتنعت بما تعيشين.. أحيانا أتساءل هل أفسدت سعادتك وأخطأت فيك حيث كنت أريد الأفضل.

لم أكن أريده هكذا مثقلا نحوى.. بالمقابل لم أكن قادرة على استيعاب أن:

– النواميس كأنها قد خلقت لنا وحدنا نحن النساء . هل هو قدر لا يمكن الفكاك منه ؟

عيونه حزينة ومغرورقة.. يربت بيديه على كتفى :

ـ ربما افتقادك لرفيق العمر يزيد الامر تعقيداً .

لم يكن أمامى إلا أن أرفض كلامه دون مداهنة .

– بل ربما وجوده معى الآن يزيد الأمر ضراوة.

لم يكن ينظر كمجرد دهشة وإنما بمزيج من الخوف والألم.

ـ لا تندهش ياجد ولا تتألم.. المسألة ببساطة أنى لا أريد أن اقترن برجل يقدم لى العلف كل صباح ! يجانبك الصواب حين تتصور أن توحدى فى هذه اللحظة هو العذاب.. ألا ترى أن انتظار من ينتشلنى مما أنا فيه قسوة لا حد لها.. وأنتم لا شيء يشغلكم سوى دفعى لمثل هذا الانتظار.

إقتربت منه أكثر وأنا أحدق فى ذهوله:

ـ أريد أن أخرج من متاهة انتظار الآخر وتعليق كل أحلامى عليه.. كأننى مجرد صندوق فى هذا البيت ينتظر نقله إلى بيت آخر.

لم أجد ما يسعفنى على تصوير الأمر غير هذه الكلمات الأخيرة:

ـ أريد أن أعرف نفسى أكثر.. أن أعرف ما يؤرقنى رغم أنى لم أتبينه بعد بوضوح إن أردت الصدق.

ـ وهل تتم الامور هكذا أبداً.. ما الذى حدث لكِ ؟

إعتراضه أدخلنى مرة أخرى إلى فوهة البركان . أشعرنى بعجزى وبلا جدوى ما أبحث عنه . ما الذى أريد أن أعرفه أو أحققه؟ أقف حائرة الآن أمامه . اشعر أن عقلى ملئ بالتفاصيل والمتناقضات وأن وجودى ذاته مرهون لكلمات غامضة . قلت باشفاق:

ـ حتماً لا تريد أن تجعلنى أصدق أنى فتاة غريبة مثلما كانت تقول تلك العجوز البائعة . غريبة عن من ؟ وماذا ...؟

هل كنت إذاً أثير فيه تعاطفاً أوشك على فقده وأنا استحثه:

ـ أخبرتكَ تقف الآن عاجزة عن أخراجى مما أنا فيه .

ـ كنت تستمتعين قبل الآن بما أقول وبالأجواء التي أدخلك فيها.. لماذا أشعر أنك تسأمينها بل وترفضينها.. ما الذي بيدي لأفعله في مثل هذه الحالة.؟

لم يكن الأمر قد أخذ مني ذلك المنحى.. أردت تقريب مسألة لم أضع حداً لنهايتها.. مثل الريح تنهشني وأنا عارية دون أي غطاء.

ـ لازلت أشعر بالمتعة معها ولم أسأمها كما تقول ... إنما أردت أن أجد فيها شيئا آخر.. فلنسمه أن.. أن أجد صورتي كما أراها.. ولا أجد ذلك.

ـ يبدو أن مخيلة الأساطير والأجداد لم تضع حساباً لذلك!

ـ أتسخر يا جد.. شهر زاد مثلاً التي أسميتني على اسمها تغلبت على روح الجلاد في شهريار بالتحايل وفن الحكايات لأن حياتها كانت مرهونة بقرار منه.. بالنسبة لي لا أريد أن أرتهن لأي أحد كان.. لا أريد أن أخاف وأتحايل لأعيش . أليس من حقي أن أرى الدنيا بعيوني . أن أتغلب بالحكمة على ما هو أكثر أهمية في نظري بعد أن حفظت كل ما تحدثت به وما قرأته من حكايات وأفكار تعود إلى آلاف السنين من الآن.. تلك التي تحوّل النساء إلى أفاع وشياطين وكائنات ماكرة كريهة لتدلل على شرها أو نقصها أو عبوديتها.. صدقني يا جد.. كل ما هنالك أني لم أر ما أبحث عنه فيها . اقصد ما يخص ذاتي . أغلب الأفكار لا تتعامل مع جوهري بقدر ما تتعامل مع صورة الوهم الذي له.

تدفق الكلمات جعلني أستطرد وهو يصيخ إليّ بصمت:

ـ إسمع يا جدي.. أنا لا أرغب في أن أروض الجلادين ... بل أرغب في أن أبني عالمي كما أشاء.. أن تنتشي روحي كما أشعر بنبضها.. إنني بحاجة إلى معرفة آخرين ولكن أولئك الآخرون الذين يشعرون ويفكرون مثلي ولا أجدهم هنا.

تمتم بأسى:

ـ الحقيقة... الوهم.. لم تلتبس الأمور عندي مثلما هي الآن.

قلت في محاولة أخيرة لادخاله معي المنطقة المحظورة:

- إذا كانت الحقيقة ملتبسة بالوهم هكذا.. فمن وضع حدود هذه الحقيقة.. من كرسها وجعل الوهم يسرى فيها... لماذا نتقيد بها إذا؟

- أليست هى الحياة هكذا.. حياتنا.. مهما توغلت فلن تجدى فى النهاية الفارق بينهما كبيراً حتى لو كسرت القيود كلها .

حركت كلماته الأخيرة هاجساً دفينا ينبئنى بصحة بعض ما يقول .. أخذ صوتى يمتلىء بإنكسار مباغت:

- أتدعونى أن أكف عن الحلم.. هل هى قناعتك وحكمتك الأخيرة التى تلقيها فى وجهى.

- وماذا ستفيدك قناعتى أو حكمتى حتى وإن كانت كذلك .

بدا أنه لم يشأ جرّى إلى تحطيم كل شىء.. كان يحرضنى بطريقته وبشكل خفىّ إلى عدم الركون لليأس .. سألته:

- ولكن حيرتى تطغى الآن اكثر من ذى قبل.

- وسيزيد طغيانها مع مرور الوقت.. ما تكابدينه ليس بأسوأ الاحتمالات .. هناك دائما ما هو أسوأ.

- أهى دورة عبث إذاً والسوء فيها هو النهاية.. كيف لى أن أعرف ذلك، رغم كل شىء.. وأنا لم اختبر فى الأيام غير الكلمات والتخفى والانتظار.

- اعتقدت أن مساحات الخيال كانت كافية لتنتشلك مما أنت فيه.

- أيكفى أن اعيش فيها عاجزة؟

- وهل تتصورين أن عجزك سيتضاءل كثيراً خارجها..

الخيال يفتح باب الحلم والحلم يجعل الحياة أكثر إحتمالاً... أليس ذلك ما كنت تقولينه قبل ذلك.. وهو ما دفعنى لتزويدك بكل تلك الكتب والأفكار.

- لا يعنى ذلك أن أكتفى بها وبخيال لا أثر لحياة ملموسة فيه.

- لقد اختبرتُ إلى جانب ذلك أشياء كثيرة فلم أر الفارق كبيراً مثلما قلت .

- خبرتك هذه حصيلة معايشتك.. لماذا لا أختبرها مثلك؟

ـ أجننت.. ما الذى تريدين أن تصلى اليه؟

ـ لا أعرف .. ربما لا شيء .. مجرد هواجس وربما مجرد هذيان أهذى به فى لحظة شرود.

ـ هذيان فى لحظة شرود.. إن هذا ما أراه الآن على أية حال!

★★★

من أية بؤرة أو أى جحيم تنبثق الفكرة وتتلهّى هذه الصبية بها؟

من أى رماد يطل ذلك الوميض سعياً وراء امتلاك ما تسميه بالمعنى أو الجوهر؟

فى أية لحظة يختلط الوهم بالحقيقة ويتذرع بالتبدلات ليراوغ ما يجب أن نستكين له ونستقر فيه؟ يتنافر الوجودان، لكنهما فى النهاية وعكس المتوقع، يمتزجان فى لحظة شاردة ليصبحا واحداً . وجود من وهم ووجود من حقيقة .. هل من فاصل بينهما؟

لقد عشتَ فى الأدغال وارتحلتَ فى الأنهر وتشردت فى الكهوف وظلمات الأقبية وأعماق البحار، وفى كل مرة تعود فيها مزوداً بالحصاد كان جنىّ الارتحال يسوطك طلباً للمزيد . بهجة خفية تنتاب الوجود وأنت تسلم القياد للرياح الموسمية تأخذك حيث تشاء لك.

تعلمت منها كيف ترى بريق الفرح والدهشة خلف العوالم المستعصية .

تعلمت الحكايات والأهازيج والأغنيات الحزينة.. روضت البحر وتجولت بسفينة أبيك العملاقة فى كل مرافىء وشطوط البلدان الغريبة.

عاشرت الدراويش والمجانين والشياطين.

إختبرت المتاهات والموبقات والنساء.

صارعت المخاوف ونمت فى العراء.

حتى نما فيك (آخر) هيئته ليست لك ، ولا جنونه هو وقارك . كان فى البداية مجرد وهم ينازع ثوابتك ثم أصبح هو الحقيقة الذى يجرك لمزيد من التخلخل واللاثبات... أصبح هو انت وانت هو.. توحدتما فلم يعد من فاصل بين جنونه وعقلك..

هل اندثرت أنت، وبقى هذا الآخر، الذى نازع مرات ومرات سكرات موته، فإذا عاد إلى الحياة والحركة نزع العقل عن رأسه مجدداً ودخل الارتحالات من أبوابها الواسعة.

هذا الآخر فيك أحب الغناء والرقص وعاشر بصوته وغنائه الحزين الدروب الطويلة وقمم الجبال.

كنت تتأمله وهو يسمع صدى همسه وغنائه ويسخر من كل ما تفعل، لكنه قط لم يفرق بين الحقيقة والوهم أو الخيال . الخيال يعيشه والحقيقة يستشعرها وهماً من نوع ملتبس يثير فيه الفزع عندما يختلى بنفسه ، فيدفع بنفسه تلك وسط مزيد من الجنون والمغامرات .

كم مرة إنشقت فيها جدران الكهوف عن أشباح أنس إليها هذا الآخر واستعاض بها عن عالم البشر .. سنوات يدخل فى خباءه وخفيته . يرى القبس النورانى، وهو يلتحم فى عزلته بجسد امرأة شهيّة يحدث صدفة أن يجدها أسفل الجبل أو بين غابات السهل الوسيع . لحظتها تنفصل عنده كل الكائنات عن بعضها وتقترب . تصبح السماء أقرب من الأرض . الأفق يدنو والشهب والنجوم تسرِّب ألقها وبريقها إلى ظلمة كهفه .

يدخل كثافة الشجر ويعبق بريحها الخفيفة مداعبة فيه ذلك القبس النورانى، الذى لا يتوقف ، والطالع من جذعيهما العاريين الى كل ذرات الظلام.

هل كان ذلك وغيره حقيقة؟

وإذا لم تكن كذلك فأية ركيزة بالامكان الركون اليها إلى الأبد؟

كل شىء يطفو ، يجفل وينتهى، رغم حقيقته، إلى العالم الضبابى المنفلت.

مرات كان يجلس مع «آخره» فوق القمم وحيداً حتى الصباح.

ينصت للشجن الذى يتسرب من خبايا المساحات الشاسعة أمامه . كنت تجادله فى كل شىء ولكنه ينتصر دائما فى الجدل.. وهو الذى جعلك تدرك أن

الحياة مجرد نجع آسر لمن يحالفه الحظ ومجرد مستنقع آسن لمن فارقه ذلك الحظ في طريق الرحلة الأبدية.

هو الذى تجاسر وصادق آخرين فيك رغم تنافرهم وصراعهم، لتتناسخ منك الصور . لا يعود أبداً هناك شيخ مبروك واحد وإنما مجموعة لا متناهية من الأشخاص يعيشون فى جسد واحد.

هذا الجسد الزاخر يقدم كل حساباته وفواتيره ، ثم يعود ليمزقها وينثرها فى لحظة واحدة، وربما يجعلها فى لحظة أخرى قربانا لنزوات وقتية يمتلك فيها كامل المتعة وبعض الأمان . حتى هذه اتضح لك سرابيتها . وجدتها كالنار المرتجفة التى يعوزها ويلهو بها من يجوب الصحارى ... لكنها سرعان ما تنطفىء وتتبدد وتبقى الصحراء وحدها، بعد ذلك لتسيط الجسد والروح ببرودتها اللاذعة.

من يعتد النار لا يحتمل أبداً برد الصحراء . تخدير مؤقت يفتح العين على ما هو أقسى وأفظع.

كان الوجه المغامر وهو اكثر وجوهه سطوة يسألك فى حينها « كيف ستقطع يا شيخ كل هذه المسافات دون أجساد ملتهبة تدفىء بردك الأزلى؟..» .

عندها فقط تنتبه الى الشرك.. بردك ليس فى الجسد، هو فى الروح أكثر . تقرر أن تعاند نزواته وأن تكتفى بواحدة بمجرد أن تضع حداً لاسفارك اللامنتهية.

ومنذ أن تزوجت «بهيجة» أم عائشة ، ركن معك إلى نعومة عالمها وسلاسته واستكان قليلا لفضاء روحها.

كان يختبىء فى ردائها الواسع الملون وكأنه يحمى نفساً تناوشه للترحال، وهى بسجيتها لم تكن تدرك ما يتنازع فيك فتكركر بطيبتها المعهودة :

«هل عدت يا شيخ إلى طفولتك حتى تختبىء هكذا؟ ».

لا شىء تجده صالحاً للرد وإنما تقول:

«ولماذا أعود أنا معك طفل وكل شىء».

فى البداية قال وهو يستعيد تمرده «هذه المرأة ستصنع من جسدك تمثالا

وتضعه في محراب مليء بالبخور .. مجرد تمثال ككل التماثيل الأخرى الجامدة. لن يكون بامكانك بعدها الخروج من جلدك لتنطلق أو تتنشق الحرية كما تعرفها » . ومع الوقت وأمام لا مبالاتي وبما يوسوس به إليّ نسيَ حكايات عشقه الكثيرة وربما تناساها بعد جهد . كانت تقفز إلى ذاكرته فقط، حين يسردها كوقائع من خيال ويمزجها بشخصياته النورانية ، التي حدث وأن صادفها ، على أنها قصص من الكتب . كانت عيناه تلتمعان بالحنين، أدرك أن تناسيه فعل مؤقت، وأنه لن يتجاهل حنينه طويلا إنما هو ينتظر الفرصة المواتية. وفي لحظة خلوة بيننا يضحك بأعلى صوته وهو يقول .. «قصص من الكتب.. أي حمقى هؤلاء حتى لا يفرقوا بين الحقيقة والخيال!» ثم يتقلب امامي ويلبس وجه كآبته كسلاح أخير.. ذلك ما يجعل «أم عائشة» تقول «ما بك.. هل اشتقت لاسفارك؟» وما إن يسمع كلماتها تلك، حتى يكاد أن يقفز من جسدي مهللا ليقول «نعم.. لقد اشتقت يا بهيجة» ولكني ألجمه وادخل الصمت ثم أهدأها بعد حين «أسفاري كلها وهم !»

تبتسم وهي لا تفهم ما أرمي إليه إنما تحدس أن الآخر قد نفد صبره وأن رحيله بات وشيكاً.

ولكن ألم تكن كذلك بالفعل؟ ألم تتحول كلها مع الوقت إلى مجرد ذكرى أو مجرد وهم أو أخيلة في طريق العمر الوعر؟

ماذا تبقى من الحقيقة فيها مادامت قابلة للتبخر كسحابة مع أول هبة ريح أو أول نزوح عنها إلى عالم آخر؟

الأشياء تكمن فقط في داخل صدره . كل ما اختبره وكأنه لم يمر به.. مجرد أحاسيس ومشاعر، حبست نفسها في قمقمه لتشهد في يوم أنه كان هناك مرة.. حتى ارتعاشات جسده لم يبق منها إلا مجرد رعشات سرابية كالوهم ، عاش بها ولها واختبر دفئها وحرارتها فإذا بها كالأطياف الهلامية لم يذق معها شيئا أو كمذاق الغدر أطاحت به وتخلت عنه.

أية حقيقة وأى معنى تبحث عنه هذه الصبية وأية حكمة تريد الحصول عليها فى كل هذا السراب؟

***

المؤكد أن عنصر المفاجأة أذهلهم ، بدؤوا بالوجوم ثم تهامسوا ، وكالهشيم الذى تذروه الرياح انتشر الخبر ليغطى القرية كلها.

الكل تساءل: « أين الشيخ مبروك؟ وهل تلك الجثة جثته !» لكنهم رجحوا أنه اختفى . وبعضهم قال إن متشرداً من خارج المكان طمع فيما توقع أنه يحمله معه من مال، إغتاله فى العتمة ورمى بجثته لكائنات البحر . آخرون أكثر صلة به قالوا إنه عاد الى مخلوقاته الغامضة ، تلك التى كان يبنى معها لغة سريّة.. تضاربت الأقوال حول كيفية اختفائه وتوحدت بعد ذلك فى أن الذى كان بينهم حتى البارحة اختفى وغاب أثره . بعدها بأيام استعادوا ذكراه فى كل شىء وفتح كل منهم بابا واسعاً للتأويل.

اجتهدوا معا لما خبروه من أطوار الشيخ والابهام الذى يغلفه.

تحدثوا باستفاضه عنه وعن البيت الكبير الذى شيد على عظام الموتى . كانوا متحلقين يومها فى الساحة الواسعة للقرية ، يسترجعون معاً غرابته التى ألفوها حتى نسوها ، وأفاضوا فى الزيادات والرتوش حولها.. حادثة الاختفاء أعادت بالنسبة إليهم موازين «اللامألوف» إلى نصابها الصحيح . من هناك بدأت اللغة الأولى بينه وبينهم، انفتاحه عليهم وصداقته لبعضهم جعلته مرافقاً لكل واحد منهم ولكل خطوة يخطونها فى شؤونهم منذ البداية . يشاورونه ويحتكمون إليه حين تلم الملمات ويقبلون بعدها بأى قرار يصل إليه حتى لو لم يعجب بعضهم، فهو فى نظرهم كائن غرائبى يعقد الصلات مع الجن والعفاريت ويتقمص أجساد الطيور والحيوانات، ويزيد البعض أنه يتوّحد مع الشجر فى الطريق فلا يعود يراه أحد . وإذا به يبزغ بغتة مثل زهرة بريّة شاردة فى الامتدادات العارية للريف . أحدهم أقسم أنه ظل جالسا يرمق الطريق الوحيد المؤدى إلى بيته ولم

يكن به احد ، وفجأة لمح الشيخ أمامه لا يعرف من أى مكان جاء.. خشى أن يسأله ولكنه أيقن أن هذا الرجل كائن غير عادى.

هكذا كانوا يعتقدون جميعهم وهكذا سلموا معاً بالأمر . فالشيخ الذى كان يولم لهم الولائم المترفة ويعقد معهم حلقات الرقص والطرب ويزيح عن صدورهم الكثير من ضيقها، ليس بالفعل شخصا عادياً ، ولهذا لا يمكن أن يكون قد مات كالآخرين ميته عادية .. ثم من يجرؤ على قتله وهو الذى يملك هيئة خاصة لا تخطئها عين ، حتى فى أحلك الظلمات ، ويعرفه كل من فى القرية والقرى المجاورة، بل ويعرفه الذين فى البلاد البعيدة . هذا كله جعلهم يقولون بعد ذلك «ربما لم يمت ولم يقتله أحد.. ربما أخذه الحنين إلى ارتحالاته الغارية ولم يشأ أن يشعر أحداً بغيابه.. من كان يدرى كم عاماً عاش وكم سيعيش بعد !» . منذ ان استقر فى هذا المكان الأعزل وتزوج أم عائشة، وهو يغزل لهم من الحكايات والطرائف وسيلة صلة قوية بينه وبينهم . شخوص نادرة تفيض بالهوس والجنون والعربدة . مردة وعفاريت تتصارع على أجساد نساء تمنىّ كل واحد منهم أن يحظى بهن، لم يسعفهم الخيال على تصور من هن بتلك الأوصاف، فإذا جلس الشيخ بينهم أغمض كل منهم عينيه وتخيل غرفته الصغيرة أرخى جسده فى مكان نومه ثم استبدل بزوجته تلك التى يصفها لهم، وجعلها معشوقة خاصة به، يطارحها الحب والغرام، وإذا كان عازبا اضطره الشوق والخيال لابتكار صورة خليلة اسطورية يشتهيها ، حتى إذا انتهى الشيخ من وصفه ، يعود كل منهم ليستعيد عالمه الضيق الذى يجلس فيه . كيف يموت إذاً من يملك كل تلك الامكانيات والطاقات التى تحركهم بين يديه كالدمى وتجعله فى عيونهم رديفا للدهر.

فهل يفنى الدهر؟!

قالت غجرية ملتاعة باختفائه، وهى لاتزال متلفعة برداء الحزن منذ أن مات زوجها قبل عدة شهور.

قالت: رآنى الشيخ فى حزنى ولم يمض على وفاة زوجى بضعة أيام . حدثنى حديثا غريبا.. «سترينه.. إن كان حبك له عميقا إلى هذا الحد سترينه» .

سألته «كيف يا شيخ مبروك. لقد مات . وهل يعود الموتى!» رد عليّ بما هو اكثر غرابة.. قال «لا شيء يموت !» وحين أجبته «بأن كل الأشياء تموت.. أنت ستموت وأنا سأموت . الكائنات منذ الأزل تنقضي ويأتي غيرها».. بدا غير عابيء بكلامي.. حدثني «تدبري أمرك وكأنه موجود !» سألته ثانية «هل تواسيني بهذا الكلام..» رد واثقاً «بل موقن أن لا شيء ينتهي»!.

لم أفهم كلامه.. ظننته عجوزاً أصيب بالخرف أو رجلاً مجنوناً. وفي المساء حين نمت جاءني في الحلم.. أشك أنه كان حلماً. رأيته يتسرب نحوي بوجهه المهيب كنقطة ماء تنهمر على ورقة جافة. قال أشياء لا أذكرها ثم رأيت خلفه زوجي يردد ما قاله لي الشيخ في الصباح .. أيقنت بعدها أن في الامر لغزاً حتى حلمت به في الليلة التالية ليقول لي شيئاً لم أسمعه من قبل. حدثني، وزوجي خلفه يردد ، عن إيمانه بوحدة الكائنات والمخلوقات جميعها . لا فرق بين انسان أو شجرة أو نهر . كلها تعيش بطريقة ما.. قال .. كلها تتوحد في سيرورتها السديمية بشكل ما أيضا، وجميعها تتجلى للبصيرة أبعد ما بامكان البصر أن يراه.. قال أشياء أخرى لم أستطع استيعابها أو حفظها .. إن هناك صلة في الزمن بين الأحياء والموتى.. فمادمنا نحن أحياء فموتانا لم يموتوا بعد.. إنهم في ذاكرتنا وقلوبنا وكل تصرفاتنا . ألهذا أشعر أن هذا الرجل لم يمت بعد . بعض الذي لم تتذكره الغجرية أنه قال لها وسط كلام كثير إن «الوهم هو فيما تراه العين ، بينما الباطن المزدهر بالخفايا لا يشغل أحد به بالا. الفراشة قد تكون روحاً ترفرف في المكان . لم يشطح الأولون في تصديقهم لذلك، بل كانوا يرون ما لا يراه غيرهم.»

ما إن انتهت الغجرية من سرد ما تذكرته تحدث آخر عما أخبره به الشيخ مرة.. قال إنه في السنوات الأولى لبناء البيت، رأى شبحاً يتسلل خلف الجدار.. إمرأة سوداء تقف على مبعدة وتتفرس فيه.. ظنها أحد المتجولات في الأرياف . فكر أن يخاطبها .. لم تنطق. ظلّت تتأمله وفي عينيها نظرة عتاب وبعد برهة اختفت. أيقن بعد اختفائها أنها ليست من الأحياء أو أهل الانس . مرت فترة

طويلة قبل أن يسمع أن فى هذه الارض كانت تعيش إمرأة سوداء وحيدة فى كوخ منعزل..

طمرت السيول كوخها ووجدوها جثة متعفنة مضى عليها أيام عديدة. دفنوها فى المكان نفسه وبعدها دفنوا كثيرين غيرها وهكذا كانت تلك الأرض جبّانه المتشردين وأولئك الذين لا يعرفهم أحد.

متاهة من فضة ورماد. لاجدران تحول دون تراكم الصقيع. تتآلف بالنسبة إليهم خطوط لا حصر لها . تفتح فجواتها بشكل عشوائى وكل يدلو بدلوه . مرساة وريشة . شيخ وريف ، يقفان فى وجه بعضهما، يلتحمان كخطيِّ السماء والأرض. كل شيء الآن متزاحم ومتوثب بعد اختفاء أحد طرفى المعادلة . يتهامسون طول الوقت ولا يصلون الى نتيجة مؤكدة . النذير لا يجيء إلا من أولئك الموصومين بالمهارة . هل كان الصوت الذى يخترق آذانهم كل مساء نذيراً بما سيحل عليهم من شؤم بعد غيابه . وإذا كان الأفق، لا بداية له ولا نهاية ، فأين يقع الزمن فيه وأين يقع المكان.. أين التاريخ وأين الوقائع وأين السريان المتدفق فى أوردة الكائنات الحية. وجود يشبه الصفقة . لا الحلم يستحيل الى وجود ولا البقاء يأخذ شكله الراسخ.. إنهم يبحثون فى كل الاشياء، عن حالة يقين فلا يجدونها . ربما لذلك يصدقون الكثير من الخرافة ويلقون على ما هو غريب عباءة الاعجاز . فى العالم أسرار لم يكشف عنها أحد. كوابيس وجنود مجندة فى الليل المنطلق فى عنفوانه ومبهمه الازلى. قد يعرف أحدهم بعض السر ولكن لا أحد يعرف كل الاسرار.

هكذا درجت الأمور فى عقول الناس . قالوا إن الشجر أعلنت وجودها من سراسيب الأرض، فعلت الزهور مثلها وأخذت أشكالها العديدة . تحدث الرحالة عن أشجار ثمارها طيور ملونة ، تنهمر من فوق كما ينهمر ماء الحياة فى البحر..وهكذا : لا أحد عرف على وجه اليقين ما حدث للشيخ مبروك.. كيف اختفى وأين.. ولم يقلق الأمر عائشة ولا زوجها. رددوا ما سمعوه منها واكتفوا بذلك . وقف أمام المرآة التى فى الدهليز الخفىّ، تأمل نفسه جيداً وداعب شعيرات لحيته الرمادية، وكطيف من الأزمان الغابرة قرأ فى المرآة شظايا الزمن المتكسر.

همهم ببعض الكلمات.. ونظر الى عائشة في جولة مراقبتها الليلية لصمت البيت وقال لها : وداعاً!

غطس في الوحل مرات واستحمّ في أعالي القمم، هناك عند مصبّات الأنهار نفض الرماد عن وجهه . رأته شاباً يافعاً، عائداً من رماد الازمنة الخاطفة، ومنها أيقنت الحفيدة بدورها أنه مثلما عاش متشحاً بهالات الغرابة والندرة سيرحل دون اشارة ولن يموت ببطء كسائر البشر، وإنما اختفاؤه المباغت هكذا يليق بكل ما عرفته عنه. لم تبك ولم تجادل في الأمر مرة واحدة وإنما استمرأت عزلتها وكآبتها لسبب إضافي هو افتقادها لوجوده معها، وأضمرت انه حتما سيعود في يوم آخر.

وهكذا أيضا دفنوا جثه لم تتضح معالمها، لا أحد كان موقنا أنها تنتمي للشيخ مبروك ولا أحد حقق في الأمر.. ليلة اختفائه حلموا به جميعاً. وبعدها تصرفوا كما أراد لهم بصرامتهم المعهودة وبألفة تدفق الوقت باعتياديته وكأن شيئا لم يحدث.. ولكن شيئاً آخر قد حدث..

بعد فترة وقد اقتربوا من تصديق حادثة موته، تناثر الهمس وسط الدائرة الكبيرة . ها هو الشيخ مسعود يقترب منهم ويبدو على وجهه شرود ما .

أكان متوجساً من كل الذى حدث أم أن فراغاً باغت عقله كبديل للذهول؟ في المكان الذى وقف فيه تحول الهمس الى صوت واضح يسأل «ألا تزال عائشة غير مصدقة لموته ولا تقبل العزاء فيه؟..» لم يرد ، تمدد الفراغ في جسده كله هذه المرة وانفلش ليقذف به نحو فوهة ساخنة :

«لقد نقلت خرافتها الى نسائنا يا شيخ مسعود.. لا تحكي الواحدة منهن الا وخيالات عائشة تملأ رأسها.. ومثلها يؤكدن أن الشيخ ذهب بعيداً لفترة وهو سيعود بغتة مثلما رحل.. أيعقل أن ندفن الرجل ولا نأخذ العزاء فيه؟»

ينصت قليلا للغط الدائر وعلى غير ما توقع يزيدهم إرباكا :

«من يدرى.. الا يجوز أن تلك الجثة لم تكن له.. كان الوجه مشوها على أية حال والجسد ممزقا»..

«هل أنت أيضا صدقت أوهامها.. وجهه كان مشوهاً هذا صحيح ولكن ماذا عما تبقىّ من ملامح الجسد وملابسه التي شاهدناها بأم عيوننا ونحن نسحبه من الطمي؟ ».

ذات الحيرة تطلق رذاذها المريك في كل المجالس الأخرى،

منذ أن رفضت عائشة استقبال أى احد منهم.

وبين مصدق ومكذب توافدوا على غير عادتهم الى حوش البيت الكبير، يجلسون قليلاً او كثيرا ولا أحد يراها أو يخترق صمت المكان، وربما لا أحد منهم انتبه الى عزلة الأخرى أيضا التى منذ أن عرفت الخبر لم تنطق، ولم ير أحد أية دموع فى عينيها . مثلها مثل أمها ربما تنتظر ما سيجىء به الغيب وتلك اللحظة التى سينشق فيها وجه الجدار، عن وجهه الوقور هازئا بكل من صدق موته.. وحتى يحين ذلك لا شىء سوى الصمت.

جميعهم أصيبوا بذات البلبلة . أيعقل أن يموت شيخ القرية ولا يجلسون فى عزائه ؟ بعضهم يقسم أنه سيعود، والآخر يهزأ من الحديث كله، ويضحك ضحكته المضطربة، نافضا عن نفسه حماقة أولئك الذين يصدقون تفسيراً غريبا لواقعة أكثر غرابة.

★★★

مرة بعد مرة ، لم يكن لها من شاغل سوى المرآة، وكلما توغل الترهل فى وجهها زادت التصاقا به.

لم يلتفت أحد - حتى ولا عائشة - الى غيابها الطويل فى غرفتها.. كانوا يضعون لها الطعام خارج الباب ويبررون عزلتها بالحزن العميق الذى تعيشه، فسرعان ما ينقلب كل شىء فى هذا البيت الى اعتيادية تجتر تكرارها وليس هناك ما يستدعى الدهشة أو السؤال. لم تعد تنزل الى الحديقة الخلفية كما كانت تفعل عادة، مأخوذة بسر المرض الذى أخذ يدب دبيبا بطيئاً، لكن متواصلا، فى جسدها كله وتحديداً فى وجهها.. بدأ ذلك بعد أيام من حادثة اختفاء الجد، وهى لم تعد تذكر ترتيب الاحداث . كل ما تذكره أن التجاعيد اخذت تتراكم

وتتشقق فوق جفونها وفى الهالة الزرقاء التى تحتفر عمقا مكرمشا تحت العينين «أهي الشيخوخة المبكرة إذاً أم أنه رحل بعد أن سطا على آخر بريق بقي فى زمنها ليضيفها إلى تشققات أزمانه الأخرى».

الخوف كثيراً ما يأخذ شكل وحش قاس وخرافى، يختبيء فى مكان ما ولا يفصح عن نفسه، إنما ينداح مراوغا فى الوقت الجائر وهو يزف وجهها المتشقق تحت رداء من السواد ، وفيه يتحول العالم كله إلى ركام من الأردية السوداء تغطى وجها مضمحلا لم يذق رحيق أية فتنة بعد.

حلقات ودوائر تتناسخ.

تنكمش هى فى بؤرة ذلك التناسخ الغريب لتشعر بعدها بضآلة لا مثيل لها، كلما قطعت شوطاً أبعد ، ومسافة أكبر فى الذوبان اللامتناهى . مجرد أحلام وكوابيس تشاركها العزلة المقيتة . وهى فى حالتها تلك تشبه أولئك النساء اللاتى ما إن ينبجس الدم من اجسادهن حتى يتم حجزهن تحت الأرض. لا شيء فى ذلك الجحر الارضى يسلّيهمجرد عجوز تتجول برثاثتها مع الفتاة فى ضيق المكان.

لا نور ولا ضوء ، إنما عتمة الهيكل المتهتك للعجوز يضاء بعض إضاءة بصوتها المريب حين تخاطب الفتاة المنبوذة فى سجنها الأرضى.. «حجز البنت ضرورة.. لابد أن تبقى فى داخل جحرها حتى تتزوج».

تقول لها الفتاة.. «ولماذا ليس حتى تموت؟».

«التزاوج سُنّة الحياة والمرأة أرض وجدت لتحرث»..

جحر تاريخى تنظر من خلاله الى المرأة وتردد مع الفتاة هناك «والرجل سماء او فأس تحرث.. مطر يزخ ماءه على التراب أو..» .

يا لتلك الفوضى التى تتسرب من الكلمات والتعسف. لم تستطع أن تكمل . تركت الأخرى وحيدة فى جحرها وتمعنت هى فى التجاعيد والذبول . لقد خسرت حتى الأرض التى رشحتها بها الحكايا لزخات المطر الذكورى.. صلفة تلك الاحجيات والأزمنة الطائشة فى تراكمها ، لا هم لها الا أن تندس فى وجه

الطبيعة وتحجب الشمس عن أرضها ، طيف العجوز الأزلى ينبثق ثانية وباغت احتجاجاتها ، يحمل فى عتمة المكان رنين الازمنة الغابرة « تخبأ الفتاة بعد بلوغها حتى لا يراها أى انسان... تبقى درة مكنونة إلى أن يجىء الرجل المنتظر» أنسيت هذه العجوز: والى ان يتم إخفاء الثمر، ثمرة الأرض حين تعلن خصبها تمنع عنها النساء، الواحدة منهن نجسة لا يجب ان تنظر إلى ثمار الارض أوان خروجها!

هكذا فعلوا وهكذا يفعلون.. إنها الدائرة الزائفة تتسع دوائر أكبر فأكبر، وتصمد فى الزمن بأقنعة أخرى، لتعلن فى كل لحظة من دورانها المريب، أن ما هو شائن للأنثى / الأرض يسمو به الذكر / السماء ! وذاكرة الوهن فى صوت العجوز تلك اللحظة كان يعلن دائرة أخرى من الدوائر المنسوجة باتقان «الحكايات علمتنا أن المرأة سيئة وضعيفة بطبعها.. والسوء يزداد مع دخولها الشيخوخة ويكبر السخط عليها.. أنظرى الىّ... إنهم لا يروننى الا حيزبون ماكرة أوقع الصبايا فى المكائد، ولا يتغير لسانهم فيما ينطقون به الآ حين يضطرون لمالأة الحكمة العجوز فيلجأون اليها متى شاؤوا..

أنا مجرد حجر ناتىء فى صحراء الحياة القاسية.. علمتنى هذه الصحراء كثيرا وبين ما تعلمته أن الرجال لا يعبؤون الا بالمرأة الجميلة، أما العجائز مثلى فلا شىء ينالهن غير التهكم والسخرية والازدراء ..»، وتكبر الدائرة تتناسل بالألغاز والطلاسم المتقنة.. صبايا وعجائز.. بيوت للحسن وخرائب للغولات، الجميلات محاطات بقبل الورد، وشذى المتعة، وعبق الصناديق السرية، حيث تصان الخبيئة . أما العجائز فهن منفيات فى اقصى جحر من المكان والزمان . واللغز يكمل صلفه وسطوته، وفى كل الجهات هناك شىء ثابت كالحجر، ناتىء كالأيقونه على الصدور، فحتى ذات الحسن لا تهنأ بعطايا حسنها إنما توصم بالسذاجة والتفاهة والغباء مثلما توصم العجائز والقبيحات بالمكر والدسائس . لا كوة يطل منها وجه نوع آخر، وبين التفاصيل المرتابة والمريبة ، تمتلىء الذاكرة وتوشك على الغرق ، ولا أحد يعرف الى أى المسالك أو الدروب، يجب أن ينتمى فى صلته بنفسه أو بالآخر، أسهل الطرقات تصديق ما يقال، والسير حثيثاً

وراء نواميس الجماعة والأقاويل ... أما الخروج من خندق العتمة فدون ذلك العواصف والرياح «والباب الذى يأتى منه الريح سده واستريح..» حيرة تقذف من العتمة سوادها . أردية تغطى العمر وهو يذبل قبل أوانه أو يشيخ فى لحظة غير متوقعه. فتات يرتحل فى الهواجس والعذابات وهذه المرة دون تلك اللمسة الحانية التى كان يضفيها الشيخ مبروك وقد ترك كل شىء خلفه ودخل الغياب.

★★★

مرة بعد مرة..

تتواشج الأيام فى تعاريج الخطوط الذابلة.. المرأة ولا شىء غير المرأة.. أليس «سلاح المرأة جمالها» أم انه مجرد رنين خافت كانت تسمعه منذ الطفولة وبهت مع الوجه الآخر للعملة المتداولة حيث «لا يعيب الرجل الا جيبه!» متى كان أول مرة سمعت ذلك.. أكان فى مشهد الزواج الريفى حين وقف الرجل الشائخ والثرى إلى جانب عروسه الصغيرة.. تهامس من فى الحفل وعلا بينهم صوت امرأة متهكمة «أنظروا اليها.. لم أر قط امرأة بشنب! جلدها قاس كالطبلة.. ربما لكى تكشط جلد قدميها لابد أنها تخبىء فى فستان عرسها سكيناً حادة! وهل هذه عروس؟ قل هو الحظ حين يأتى!» غمزت اخرى بجانبها محتجة :

«ماذا دهاك يا امرأة.. ولماذا لا تنظرين إلى العريس... ألا ترين كم هو عجوز وقبيح ووجهه يقطع الخميرة من العجين».

زخت الاولى رشقات تهكمها مجدداً «هو رجل وهى امرأة . لا يعيب المرأة الا شكلها، إذا جاء خاليا من الحسن، ولا يعيب الرجل الا جيبه.. هذا العجوز الذى لا يعجبك بامكانه أن يغطى قريتنا كلها بما لديه من مال وذخائر».. ضحكت الاثنتان وتغامزت أخريات .

«الفواصل لم تأت هكذا اعتباطا.. جاءت لحكمة خفية فى الزمن..»

«أية حكمة فى ذلك؟».

«الرجل ربان والمرأة سفينة!».

«لماذا ؟ ثم أين الارض وأين البحر وأين السماء.. أين القلب وأين الادراك .. الا تطلق الامتدادات عالماً آخر يتوق اليه الاثنان دون فواصل؟».

«لها غواية الحسن وله غواية الفحولة والمال».

«مجرد غوايات شائهة!».

«بل كل الأشياء تموسقت وانتظمت ليكون هناك ما هو أعلى وما هو أسفل.. ما هو أقوى وما هو أضعف».

«الحضارات تقول وهى تحمل شاهدها أنها كانت الإلهة الأولى، رمز الخصب والأمومة والقوة والضياء فما الذى حدث لتقع فى الاسفل؟»

«تبدلت موازين الكون، فلو سادت هى بقوتها لأصبح الإله الذكر مجرد تابع كما هى الآن».

«أهكذا تبدلت موازين الكون .. ثم لماذا تابع ومتبوع؟»

«الصراع حسم النتيجة.. والمرأة رغم كل شىء لاتزال قوة لا تضاهى . يكفيها سلطة الظل والخفاء»..

«ماذا لو كان العالم قسمة عادلة بينهما؟».

«لن يكون ذلك الا إذا انقلب العالم على نفسه!

المارد الرابض فى الأنثى لا يهدأ الاّ بالأصفاد . ترملها يشحذ قوته مثلما القبح يشحذ التوق للجمال».

«أية أهمية فى أن تشحذ قوته بترملها.. الا تشحذ الأصفاد أيضا نقيضها.. الرغبة فى الانفلات.؟» .

لم يقل شيئا وإنما تركها وغاب.. ذهب بهلامه وبقيت وحدها فى غياب من نوع آخر.. لم يسألها أحد فى البيت بعدها . «لماذا انت مختبئة» يكفى أن تختفى عن عيونهم ليعتادوا هم ذلك، مثلما إعتادوا كل القوانين والنواميس . لم يأت أوان الصيد بعد فلتدارى الطريدة نفسها.. لا بأس فى ذلك.. ولكن ماذا سيتبقى لو رحل الوجه ورحلت الروح؟

لو تسربا معا فى السراب الملغز للغياب الابدى؟

يافعة وصبية وجميلة كانت . من أين حلت اللعنة وهى لم تغادر جلدها بعد، ولم تفعل شيئا بكنزها الجسدى ولا بكنز الروح التائقة للمغادرة سوى المكوث

والانتظار. مجرد جدران تقترب وتصطك، كمقدمة لتواطؤ بين ذات مسلوبة وبقايا زمن يتدحرج فى مسافاته ولا يعطى ما هو اكثر. بينها الآن وبين البريق والألق مسافات ومسافات.. المرض اختفى من الوجه صدفة مثلما جاء لكنه ترك خلفه خوفاً لم يتمكن فرحها بالشفاء أن يزيله . بقى هناك فى بؤرة نائية متحفزاً كوحش رابض ينتظر الانقضاض فى اللحظة المواتية .. الحياة قصيرة وتقصر أكثر فى اللا فعل. حين يكون المرء فى العشرين مثلها يعنى أن يتمفصل فى زمن الاقتحام ، منتشياً بالسطح وبالعمق الملئ بالتموجات المرتحلة الى كل الجهات، حيث لا يعود المكان مكاناً ولا الزمان زماناً.. إنما هى تقف فى تلك النقطة الدائخة فى اللازمن واللافعل معاً.. فى السكون.. بين دورتها الواقفة، وتلك الأخرى التى تتوق للحركة، سريان متخثر فى اللاشىء ومثلهم جميعاً، أولئك الصامتون والعاجزون والمتواطئون مع الخديعة ستبقى فى العتمة. وحده الموت هو التميمة الداخلة فى الفضيحة ليكشفها بعمق. وإن قبلت به، فوحده الذى يفك الرتاج عن فم يريد أن يزيح الزبد الذى يملؤه وعن عقل يتوق أن يسبح فى غياهب المطلق حتى لو كان الفرار إسمه موت وشيك.

***

إنها الآن فى القاع وهناك من يجر القامة نحو دوامة مطلقها . وقف رجل أسود عند الباب الخشبى بمزلاج من نحاس، يحيطه العالم المائى فى قعر النهر.. يشير نحوها: «تفضلى سيدتى. إنه بانتظارك».

لم تتأمل جيداً ما حولها ، مدفوعة ومساقة كالذى فوق هودج . فى الممرات الصقيلة تفتحت الجدران عن مخابىء سرية.. تدخل فى الردهة الواسعة، وعلى إحدى المصاطب الرخامية تقف متأملة لوحة كبيرة ترتمى فى أحضان الأزرق وبجعة ذاهلة ووحيدة تهدهد ارتخاء أجنحتها فى الماء وتنظر إلى مكان مغلق . من خلف الردهة يخرج الوجه المألوف ، الرجل السامق والبهى، ذاك الذى شق السحاب فى الحلم وأطل بوجهه فوق سطح المرآة النهرية حتى كاد يلامسه بأنفاسه الساخنة.

«إنتظرتكِ طويلاً!».

«وهل أعرفك؟».

«ألم أراودك فى الحلم عدة مرات؟».

«مثلما تفعل الآن . ألستُ فى حلم آخر؟».

«تعالى».

«إلى أين؟».

«نسبح فى عطايا النهر ونلتحم بذرات مائه . تعالى قبل أن ينضب الماء فى جسدك ويشيخ».

«لست تلك الأنثى التى تساق أو نهر يلهث وراء من يعبث به».

«أعرف ذلك جيداً . منذ رأيتك أول مرة والنداء يسوقنى إليك .. وهناك حيث كنت تجلسين تحت عتمة الشجرة جئتك طائراً رشك بنتف من ريشه وأطلق فيك رعشة الجناح . ومرة أخرى جئتك فراشة تعبق باللون».

عيناه تتوغلان في ماء الجسد ، يستهويها هذا البذخ فى قامته والوجه المشرئب فى ألوان قزح . نداء ساحر، بوهيمى ومنطلق يعانق وجيب الطائر بين الضلوع .

«هل لى أن أعرف من أنت وماذا تريد؟».

«ظننت أنك تعرفين!».

إختفى الوجه والصوت . إختفى المكان وأطلت بدلا عنه نتوءات صخرة رمادية . الحديقة الخلفية تشع بالضوء الخافت والشجرة . عصفور يزقزق وفراشة ترفرف .. ترى أى منهما هو الآن؟!

النهايات الأولى

المشهد يتكرر.

أرانى نافضة التراب ، خارجة من استطالة الحفرة العتيقة. يفيض السهل اللامتناهى بغبطته . تحفنى الطراوة ، وأنا أحدق فى الإرتفاع وأجدف فى الهواء . عادة مايعيقني غصن مورق أو غيمة ثقيلة أتحاشاها قبل إصطدامى بها . وما أن أقطع مسافة أخرى بعدها حتى تحتوينى إشراقة خاطفة. يتعقبنى الصوت «ألا تخشين الوقوع؟». لا أعبأ مادام الأفق ينداح بخفة ، ويحتضن فى إمتداده الرغبة الكامنة ، للوصول إلى ماهو أبعد . إلى نقطة لم يتمكن الامتداد فيها من الانقباض. ألا يدرك الصوت النافر وهو يتعقبنى بتحذيراته أن الجمرات المختبئة فى الصدر تنوء بثقل التراب . ينتابنى هاجس مبهم أنى أذهب فى سرمد الغيبوبة وأن الخفة السماوية وحدها تعنون الفاجعة وتعيدها إلى صياغتها الأولى : الموت .

الحلم يتكرر:

أتهادى فوق الظلال الوارفة كليل الأوطان الهاربة فيباغتنى حقل بعيد .. هو ذات الحقل ، الذي أنتهى اليه فى كل مرة ويسحبنى بندائه اللا مدرك إليه . النداء يشدنى ويجعلنى على عجل أتكىء فوق جذع شجرة عملاقة . يعلق بقدميّ غبار الأرض ثم يثبتان كعمودين صلدين يتحولان متى شاءا إلى خفة جناحين.

على مبعدة يلغو صبية نجحوا فى أن يمزجوا ضجيجهم بشذى الأرض ويتدثروا ببنفسجها . صبيّان وطفلة . قالت بعتب ظاهر« لن أحدث أيا منكما بعد الآن». نظرتها سخية البراءة وتمتزج برفيف حزن . قال أحدهما «إن لم تأت معنا نتركك وحدك ونذهب» قال ذلك وسحبها نحوه بعنف . ينقلب الحزن إلى غيظ مكتوم . أرقب فى وجهها بريق نجمة ضائعة . أقترب أكثر . يذهلنى ذلك البريق القديم على وجهها الذى كان لوجهى قبل أعوام كثيرة . ينتابها أو ينتابنى مايشبه الدوار. الامتداد يتأرجح وينكمش خلف الغابات وهى تبتعد عنهما دون تراجع .

«الا تريدين اللعب معنا . تعالى انظرى هنا» . لم تكن تسمعهما . كانت مأخوذة بالبحيرة الصغيرة . بانخطافة تدعوها للتكوم على التراب، فعلت ذلك وأخذت

تعاشقه بقدميها ، وفى اليدين الصغيرتين تتلألأ رعشات زبد قطنى مرتعش . صرخت «إنها أمى .. هى أمى .. تعالا وأنظر» تراكضا نحوها : «أين؟». قالت بثقة «هناك .. فوق سطح البحيرة .. ألا تريان؟» قال أكبرهما «أبى قال إنها رحلت إلى السماء ، ربما ترين شبحها».

أقترب من الصغيرة . «هل افتقدت أغنياتها فى الأمسيات الأليفة؟ لم ترحل ، أبى طلقها وستعود». كان واضحاً أنها لا تسمعنى. كيف بإمكانها أن تسمع صوت زمنها القادم؟ وقفت أتأملها . أتأملنى ، دون أن ترانى وصوتى الذى كان قبل قليل يحادثها دخل التلاشى . أستعيد ماحدث فى ذلك الربيع البعيد حين وقفت عائشة قرب الدار، مستظلة بأوراق النبق . يحيطها السكون الذى سرعان ما ينقلب إلى صخب وضجيج بفعل صراخنا ونحن نلعب . الشيخ مسعود يتقدم . خربش النعاس وجهه فبدا منتفخاً كاسفنجة عاطبة . خلف الباب وقف ولم يقل شيئاً . يبدو كمن يحاصره وجع خفى وهو يرمق الخط الفاصل بين الاتساع الأرضى وحاشية الفضاء، حيث نجمات حائرة تمتزج بلون الذهول الذى فى وجهه.

إنحدر نحوها وقال بعد تلكؤ:

«مابك ياعائشة .. تبدين ساهمة منذ البارحة؟».

استفزه أن لايسمع رداً :

«بل تبدين كجنية بحر فقدت ماءها . أرجو أن لاتضيعى الزمن بيننا فى حالات الكآبة التى أراها على وجهك دائماً».

لا ترد .

«لماذا لا تتحدثين معى ياعائشة؟».

«ليس لدى مأقوله».

تسمرت تنظر إليهما من فتحة الباب الموارب . ترى عائشة طيفاً نحيفاً ذائبا فى بياض الرداء الذى كانت تلبسه .. تركض نحوها خائفة قبل أن ينشب العراك اليومى .

قالت الصغيرة :

«أمي».

«قلنا لك إنها رحلت إلى السماء».

«لماذا تركتنا ورحلت . لماذا لم تأخذنا معها؟».

مثلك أفتقدها الآن وهي معي . لايزال الارتباك واليتم يخترقا زمننا منذ لحظتك هذه. يستعيد الخوف كل طقوسه مثلما كان . حين قالوا لنا إنها ماتت لم نصدق، بعدها عرفنا أن الشيخ مسعود أرسل بها إلى بيت الجد . طلقها وأبقانا معه ليقتلها كل يوم في ذاكرتنا الصغيرة .

من أى باب يدخل الخوف؟

يأتى الرد :

كل الأبواب مشرعة!

الريح تحملنى بعيداً . وددت لو أمسح ذاكرتها ، مجرد وجه يتلاشى خلف البحيرة ولا يبقى له من أثر. مابقى هو الخوف نفسه الذى كان يكبر على مهل .. بدأ صغيراً ولم يتوقف نموه رغم الأزمنة الفاصلة.

★★★

مساء آخر .

ليس هناك مايوصف . مجرد بيوت فقدت ألوانها وزقاق يتعرج بانحناءاته الضيقة والمهترئة كتجاعيد الزمن فى وجه امتد به العمر.

وأنا فى خفة التحليق أشد حركتى نحو البيت الأول . بيت الشيخ مبروك ، حيث بحر واسع يزهو بشواطئه المتوغلة خلف أسواره . سرير حديدى صدىء ومرتبة مقلمة إعتادت أن تحتوى أطرافى المجمدة وقت البرد ، وحين يجىء إخوتى الآخرون ترتبك الغرفة بصراخنا والمخدات المتطايرة هنا وهناك . شجرة الياسمين شامخة تقاوم الزمن . السلم الحلزونى يقود إلى السطح الواسع .. ذلك السطح الذى شهد باكورة المشاعر الأولى، والتحفت كل ذرة فيه ، بوجه القريب المراهق وهو يتبلور كل مساء ككرة من كريستال ، يبتسم ويشير بيديه من السطح الآخر

المقابل ، ليأخذنى فى عالم تفتحه الرومانسى الحالم . تتم الاشارات بيننا بعيداً عن خفر الذين يتزاحمون فى الحوش المرمرى المستطيل ويتوزعون فى غرف الأسرار الأربعة وهى تحتوى همسهم وصراخهم . أيام قليلة صافية حملت معها سذاجتها وعنفوانها وولت.

الشيخ مسعود يشذب غصون الياسمين النافرة الآن. يتحرك بليونة، وقد بارح وجهه الاسفنجى ، ليختلس بين لحظة وأخرى ، نظرات شاردة نحو عائشة . يرمق حركات يديها الناطقة هذه المرة بأقصى درجة من التوتر والانفعال. قال منفعلاً بدوره:

«ألا تملين هذا الطلب أبداً .. أصبح الآن لدينا ثلاثة أطفال .. ألا تدركين ذلك؟ أبعد كل مولود تلاحقيننى بطلب الطلاق ؟ هذه المرة سيكون انفصالنا تاماً. لارجعة. هل تدركين هذا أيضاً أم أنك تتناسين؟».

«لم يعد يهمنى .. فليكن الأمر دون رجعة. أصبحت لا أطيق العيش مع بئر خمر فاسد وزير نساء يعلم الله عددهن!».

«إتقى الله يا امرأة . لقد تزوجت كيساً حشى بالبصل والفظاظة والاهمال. وحين تغتسلين من كل ذلك لا أرى إلا طول اللسان!».

«مثلك مثل كل الرجال . تجدون دائماً أسباباً جاهزة لخياناتكم!».

«بل لسانك السليط هذا بحاجة إلى مقص يبزه... ربما أرتاح وترتاحين بعدها».

«لن أسكت يامسعود ... إنك تنفض آخر درهم فى جيوبك من الأيام الأولى للشهر وأنت تعرف السبب .. الشيخ يترنح خلف النساء لا تكفيه واحدة».

«ألا تملين مما تكررينه كل يوم؟».

«لن أمل التكرار مادمت لا تمل أفعالك . لم تبق امرأة فى هذه القرية لم تقتحم دارها خلسة متى حانت لك الفرصة ... لكنى لم أتصور أن أجدك كالبهلوان ملتفاً بالسجادة فى بيت تلك الفاجرة التى تدعى صداقتى . خذ أطفالك وطلقنى وافعل بعدها ماتشاء».

«ألا ترين أنك تبالغين فى أوهامك التى .....».

«ومن بين مبالغاتى أنك تبرأت من إبنتنا وهى فى الرابعة وملأت رأسها ورأس إخوتها بموتى قبلها .. أتمنى لو تبرأ من ضيقك معنا دفعة واحدة .. وإذا كان الأولاد مشكلتك فأنا كفيلة بهم شرط أن لا أرى وجهك أبداً».

لكنهما لم يتطلقا للمرة الثالثة وإنما استمر صخب العراك إلى مالانهاية .. مثل رغيف الصباح اليومى.

★★★

هذه المرة يقف الشيخ مسعود وحيداً . يعانق الياسمين بهدوء . الجدة تفترش الركن المحشور أسفل السلم وتشرب الشاى . أقترب منها . أمد أصابعى المرتجفة وأدخل ذبولها بلمسة خاطفة . تلتفت نحوى .

«مابك؟».

«أنا خائفة».

يطفر نور مباغت من عينيها . تحتضنني وأحدس بشكل طفولي أن صدرها وحده يحتوينى . أخرج منه نحو الأزقة الملتوية . كل شىء فيها يعبق برائحة الفقر. اللحن الشجى المنساب من أحد البيوت نحو الطرقات يزيدنى اضطراباً . أدخل بيتاً صغيراً تعيش فيه «الخالة مريم» . شحبت كثيراً فى الشهور الأخيرة . قالوا أصابها مرض خطير بعد أن تركها زوجها ورحل إلى أخرى. البيت الآخر الملاصق له تعيش فيه «شيخة» ، مطلقة تمارس البغاء سراً لتعيش . هكذا عرفت عنها حين كبرت ، إنما لحظتها كنت آنس لها . ما إن ترانى حتى تغمرنى بالقبل وتقول :

«كنت أتمنى بنتاً مثلك .. صغيرة هكذا وجميلة . مارأيك أن تكونى إبنتى وتغمرى بالحب قلب امرأة فقدت كل شىء».

بعد ذلك أيضاً أدركت معنى أن تفقد امرأة كل شىء. أهرب من قبلاتها وأتركها وهى تبتسم. أدخل مع أهل الزقاق وهج البحر . شطآن تعانق البيوت الواطئة برمالها وأصدافها وحواشيها الصخرية القاسية . قطيع من الماعز يفر إلى الفراغ ، ويتجمع كعادته ، عند صخور الشط ثم يدخل أحد البيوت الكبيرة . حوش

واسع وحدوات خيل تضرب فى الفسحة الجانبية للحوش من زاوية منفرجة يمتزج صهيلها بصهيل الشمس اللاهبة وشعاع الوجوه الذائبة فى السكينة لنسوة يتجمعن تحت الظل فى الجانب الآخر بعد كل ظهر.

كنا مجموعة أطفال ، يحمل كل واحد منا قنديلاً فى يد وفى اليد الأخرى واحة عشب صغيرة بزغت أطرافها الخضراء خارج القطن الأبيض فى الصحن الزجاجى المحدب . نغمر بعضنا بنظرات الدهشة الغامضة ونرمى فى عيون الشمس سن الحمار ليستبدل به سن الغزال.

فى مساء ذلك المهرجان الطفولى عدت إلى البيت .

هدايا كثيرة متراكمة فى زاوية الغرفة أخذتنى إليها أمى ووراءها أطلّ أحد أقاربها البعيدين قادما من بلد آخر .

قالت أمى :

«هل أعجبتك الهدايا؟ كلها لك .. جاء بها ابن عمنا»

مدّ «ابن عمنا» يديه وإحتضننى .

«أليس لطيفا، إنه يحبك ... يريد أن يأخذك معه .. هناك خلف البحر ستعيشين فى بيته الجميل ونحن سنأتى لزيارتك دائما»

لم يبدد فرحتى باللعب والعرائس الملونة سوى صراخ الشيخ مبروك .

«هل جننت ، تزوجينها وهى لم تكمل بعد التاسعة؟».

«أليس بامكانه أن يحميها من التشرد».

«أى تشرد وهى بعد طفلة فى حمايتنا».

«سيسهل على بعد زواجها الانفصال عن زير النساء. ثم إن ابن العم قال: إنه لن يدخل بها إلاّ بعد أن تكبر قليلاً».

«هذا حمق وأنانية .. ماذا حدث لك .. ما الذى غيرك هكذا؟».

«أين الأنانية .. ألم يتزوج النبى عائشة وهى فى التاسعة؟».

«كان ذلك فى عصور بائدة ، لن يحدث هذا مع صغيرتى ... هى فى عهدتى منذ الآن . إعلمى ذلك وليعلمه الشيخ مسعود معك».

بعثر الهدايا بين يدى ورمى جزءاً منها فى الحوش . لم أفهم شيئاً وأوشكت على البكاء . سحبنى من يدى ، خرجت معه وبقيت فى عهدته فترة طويلة حتى تأكد من زوال الفكرة فى رأس عائشة . ومع الأيام اكتشفت أن الجد يحمل فى جسده قلباً كالطير . همست الريح فى أذنه فخرج عن السرب . صار صوتاً خارج الصوت. ولفترة طويلة ظل يردد «الزبد فى حلقى ورغوة الحصار. أى مثل تضربه هذه المجنونة لتبرر فعلتها!».

وحين أسأله كان يمسح على رأسى ويقول : «هل عادت بنا الذاكرة إلى أول الليل؟» ثم يسرح بعيداً عن طفولتى .

من الطريق الطويل ، النابت بين ضفتى نهر صغير أنحدر نحو الظلال ، أشجار نائمة فى غلالتها السوداء . أرنو إلى أول الطريق الموصل إلى مدينة أخرى، تحدونى هذه المرة خفّة ويختلج فى عقلى كل احتمالات المطاردة ما إن ينكشف الأمر ويتعرى أمام ناظرى العائلة الممتدة. خرجت من الباب الكبير ، متشحة بالسكون والعتمة . أطل للمرة الأخيرة على الحديقة الخلفية وأنسل نحو الليل . تبزغ أمامى الممرات الملتوية وكل واحد يقود إلى آخر . فى البداية وقفت مبهوتة، إرتشفت من كوز الماء الذى صاحبنى واختلست النظر إلى رعب العتمة ، بعيداً عن ألفة الحديقة وشجرة السرو، متجشمة عناء الخطوات الأولى خارج السور.

زمن كلّى يخطو الآن بتثاقل ، وذلك الهيولى اللامرئى يحيط بكل شىء ، وكأنه يفتح أفقاً سرياً لعالم آخر يتضوع بروائح الوقت المستريب، حين لاتعود ملكيته ملكية مسترخية كبقية الأيام . بذات الرصانة والهدوء قررت أن أباغت نفسى . أباغت النظام الهندسى المتواطىء مع نواميسه وأفتت الدائرة المغلقة حيث لايعود بامكانه أن يرش الأسيجة على جسد الطبيعة أو جسدى .

حثيثاً ، حثيثاً أتدافع إلى المجهول والوقت يفك حصاره بين الفريسة والمطاردين الذين يلوحون بالأنشوطة. ربما جاء الاستدراك مربكا للزمن المنفلت من نطاق السور الكبير. التفاف كأعتى مايكون ، سديم من الخوف ولذة الكشف

يتمازجان بهواجس قديمة . أرى نفسى غائبة فى أفول الطرقات ، تزداد خطواتى اتساعاً وأنا أدرك أني أتراكض نحو مبهم ، لكنه في ذات الوقت ، ومهما يكن الأمر ، مجنح بالصبوات.

فى قعر المرآة، أخذ الطيف المطلسم يهمس لى ، يستبقينى إليه . زمن مضى يتناسخ على مرأى منا فى الذى سوف يجيء . كيف يحدث أن أرى شيئاً كالكفن المسرج ببياضه الباذخ. أمام المشهد ترتعش الخطوات قليلاً . لم أشأ أن أسرف فى التيه وأحاصر الحلم بهذيانات الليل.

هكذا التقطت من الطائر جناحيه ومن الفراشة ألوانها . هى الآن ترف فى خطوها كما يجب وتندس خلف أشرعة السفينة مندفعة نحو دروب تحتمى باليقظة وتقايض بها مرارات السنوات العقيمة . لا ضجر ، لا تعب ، وإنما تأرجح ذاهل فى مداهمات النهر، والهواء يشق سطحه ويشظيه . المياه تدفع بالنعاس إلى القمر وعينيها وقد أخذ يحفها بأذرعه الشفيفة ويداعب وجه المساحة الصامتة إلا من خطوها . ذات المياه المسافرة كانت تراها فى الحديقة الخلفية وترى معها امرأة تغنى بصوت شجي على آلة وترية، ترقص حولها أجساد لبنية بدبيب خافت يليق بالأصداء المائية وبالصوت الأنثوى وهو يتواشج مع الماء طافراً بشجن مضاف للأنغام المسحورة.

إنها اللحظة المواتية ، ستنقش على المسافات رموزها وتطبع على الرمال خطوات كالتمائم يبقى أثرها سرياً. ذرات الرياح تتواطأ، وهى تموسق لحناً خاصاً آخر، يودع عتمة الليل ويسرى فى كل مايحيط به، تماماً ، مثل سريان ذلك الصوت الأنثوى الفريد فى قاع نهره.

القسم الثانى

الفـــرار

ها أنا جنية من بحر البهاء
أتجول حيث النـــار تسّاقط
أمسـك تفـاحـة الغــوايـة
وألـهـــو بهــا بشغــف
بصمــت ....
ثم أشحذ جسدى كله
للفـــرار

مسخ الآلهة

(١)

جميعاً ، كانوا يتوقون إلى المسك بالزهرة، البحث عن ريح مواتية تعبر بهم أشلاء المكان والزمان ، عن أرض تغدو فاتحة لملكة الروح ، عن طفولة لاتتوجس من الخطيئة ، عن صبا تزهر ثماره فى الربيع القادم ، عن شباب لايختبىء فى انتهاكات الذبول وترصدات الجهل المشين . وحين يبدؤون ممارسة البهاء يتراجعون سريعاً أو هم يترددون ، ودون استثناء يصبحون زوبعة تبعثر بريق أحلامهم النادرة . يمسكون ، عن عجز أو لامبالاة، بجنة الرضوخ ويتمرغون فى وهم الاستقرار.

(وحدك .

ها أنت الآن تمسكين الريح بساطاً يرتحل فى ثنايا الخليقة . وحدك جنية البرارى والبحار المأهولة والانفلات، تطاولت على المخبوء خلف مدارات الوقت والزمن).

كيف بدأت الخرافة؟

كيف رسم الأجداد توقهم وهجسهم على الجدران؟

تتسرب الرؤى إلى خلايا الهجرة الأولى والحكاية البدائية . يتوحد البحث بمسام الحجر ، مبارك التوق الذى دفع أصابع أحدهم إلى أن يرسم وجهين .. أحدهما لامرأة والآخر لرجل. نحت خرافى فى جوف الهواء والفراغ يخلق إلهاً وإلهة ، وحين يطمئن الكائن الأول إلى خلقه يستقر خلف شجرة يستظل بها دهشته والفضول.

ترى أية تعاليم فجائية أسكنت النقص فى جسد الإلهة؟

من هو ذاك الذى ابتكر بغتة غضباً نابعاً من الخوف، والتخلص من الجبروت الذى إستشعره فى كائنه ، فكان له أن يتداول الصورة الجديدة لنحته بعد أن شوهها . أى سر يقبع فى القمم والأحراش والمفاوز؟

هل من هناك جلس الكائن الأول ينظر إلى خلقه ، من الأعلى وقف مستديراً قابضاً على الهواء الملىء بالصلصال والشجن والطمى ليختبر قدرته الأولى؟

ذلك الكائن الأول ، حين نظر بعمق إلى عيون الإلهة اكتشف قوة رهيبة ، قوة مطلسمة تلك التى كانت تنبع من داخل الحدقتين .. ربما أخافه ذلك الوجه الصقيل وتلك الملامحُ الرخامية الآسرة ، اكتسحه شىء مبهم فى الوجه والجيد والصدر العرجونى الأملس . دخل بؤرة انبهاره وهو ينظر إلى روح خفية تتسرب من الجدران التى لم تكن إلاّ مجرد نتوءات . كيف جاءت إذاً هذه الجنية الساحرة بكل هذا الجبروت؟

من أفعمها بنار الخليقة ورطبّ حواسها بزفاف الماء؟

من أدخل فيها شهوة الصوت وانعتاق الصدى؟

من قفز بها من اللاشىء إلى سطوة كل الأشياء؟

كان مستلباً ، موغلاً فى إنبهاره وفضوله ومأخوذاً بتلك المكابرة الغريبة فى الوجه الصخرى . من هناك ألبسها عناقيد السرية وحجبها بطلاسم التخفى . سيّج جسدها بضفائر متلولبة أحاطت الرخام والحجر والجسد الصلصالى بقيود أولى . أشبع أصابعه بحرفة السلاسل والتستر، وصنع بينه وبينها ألغازاً وأحجيات من التوجس . خوف يتسرسب من الأصابع وينتهى إلى حيث القلب . ربما كانت دموعه السخية هى المباركة الأولى لها والتى استحالت إلى شعور طاغ بالعجز . لم يتلفع طويلاً بعوالم انبهاره وخضوعه منذ أن قبع ساجداً أمامها يتأمل السطوة النافرة، وحين أعجزه الركوع واستبد به القلق مسك بقطعة حجر مشؤومة ودمر الجبروت المشع من وجه الالهة بصلصال آخر . ثم أخافه اللغز طويلاً ... وفى ضربة واحدة احتوت كل قلقه أحال الوجه القدسى إلى ملمح عادى أو ملمح مشوّه ، إلى مسخ . ثم توالت التحذيرات، هناك من قال: «إن المال والذهب قوة ، دنس . قالوا أيضاً : المرأة قوة وهى الدنس بعينه ! وهكذا تمت مقارنة اكتمالها الأول بتوق الذكورة لتفادى نقصها ، والتغلب على القوة الرهيبة المقلقة ، وهكذا أيضاً أراد التخلص من إغواء المال وغواية الشهوة بذمهما ، سحقهما داخل الزمن والتمرغ فيهما «عن بعد»، وقبل كل شىء وضع محاذير

أخرى : إعتبار القوة الحقيقية للرجل المكتمل هى قوة التخلص من الغوايتين، المال والمرأة ، السلطة والشهوة ، كلاهما شيطان وكلاهما رذيلة الرذائل . وحين سأل السائل : من قال إن المرأة ليست مثل الرجل وأن قوة المال والذهب وغواية الشهوة تقع طائلتها عليهما معاً .. رد الصوت الغابر : ذلك محض كذب وافتراء .. هى التى تلاحقه بلعنتها وهو دوماً الضحية الذى يقع بين براثن فتنتها».

فى الكهف تدلت التعويذة السرية التى تم تناقلها من يد ليد . أحد الذين كانوا يحملقون فى الصورة المنحوتة على جدار الكهف قال:

«هل تدرى أنهم يفترون على الجمال .. هؤلاء الورثة الحمقى؟».

إنبجس طيف امرأة أحبها فى ذاكرة الآخر ... نطق لسانه رغماً عنه:

«كنت أشعر باكتمالى وأنا فى حضرة حبها وجمالها .. الحب هو الشىء الوحيد الذى أذاقنى رحيق التعاشق .. الامتزاج والتكامل .. كيف هى شيطان إذاً؟».

تساءل الأول :

«لماذا كل هذا الإرث الذى يقفز فجأة من مكان ما فى العقل ليشوه صورة المعشوقة؟».

«هل كل المعشوقات سواء؟».

«هل كل العشاق سواء؟».

(٢)

أخذت المرآة تلقى فيكِ انعتاق السحب من صلادة الجسد . تراقبين غلالة الرماد وتتداحين فى المياه وتبتعدين . إنه الليل يأتى مضخماً بتعب الفلوات، تجرين قدماً وتبطئين الأخرى، تمسكين بالشراع وتتوغلين فى المسافة . الوقت ليس بالوقت والعيون المكبلة فى الجهات تطل من خلف أباريزها . وراء شباك الحديقة يقف الظلام مسنوداً بشجرة كبيرة يتململ بين غصونها طيفان، أحدهما للجد مبروك والآخر للشيخ مسعود . عالمان من المجابهة بين الطبيعة المقيدة والطبيعة المنفلتة ، حتى يأتى وقت تختلط فيه الطبيعتان . كلاهما انزاح إلى الوراء ، دخلا الماضى ومنهما يتغذى العقل بمساريه القادمة . صمت يشبه الجلجلة القوية فى كل الكائنات ينبثق عن بعد، ويدفع بالفرار إلى لغة توحده الأول مع ما هو مختبىء خلف الغلالات ، تلك الغلالات المصنوعة برويَّة الدهر والأجيال، تنشق عن زحام وصخب وكدح دؤوب فى دورة الزمن. هناك من يبنى عشا لامرأة يتجول معها فى شرنقة الوجد، وهناك من يهجر عائلته دون رجعة فكاكاً من الشرك المتلولب فى تعاريج خطوطه الأولى التى يرسمها على التراب، يبنى عشاً رملياً ويهده فى ثوان ثم يشق فى العتمة طريقاً ويعرج نحو غاية ضبابية يبحث عنها . لم يعد مهماً كيف يكون ، من يكون ، هو أو هى . الذى يهّم هــو الفكاك، نورس من الأجنحة البيضاء ترش رذاذها المرتجف وتظلّ فى بيهق الغبار مستحيلة إلى فرس تعبث بالمسافات.

هكذا تخطين الطريق الآن نحو غاية غير مدركة . أمامك بيت واسع وباب مهندس بالدوائر الحديدية . نور خافت يتهادى من الصالة التى فى الطابق الأول وصدى لموسيقى غرائبية سمعتها كثيراً فى حلم بعيد.

(٣)

بينك وبين الباب المُوارب ردهة من التعريشات المحملة بالعنب. أصص مختلفة تصطف على جانبي الردهة . بركة ماء يقف في وسطها تمثال لامرأة عارية تسبغ على ما حولها شكل ومذاق المنحوت الأول لفنان أراد أن يصب في الحجر هالة من الرهبة والقدسية.

فى منتصف الطريق إلى الباب أطل رجل من خلف الستار الكثيف الضارب بكثافته على نور الصالة . تشعرين بالارتباك. يطغى الوهن، والباب الذى يفتح بتلقائية أمامك ، هو آخر شيء يستقر فى مدار البصر.

المدار ينفتح ، كان انفتاحه هذه المرة على وجه الرجل الغريب. أخذ يداعب وجهك بحنو ولم يتحدث . ترك الهواء فى الغرفة الواسعة عالقاً فى الصمت وحرية النوم من جديد .

كم من الوقت مر قبل أن تسمعي سؤاله:

– أوشكت على الخروج للبحث عنك . تأخرت كثيراً عن المجيء ليلة أمس .. أين كنت طوال المدة؟.

يداعب أطراف أصابعك وينظر إليك بحميمية مريبة:

– ما الذى جاء بى إلى هنا!

نظر إليَّ بألفة ثم قال دون ارتباك:

– يبدو أن التعب لم يفارقك بعد؟

قلت بارتباك وقد لعثمنى وده وطريقته فى الحديث:

– لست متعبة . كل ما أذكره أنى جئت من مكان بعيد ... بالأحرى من قرية بعيدة وحين وجدت الحديقة والباب أمامى كنت أنت تطل من خلف النافذة العريضة ولا أذكر بعد ذلك شيئاً .

– وما الغريب فى أن تستدلى على بيتك . كنتِ مرهقة ولازلتِ . كل مافى الأمر أنك بحاجة لمزيد من النوم حتى تعودى إلى حالتك الطبيعية.

هل كنت تزعقين بأعلى صوتك :

- لا أريد أن أنام .. أريد أن أرحل عن هذا البيت.

ملامحه تتغير ، يدخل فورة من الغضب وعتاباً حاداً:

- مابك ؟ ألن تكفي عن هذه الأسطوانة .. ألم تملي من ترديدها طوال الوقت؟ لماذا لا تعودين إلى ماكنّا فيه .. أم أن حبنا أصبح جحيماً الآن؟

بوهن أجبته :

- لماذا لا تريد أن تصدقني؟ أنا لا أعرف عما تتحدث .. لا أعرفك .. هذه أول مرة أراك فيها .. أى حب وأى جحيم ... أنا شهرزاد التى ...

قاطعني مبتسماً :

- إن شئت أن يكون هذا هو اسمك الجديد فليكن!

كنت موشكة على البكاء:

- لكنه اسمي الذى لا أعرف لنفسي سواه!

قال متبرماً :

- بل اسمك هو ليلى ... والآن كُفّي عن كل هذا ... لقد تعبت .. فعلاً تعبت!.

قال ذلك وترك الغرفة.

ما أن أوشكت على النهوض حتى وجدت نفسك عارية.

الغطاء السريرى الناعم وحده كان يغطى العُريْ . تعودين قطعة مرتجفة إلى تحت الغطاء . تبحثين بعينيكِ في كل الزوايا ولا تجدين ماكنت تلبسينه.

عُريْ كوجه البحر ، كوجه المسافات الخاوية التى قطعتها . تضاريس سحيقة تدب في أركان الغرفة وفي ذاكرة موصودة . ترى من يكون هذا الرجل الغريب الذى يتحدث وكأنك حبيبته أو زوجته أو ربما معشوقته! من أين جاء؟ كيف دخلت إلى بيته وإلى أى الطقوس والمناخات يريد إقحامك ؟ أى فاصل بين الجهل والمعرفة، بين الجفاء والحميمية التى في خطابه معك وبين أن يكون خروجك قد تم منذ يوم واحد فقط؟

فيه شيء حميم ومألوف ، مزيج من القلق والحيرة والسؤال . يشبه رجل البحر الذى دعاك إليه مرة فى القاع لكنه ليس هو . وقد تركك وحيدة تنهضين ببطء متحاشية أية نظرة مقتحمة ، فى الزاوية مرآة بإمكانها أن تؤكد رجفة الزمن فى ملامحك . تواجهين الجسد ، تتأملين خطوطه وتعاريجه وبجزع تدركين أنه ليس لك . إنه جسد إمرأة أخرى!.

كيف بالإمكان أن تكونى أنت وامرأة أخرى فى نفس الوقت ؟ ها هى الأخرى تنفصل عنك . تحدق فى المرآة وفى عريها ثم تتجه نحو الدولاب بسرعة . تتأملين حركتها المسترخية وهى تفتح الدرج التحتى لتخرج من داخله قطعاً داخلية بمقاسها تماماً . فى اللحظة ذاتها يدخل الرجل من الباب الموارب . يقبّل جسدها ثم يضمها إليه بحرارة . يقودها نحوه ثم إلى السرير . يجلس قريباً منها ويتأملها بصمت . يداعب شعرها ووجنتيها ، حتى إذا هبّ أريج مباغت من مسامهما يقترب أكثر وهى فى سكونها تتأمله . إنهما الآن معاً . يلتحفان، اللحاف ويذوبان فى فعل حركة بطيئة. ينتضيان فى اللحظة ذاتها سهاماً مرتجفة تتوجه نحو السكون الذى فى الغرفة والغلالة الشفيفة المحيطة بهما ويفعل التوحّد . إنهما عاشقان يدخلان جنتهما . ويتضح من النداء الذى يرش جنباتهما أنه زوجها . رغم ذلك فإن الصوت الآخر الذى يراقب الحدث عن بعد والذى هو صوتك بالتأكيد يقول : إبتعد . كيف تجرؤ على ملامستى !

لا يعبأ بما تقوله وإنما برجاء يعاود مداعبتها : «دعينا لا نفسد الأمر هذه المرة».

تسألينه مندهشة : وهل كان هناك مرة سابقة؟!

رنين التأفف يصدر من مكان مافى حلقه:

– ألا تريدين أن تعترفى أيضاً بذلك . كيف تسألين إن كان هناك مرة سابقة ونحن زوجان!

ملقاة كجثة فوق الفراش:

– زوجان ! منذ متى؟

– منذ ثلاثة أعوام ياليلى ... أنسيت ذلك أيضاً؟

– لكنى لم أتزوج بعد .. من هى ليلى هذه؟

كنتُ على حافة دوار . أحسستُ أن فى الأفق ما يشبه المؤامرة . كلماته أعادتنى إلى المكان .

– ألن تكفى عن هذه اللعبة القاسية .. من الطبيعى أن تمر على كل الأزواج فترات خصام ولكن ليس إلى الحد الذى تتساقين إليه .. ثم إن ...

لم يكمل وإنما خرج متذمراً من اللعبة القاسية كما أسماها . وبين هذا الركام من حديث غير مسبوق وحيرة تضج فى الجهات المرئية واللامرئية يدب الفزع فيكِ وفى عجين الغرفة . يمتزج بطمى الأرض وينزلق نحو ردهات الماضى . هل خلع أحدهم جسدك منك وأبدله بآخر؟ كيف يحدث أن يدنس رجل عذرية امرأة بكل هذا الدهاء؟ لابد أن الأمر كله محض دعابة أو تلاعب أخرق من كائن شيطانى بكائن آخر أكثر منه خرافية . إنه يختلس نفسه فى المرأة الأخرى ويعلن أنك وهى كائن واحد! رغبة ذاهلة تنطفىء فى الروح ، وبين كل هذا يحاصر هو الفراشه التى كنتها والجناح الأبيض المترع بسطوة التحليق.

وحدها ، الأخرى تدخل غواية أحضانه مجدداً . وحدها، تسلم هذه المرة مسامها لأريج شهوته وعبق المكان . وحدها ، لا تعبأ بما هو حولها وتستبيح رذاذ الماء وارتعاشه فى عريشة ما بين الساقين ، وحدها ، تمحو الذاكرة وتبحر معه فى إستجابة مجانية تتمحور حول ذاتها كفعل البغايا . من أين واتتها الجرأة لفعل كل ذلك؟

(٤)

تمر أيام لاتعرفين عددها والأخرى ، سادرة فى الغواية وإباحة ماهو غير مباح. تستعر فى النار وتصطلى فيها دائخة ، حتى إذا توقف عن صهيله نحوها أحزنها أن يبتعد .

فى مساحة صغيرة من ساعة شاردة وقفتِ بجانبها أمام المرآة تخاطبينها لأول مرة .. تسألينها سؤالاً ينبع من بئر عميقة :

– هل تفعلين ماتفعلين من أجل أن تتنعمي بهذه البلادة المقيتة؟

قالت بهدوء وهى تمسك بملقط تنكش به شعيرات صغيرة فوق حاجبها:

– لن أبوح لك بكل ما أعرفه!

ملح البحر يشعل جرحاً لم يلتئم :

– هل لك أن تبوحى بنصفه .. بشىء منه؟

استدركت :

– دون أن أتكلم تعرفين ما أريد أن أقوله .

من الأعماق تنبع سخرية مريرة ، أسألها:

– هل تعرفين الفرق بين الشروق والمغيب مثلاً؟

تململت فى المرآة . ضحكت وقالت بكلمات واثقة :

– الحياة لاتنفتح إلاّ عندما ينفتح القلب للحب . هنا فقط يصبح للشروق معنى .. غير ذلك هو الغروب !

كانت كلماتها لماحّة ومحيرة . ربما ذلك ما استنفر الحدة فى المواجهة:

– والقرار الذى اتخذناه معاً .. هل رميت به فى أقرب سلة للقاذورات!

لم تتحرك . مسكت باصبع من الروج وأسالته على شفتيها . بدتا متنمرتين وهى تزعق:

– أتركينى هنا وارحلى . لقد قررت أن لا أتبع خطاك بعد اليوم . إكتشفت أنك امرأة بلا قلب!

تأملتها طويلا ثم قلت وأنا أرمى ثقلى على مقعد مجاور :

– هل غلبك العشق إلى هذا الحد؟

هدأ صوتها قليلاً :

– ما جدوى الحياة دون رجل أحبه ويحبنى؟

جرتنى إلى بؤرة العبث والحيرة:

– ما جدوى الحياة دون نفسك؟ أين طموحاتك التى ..

ثم أهكذا من أول محطة تسترخين وتستسلمين؟

عاودها الوجه المتنمر :

– أنا مع نفسى حين أحب ، أتركينى وارحلى.

ها هى تتحدث لغة أخرى ومع ذلك تواصلين التوبيخ:

– كيف حدث أنك لا تريدين أن تكونى معى؟

برسالة خاطفة لخصتْ مساحتها الجديدة:

– إنك تدوسين بعنف رهج التراب المترامى تحت قدميك رغم المسافة الطويلة التى يقطعها الآخر إليك.

كيف تطلبين منى الآن أن أترك رجل القلب وأتبعك. ؟!

بدوت كمن يتدحرج على منزلق خطر:

– ألا ترين ؟ إنه يسحقك فى ركن ضئيل بعد أن جعلك تتركين كل شىء خلفك ... أصبحت لا ترين فى الحياة سواه ولا مهنة لديك سوى إنتظاره .

بشكل قاطع أنهت الحديث بيننا:

– لكنه الرجل الذى أحب!

يبدو كلامها منطقياً . هل كسبت إذاً الرهان؟ هل بالإمكان اللعب بالشىء ونقيضه ؟ أن يبقى فى الشجر ماؤه رغم العطش الأزلى . أن تغدو اللحظة خيالاً أو سرمداً، يعلن جزء من الوهم أو الحقيقة ثقل وجوده . أهو الحب .. وبسببه يفرط الإنسان حتى بحريته . أى حب هو فى معادلة مغلوطة ؟ خلف الردمات لايوجد إلا وقع خطوات خافتة تسمع من خلف حجاب . لماذا بالنسبة لنا الحب أو الحرية؟!

(٥)

فى الغرفة المخملية الداكنة تترنح الأخرى ، يداهمها الفعل وينتهكها الوقت . وبينما تقفين ذاهلة عما حولك يباغتك الرجل الذى هو زوجها ، فى البدء يدخل معها رجفة المطر وارتعاشه، ثم يسحب نفسه بهدوء نحوك ليوجه إليك حديثاً غامضاً.

– ما سر شرودك الدائم هذا؟

– أتعتقد ذلك حقاً؟

– بل أنا أسأل .

– كيف تريد أن يتوافق وهجك مع انطفائى؟

– وهل أنت منطفئة .. ظننت غير ذلك قبل قليل .

– لست متوهجة أيضاً على ما أظن.

– التوهج حالة نادرة .. لا يعلن عن نفسه فى كل الأوقات .

– مثلك تعبت من المناوشات الخفية بيننا .. يزعجنى فعل الاقصاء الذى تمارسه ضدى حتى لو كان تحت ستار الحب ، لقد مللت أن انتظر تغيرك وأنا أدرك تماماً أن لا شىء سيتغير.

– أعرف أن لغموضك رهبة غريبة ... وأنا أحبك أكثر لذلك .

– لا يكفى هذا .

– قطعت الفيافى وجئت.

– لا يكفى أيضاً .. لقد تحولتَ بعدها إلى مجرد كائن لا يهمه غير سطوة سيادته وامتلاكى.

– لأنى لا أرى فى الكون شيئاً يضاهيك.

– ألأتحول بعدها إلى قطعة طين لينة وتتحول أنت إلى نحات يشكل الطين كيفما يشاء.. وربما إلى أنشوطة معلقة ..

– كل النساء يبحثن عن حب .. الحب فوق كل شيء.

– لكنى أنا أبحث عنه كما تبحث أنت . أن يجيء ضمن اكتمالى وتحققى.

– المرأة تكتمل فقط بمن تحب.

– والرجل يكتمل بنفسه أولاً والحب مجرد عامل منشط لحريته؟!

– تلك هى النواميس كما يعرفها الجميع.

– هناك خطأ فادح إذاً يجب أن يتم تصحيحه .. وقد بدأ على أية حال .. لا قيمة للحب تحت وطأة الأقدام ... ألا ترى ذلك؟

تدخلت الأخرى وقالت بشكل حاسم:

– دعها وشأنها . لن يجدى أى حوار معها .. إنى أعرفها جيداً كما لايعرفها أى أحد .

فيما كنت أرفع رأسى وأمزق سكون ظلمة قارسة أطل المشهد مهيباً . أفق خلع رداء عصافيره ونجومه، واتشّح برداء من رماد وغبار . عتمة تطغى خارج البيت . كنت وحيدة ، أحث الخطى المتعبة ، وهى تتخبط فى الطرقات ، وكأن البيت الذى كنت فيه لم أكن فيه . آخر شىء سمعته منه هو قوله : «إننى أحبك» . أوليته ظهرى ونظرت فى عين الأخرى : «لا تشغل نفسك بى .. إذهب إليها فهى بشوق إليك». يبدو أنه مرّ وقت طويل منذ ذلك . أجفلنى صدى الصوت، ينبئنى بلعنة تلاحقنى وأن ماحدث مجرد وهم آخر وأننى لم أفعل شيئاً سوى السير قدماً نحو المجهول .

خط الاستواء

(١)

كيف وصلت الى هنا ! لكنى وصلت .

فى الأحـراش الموغلة فى الفطرة رأيتـهم . فلول الليل تطارد وقـار التـلال ، والأجساد العارية تناهز ارتعاش الطبيعة .

كنت ألهث وراء طلقات نارية يأتى صداها من خلف سيقان الأشجار الضخمة، والأيائل تفاجىء غيبوبة المكان الداكن بنفير انعتاقها .

عدد من الرجال ، طوال القامة ، يحاذون بعضهم فى المسير والنساء يتمايلن بعيدان الشجر ، ملفعات بأبنوس البشرة وكثافة الغابة . عيون غريبة تطل على المشهد وتترصد عريهم الذى لا يستره الا بعض أوراق الشجر ، تغطىّ النصف الأسفل لجذوعهن المديدة والصقيلة .

هل من ارتشاف للنبع وأكثر غواية من أن يناوش الجسد البشرى جسد الطبيعة ؟ لا قدسية ولا زجر أو منع الا بقدر ما تتطلب الرغبة من اشتعالها .

عرفت : أنها أماكن معزولة تتفيأ بالبدائية .

أن العُريَ هنا جزء من نسيج عادى للوجود والحركة .

قالوا : طقوس الرقص والاغراء وفعل السحرة وحدها تحرك جاذبية مفقودة بين الرجل والمرأة ليلة عرسهما إن أصابهما ذعر الالتحام النهائى .

وقالوا : المرأة هنا مملكة تدير عرشه ومغانم رغبات تلبِّى شغف الاحتياجات الغريزية كما تشاء .

هكذا ينظر الينا الغرباء ، أولئك القادمون من بعيد ، من أماكن لا نعرف كيف نتابع تفاصيلها نحن النساء المغرمات بأبجديات الغابة .

كنت فى المنطقة المشتعلة من الأحراش وأنا أراقب عيون الفضول تطل من خلف الشجر . أقترب من تخوم الوجه القمحى فينكشف عن شهوة منهكة .

– من أنت ؟

قال كمن حلت عليه صاعقة غير متوقعة :

– مجرد زائر للمنطقة .. جئت من ديار بعيدة .

– ولماذا تتلصص هكذا ؟

– مجرد فضول أو خوف من أن أمنع من هواية التصوير .

يداهمنا دبيب الرقص . دائرة من نار تنبض بحركة السيقان السوداء . يتحركون كالماء المجدول باندفاعة الفيضان وصخب الطبول تشعله صلابة الأصابع المدربة .

سألها :

– هل هو مجرد طقس عادى ؟

– بل طقس إغراء للعريس المتحرك فى الوسط هناك .

– فاتنى أن أسأل من أنتِ .. تبدين أيضاً غريبة مثلى عن هذا المكان كما أعتقد.

– بل ولدت هنا من أب غريب عن المنطقة .

– لونك غير لونهم ولسانك غير لسانهم .

– إنها ليلة عرسى !

– حقاً .. هل أنتِ العروس ؟

– هو من اصطفاه قلبى .

تسمعين صوتها ، تلك الأخرى ، الغائبة عن ذلك النزوح الذى يشرئب فى الصوت . حورية من الأدغال . هل كسبت رهان الحب ؟ تعرفين أنها كالأخريات هنا ، طارحت الغرام كثيراً من شباب القبيلة فى حفلات السمر والرقص والغناء ، حتى إذا انشدهت لواحد منهم قررت أن تتزوجه . تتحرك بليونة بين عشاقها السابقين ومن اصطفاه قلبها ، نافضة عن قامتها ضجر القلب الذى لم يعد وحيداً .

قال الرجل :

– كأنهم لا يعبؤون بوجودك معى ؟

– ولماذا يعبؤون .. أنا غريبة مثلك ولا أحد يرانى هنا .

– ألم تقولى قبل لحظة إنها حفلة عرسك ؟

– بل حفلة عرسها !

– من ؟ ألست أنت العروس ؟

– أخبرتك .. أنا مثلك مجرد مرتحلة .

– وهل سمحوا لك بالتحرك وسطهم دون سؤال ؟

– ألم أقل لك إنهم لا يعرفون بوجودى بينهم .

– شىء غريب ! ولكن ما يهم . إنهم على أية حال يعيشون حالتهم . انفلات مطلق دون قيود .. هذا ما رأيت بعضه اليوم وما سمعته عن طقوسهم من آخرين .

– فى نظرهم ليس الأمر كما تراه . إنهم وجدوا هكذا .. لا يعرفون التحريم كما تعرفه . والخير والشر ينبع من احتياجاتهم واحتياجات المكان الذى يعيشونه. فى نظرى هم أحرار كرياح البرارى .. هكذا فقط .

نمنمة الحديث تدفعه الى المسك بهدير داخلى يزداد دفئاً مع مراسم الطبول والرقص . أراد أن يصطحبها الى مكان آخر .. مكان بعيد وسط الأحراش حيث يؤنس وجودهما معاً الليل الموحش . فاجأه ابتعادها المباغت نحو وسط الدائرة فى لحظة إمتلاً بالرغبة فيها . أفلتت ظفائرها الطويلة وهامت سريعاً فى أتون الانصهار الجماعى . النار تلقى سهامها المشتعلة على الأطياف الراقصة . تتناسخ الألوان حتى تصل ذروة ، بؤرتها تماوج ريح خفيفة على أجسادهم . مملكة وملكة . مطهمة بالنشوة والجاذبية ، تتداح بخفة بين عريهم بعرى مماثل ولكنه مختلف فى ذات الوقت . صبوة من صبوات الروح تتوارى فى الأرض الملتهبة برذاذ الضوء الليلى . هالة من الضباب تحيط المكان ، عواء يصدر من الحناجر ويتصاعد مع ارتجاج الطبول . هاهنا تتخذ المرأة من جسدها المنفلت رمزاً سحرياً لآلهة التاريخ القديم . خيط من الاغواء يفضى بنفسه الى الرجل المذهول . وجد نفسه يتحرك دون مقدمات نحو الدائرة ، مسحوباً اليها دون حساب للرصد أو هواجس الخوف . أطرافه تستجيب لانهمار الحركة ولأغنية الجسد الأنثوى فى فضاءه المكشوف والمطلق .

قال يوشوشها : «للرقص لغة لا تقال . إنه الشيء الوحيد الذى ينفلت من رصانة الكلمات وهندستها ورتابة الرصد المتحفظ» ثم ذاب معها فى الحركة المتواثبة ، هاجراً ضفاف الحدود المعروفة والموزنة ، داخلاً إيماءة الايقاع الطليق ورقص الشهب فى الأحراش المظلمة . ليس من معلم هنا سوى الطبيعة ذاتها وصوت الشجن والحنين .. هكذا أحس وهو يقتنص معها طفولة الصخب وصدى البدائية . تخدره المرئيات ورجفة أطرافه فى ظل النواميس الغائبة .

نداء سرى يتسلل من الملاحم اليهم . وحدهم يعرفون كيف يمرجون نحو الغابات دون أسرار أو فذلكة .

– هل أنتِ معى ؟

– قلبى يصطفيك هذه اللحظة . نفسى تطلبك .

– أشك فى كلامك هذا . مجرد تلاعب آخر . إنك تقولين شيئا وتنفينه بعد قليل.

– ربما بدأت تدرك الفرق بين ماهو آنى ووقتى وبين ماهو مطلق .

– هذا الرقص يثيرنى .. ولكن أين تعلمت الرقص مثلهم إن لم تكونى منهم ؟

– لم أتعلم . جذبونى بحركاتهم اليهم وفعلت مثلما يفعلون .

تزداد وطأة تدافع الرجال ، والنساء يتطاولن على أهداب النار بأن يزجوا فى الحلقة النارية بالمرأة الأخرى وهى تحرك تقاسيم جسدها بالفحيح والتلوى .

قال الرجل بدهشة :

– إنها تشبهكِ تماماً .. كيف يحدث أن يكون لوجودك مكانان ؟

– أنظر ما تفعله .. إنها تستدعى العريس اليها الآن .

يدارى ارتباكه :

– كأننى فى حلم !

– حلم أو واقع .. حقيقة أو خيال .. هل من فارق كبير !

– من أنت ؟

تضحك بغموض :

– إمرأة .. مجرد إمرأة .. ألا ترى ؟

– كيف يحدث أن تصل مجرد إمرأة الى كل هذه الغواية والسطوة ؟

حين التفت نحوها متفرساً في الدائرة وموطئ قدمه لم يجدها . إنتابه خوف مضاعف واستيقظ في عقله غول التخيلات .

بدأت هي بالصعود نحو الرابية الوحيدة ، خلف الأحراش المضاءة بنيران العرس . لاحظت أن الرجل ربما فرّ من وسطهم نحو جهة لم تتبينها . «من أين له أن يأتي لنفسه برحابة الأدغال فيما هو يخيط كل يوم أفقه بسلاسل من جماجم أخريات!». هل أفلت قدميه للهروب من نفسه ؟ هل استدار الى الشيء الذي لا يعرفه .. هل خطر بباله قط إنجاز العراء ؟ هل حجبت الطبيعة عنه سرّها ليواصل زحفه التاريخي المشهود في الغبار الأسود مرصوداً بثبات التعاليم ؟

هل عرف أية همهمة بوهيمية تخامر وعورة الطريق وأي وميض يغزل فضاء امرأة تنهمر باللغة الطائشة حين تفك الرتاج .. تلك اللغة المكابرة لكل حدود التقنين، حتى تصل الى حدود الحلم أو حدود الفراغ . هاوية تنحل فيها كثبان الركام كما ينحل الكابوس في الأخيلة المطلقة .

إنها ترى الآن بوضوح ماحدث له . أراد أن يخرج من وسط الدائرة الملتهبة لكن النار حاصرته . تركته وهي ترى أنواء الريح تذكي الجمر . اشتعلت أشواق الشجر فبعثت أوراقها لتضرم مزيداً من الهالات الحمراء الكاوية حوله . أراد أن يفر لكن الطيور رشته بلغتها ليضطرب فؤاده في المكان .

قالت الريح : من لم يركب جناحي ويسافر في السرّ الى مبهمي لن أقف معه .

قالت الشجر : بعثت بغصوني وأوراقي لمزيد من الصهد . من قال له أن يسخر من تعاليم الطبيعة ويندس فيها بحثاً عن لهب امرأة اشتهاها مجرد شهوة عابرة ، فيما الكمون السرّي للغابة كلها لا يعني له شيئاً غير أن يختلي فيها بعض الوقت بامرأته .

قالت الطيور : لغتى لا تبلبل الا من جافته حرية الروح .

هكذا جعل يخوض فى الدائرة النارية ولا يتجاوزها حتى جاءه الانصهار الأخير وتقحم دون أن يراه أحد من أولئك المنطلقين فى طقسهم وهم يتجاذبون نحوهم عُريَ الطبيعة وكساءها الباذخ . بينه وبينهم برزخ من فراغ . يراهم ولا يرونه . وفى البرهة الحاسمة قبل أن تلتمع ضياء عيونه رأى أطيافهم تشع بنور لا يتوقف عند حدود الريح ، تلك التى كانت تداعب أبديتهم فى الالتحام بالأرض وتسافر بهم الى كل اللجج دون خوف . صوته بينهم يتفتت فى الهواء . يتحرك ولا يدركهم ، رغم أنهم على بعد خطوات منهم . يتوزع الى ذرارى وشظايا ، ثم يتحول الى طيف يلتحم بنورانية الدائرة ، ويصعد سحابة الى ما فوق الأحراش ، راسماً على وجهه شكلاً جديداً لكينونة أخرى ، بدأت تدرك كنه ما يدور حوله فى الكون .

صوته المتحول يناديها :

– كيف لم تأخذى بيدى وأنت ترينني احترق .. ألم تطلبنى نفسك حتى ولو للحظة ؟

– قلت انها غواية سحر . لم تر فيَّ الا ذلك .. لم تدخل مع الطبيعة عشقها الطاغى .. فلماذا تبعتني وأنت مجرد من أسلحة الروح ؟

– الغواية كانت طاغية !

– لم تسمع منها الا نداء الشهوة !

– لم يعلمنى الطير لغته ولا الشجر ولا الريح . جئت من بعيد وأنا أجهل لغة هذا التوحد ، الذى تطلبينه ويطلبه هؤلاء .

– ها قد تعلمت أخيراً . كان لابد أن تتعلم .

– ما الفائدة .. كيف استرد نفسى وأعود الى جسدى بعد أن أصبح رماداً ؟

– لنفسك ارتحالات أخرى ولجسدك تجليات مختلفة .

– أتطعنين فى حكمة تعلمتها للتو . أن لا أتبع امرأة قط .

– بل الحكمة تقول أن لا تتبع صوتاً غير صوتك .. أكان من امرأة أو رجل . ثم إن المرأة هى التى حرضتك على التحول .. من الأجدى أن لا تتبع ما تتصوره

عنها .. ليست هي مجرد غواية تثنيك عما حولك وعن معرفته . يبدو أنك لا تزال غارقاً في الوهم .. والنار لم تقلح بعد في صهرك .

شمعة يخفت وهجها . ناى ومزمار وطبول وطائر مهول بأجنحة ملونة يتصنت من فوق ذؤابة التل الكبير .

قال الطائر : «فليترنح في وهمه . أخرجي الآن من هذا المكان ولا تعبئي به» . قلت : «أريد أن أساعده» .

رد الطائر : «مافيه كفيل به . ومثلما ترتحلين دون هوادة سيرتحل الى بغيته دون توقف» .

تبعثر الصوت خلفها . اتجهت صوب الأرض المزروعة وعرجت نحو الأحراش . في المدى العشبي كانت تخطو نحوهم .

(٢)

قريباً من المستنقع الكبير خرج ظله . مسك بأطراف أصابعها وقادها نحو خيمة جانبية أقيمت على أرض عشبية من أعذاق الشجر وأليافها .

كان شيء ما يحدث . الأحراش تتناسل وتستحيل الى مديات من الفضة والرماد . القمر يهبط من مكانه ويتوسد الخيمة أمامهما ، والنهر الوارف بظلاله السحيقة يقترب . كائن شبحيٌ من ضياء ، وهي مأخوذة بخضاب الألوان ، تدغدغ حلماً عتيقاً للولوج في ذرات الطبيعة . أحست أن قوة طاغية تجذبها الي شراكه منذ أن رأته أول مرة في الحلم . انتظرته ، دون توقع منها أن يتجسد لها حقيقة ، أو يبدد شيئاً من طبيعتها القلقة وينبت فيها عوضاً عنها حالة من السكينة التي لم تحظ بها قط .

ينظر اليها . نسمات خفيفة تداعب شعره والكلمات تخرج منه وادعة «لقد بهرني رقصكِ يا امرأة .. ومنذ الحركة الأولى عرفت أنك أنت» . أدركت بالحدس أنها ستهوى في قاع شبحيته إن هي ردت . لم تكد تغفو واضعة رأسها على نورانية صدره حتى همس في أذنها «لم تسألي من أكون» . تمتمت مستعيدة غفوتها . «ولماذا أسأل . أعرفك أيضاً منذ زمن طويل كما أنت الآن» . ومثلما يمسح الرعاة أجسادهم العارية برماد الحريق ، حتى يمنعوا عنهم لسع الحشرات القاسية ، كانت تمسح قلبها بنوره فيمتلىء بالطمأنينة ، وتتيقن أخيراً من ملكية صغيرة ارتضتها ، تتقي بها المسافات والأنواء . سألته : «كيف جئت الى هنا .. ولماذا في هذا الوقت . توقعتك منذ زمن بعيد» . لم يرد وإنما مسح على شعرها بحنو ورفع خصلة منسدلة على الجبين . كلمات تأتي مرة أخرى من غفوة مسترخية «وما هذه الهالة التي تحيط بك» ؟. هذه المرة رد «إنها هالة الروح .. الروح التي جذبتني من قاع الأرض حيث كانت قدماك تدبان .. لطالما حلمت بك ولم أكن أعرف وسيلة للاقتراب .. وحتى لا يطول بك الفضول أقول لك إني لست من هنا» . ابتسمت بدعة تجاريه في غموضه «وربما لست من جنسنا .. ولا من الأحياء .. أمن الأموات إنّه !. أصابعه تتخلل شعرها : «بالطبع لا .. لا هذا ولا

ذاك .. ولكن ماذا يهم .. ألم تسمعي في هذه الأرض أن رؤساء القبائل القديمة بامكانهم أن يحولوا الحيوانات الى آدميين أو العكس .. أو ربما الى أية كينونة أخرى» . زادت ابتسامتها واستغربت أن حديثه بدا عادياً ومألوفاً رغم غرابته . قالت :

«لا تقل إنك شجرة أو حيوان أسطوري لبس جسد الآدميين ليراني .. أو ربما من رؤساء القبائل القديمة الذين يملكون طاقات خرافية» .

«لم أقل أياً من ذلك قط».

«أود لو كان بامكانك أن تحولني زهرة أو شذى عطري .. لمجرد ثوان ثم تعيدني كما أنا» .

ضحك : «نحن نولي تقديساً خاصاً للنساء ثم إنك أجمل من أية زهرة وشذاك أروع من أي عطر» .

«ما الذي فعلته بي لأكون طيّعة هكذا .. وماهذه الطمأنينة في قلبي منذ أن رأيتك» ؟.

«إنها تنبع من داخلك .. لم ترين الا نفسك .. هكذا أنت سادرة في الحلم! » .

كل شيء يستحيل الى نقيضه . لا هدأة في مثل هذا السكون الطافر بالانعتاق الا أن يكون تحققاً باذخاً في جسد الطبيعة . معاً يحرثان فضاء الملامسة . تستجيب بدعة لغزوه الرهيف كمن لا يعرف شكلاً للانصهار الا معه . تنتابها حمّى الملامسة . تهمس في أذنه بكلمات مرتبكة : «لا دليل لي في هذا المكان الا قمرك .. لكأني أطل من خلف حجاب شفيف وأرى الكون بنورانيتك». تضاحك : «من علمك أن تنصتي الى همس الأدغال» ؟.

ما كان يشغلها شيء آخر :

«كيف حدث أن أراك الآن .. لماذا الآن وليس في نهاية المطاف» .

هل كان حزيناً وهو يروض قراره ويلقي به في وجه الريح :

«لست رجلاً يقطع توق امرأة للترحال وهي في منتصف الطريق! » .

حاولت أن أستبقيه وأن أجعله يختلسني من الزمن اليه :

«لكنك تشبه رجل الأزمان التى لم تأت بعد .. معك بامكانى أن أفعل أى شىء . أتشك فى ذلك ؟ » .

أرادت أن تبوح بما هو أكثر .. بدا الميثاق الذى طمرته داخلها للحظات ينهض من صومعته مويخاً . بعدها لم تنبس بكلمة .. أرادت فقط أن ترطب برضابها هالته الضوئية ، تميل بخفة نحو حاجز جسده وتدخل النور ، وحين فتحت عينيها لم تر أحداً . كانت تقبض على الفراغ . هل كان معها .. قريباً منها ، أم أنه مجرد استحضار لشوق كامن فى لا شعورها . تذكرت آخر كلماته . هل تركها وشأنها لأنه لم يرد أن يقطع عليها ما نذرت نفسها له .. الريح والبرارى والأدغال وصحارى لا نهاية لها .

أحست أنه سرح فى مسامها ، دخل القلب وانزوى فى ركن غائر منه . كان يحدق فى القمر حين مالت نحوه ، محتضنا هودجها ومعانقاً الرياح تحته . على العتبة وقفت تودع طيفاً قرأ أيقونة عشقه سريعاً ورحل . ربما لحظتها توهجت الكائنات الوديعة كلها ، تلك التى تفهم بفطرتها الخارقة لغة الأرض والخليقة . يؤانسها الطيف وهى واقفة على مشارف نيرانه التى لم تنطفىء بعد . هل كان لسانها هذا المساء يسقط على عتبات النبوءة وهى تقول إنها ليلة عرسها . منبتّة من الأرض والأهل والوطن ، تلاحقها لغتهم أينما تحل . ليست هنا وليست هناك .. مثلها مثل المرأة ، التى تقف على عتبة بيت به عشرات من النساء الأخريات ، ينتمين كلهن لملكية ذات الرجل ، ولكنها وحدها خرجت عن طوع القبيلة ، فحلت عليها اللعنة الأبدية .. سرحت فى كل البرارى وملكت ما ملكت الا قلب من تعشق .. مجرد طيف أو هذيان يخترق المسيرة المسرفة فى التيه ، وليس لها أن تشكو أو تتذمر . طيف حلم جاء واختفى ، وحيث البحر الباذخ بمخلوقاته لها أن تبحر كيفما تشاء ، تسابق الريح وتفرش فى القلب مكاناً لمحراب قدسى تتعبد فيه حرية جارحة ، ولا يهم أن تصل أو لا تصل . ليس لها فى كل ذلك حق أن تندف من قطن المواجع ، درباً بديلاً للرحيل ، فلن يوقف صليل البحث المستعر هذا ، مجرد أمنية عابرة لعشق مستحيل جاء من الريح وسافر معه .

(٣)

فى الأدغال التى تقترب منها يقف الملك فى دائرته . يحرم على بناته الزواج ويبيح لهن العشق . ليس من ناموس أو وصايا يتبعها ملك الأحراش هنا سوى قلبه وعبادة أرواح الأسلاف . المرأة تغيّر من عشاقها ، مثلما تغيّر شكل عريها حتى تعثر على من يريده قلبها. بإمكانها أن تنثر فتات قلبها لدائرة من العشاق تتسّع وتتسّع، ولا يؤاخذها أحد على شيء. كيف يحدث أن مجرد مسافة فى الجغرافيا تغيّر أشكال العرف وتغيّر النواميس، وإن شاءت تترك العقل ينزح بإشراقاته إلى فلوات غريبة ومختلفة؟. من وضع إذاً تلك الأعراف المثقلة بالضبابية، ووضع القيود والأحكام وسلالات التقاليد، والحلقة التى تحكم دائرة السطوة الضيقة، وتنتقل السلطة من ربٍّ فى السماء، إلى ربٍّ فى الأرض، يحكم البشر بمواثيقه، ثم ربٍّ فى الأسرة، تنتقل منه السطوة إلى ورثته الذكور.. من خلق كل ذلك وحكم بها البشر، فى أماكن أخرى من صقيع الأرض. لكأن المعانى والأسماء تتدحرج فى قوالب اسمنتية، وتنحدر من فوق جبل شاهق، لتسقط على رؤوس الذين ولدوا صدفة، وفى أزمان أخرى بعيدة عن الزمن الأول.. كل قالب يحمل تعاليمه وإرثه من المحظورات، يتسلّمها أشخاص معنيون بذواتهم، من أصحاب الملكية والسطوات الروحية، ثم يتركون للقوالب مسار تدحرجها، مختطفة من المفاوز الغائرة والطرقات النائية، رائحة غبارها وعفن تاريخيتها، لتستكين فى بلاد تعشش فيها التهويمات والخرافات. جنازات ومآتم مقابل مدن مشرّعة للفرح والوجود فى أماكن أخرى بعيدة. تلك الروح الجنائزية، تنحدر إلى مدنها المائية، حيث بعدها لا تتماسك فيها أوتاد الحكمة ومرايا المعرفة، إنما كل شيء تذروه الرياح، ولا تبقى إلا التعاليم الصارمة، يجعلونها منارات زائفة فى الطريق، ويحسبون من يضل عنها لن يجد طريقا حقا سواه، متناسين فى اللحظة ذاتها، أنها مجرد تابوهات متوارثة، لا يعرفون يقينا كيف جاءت.. يكفى أنها ترافقهم منذ البداية. من تيه إلى تيه وينسى الجميع النزوح إلى ما هو أبعد.

(٤)

لقد وعدت كبير القوم أو رأس القبيلة فى هذه المنطقة النائية أن أزوره وأكمل حديث الأمس معه ، صعدت المرتفع الذى يقع فيه البيت . فى الغرفة الواسعة التى تتوسط الفسحة الجبلية المفتوحة ، كان يجلس مثلما تركته ، مسّن ومهيب لا تفوته شاردة أو واردة مما يدور فى مملكته الصغيرة التى ورثها عن أجداده . يجلس مواجها فم الباب المفتوح ، على جبل ضخم ، يتعرج بانحناءاته الداخلة فى الأحراش القريبة ، يحيطه ، مثلما الأمس ، عدد كبير من النساء بين زوجات وبنات ، كان يبتسم بنظرة مهيبة وسريعة ، ألقاها على حركة الطيف الداخل معى. تنتصب فوق رأسه رموز ورسوم غريبة لمجموعة من التماسيح والنعام وأفراس البحر ، لم أقدّر المسافة التى قطعتها نحوه ، ولكنها بدت طويلة وكأنى أمشى علي نتواءات من الحصى والشوك .

فى جلسته الوقورة ، بدا كمن يبتهل فى صومعة روحية خاصة ، يتمتم ببعض الكلمات ويشير بيديه، إشارات ذات مغزى تجد ظلها فى العيون المحدقة به ، وهى تتوشح بسكون حالته ، والتي انقطعت ما أن دخلت المكان وتوسطته . أقترب بخطى وئيدة من هيكله، الذى تراءى لى أنه قُدَّ من صلصال وَرُشّ بلون الأبنوس . زهو نادر يجتاح وجهه الهرم ، ويشعل فى وميض عينيه نفحة آسرة من التوثب والرضى معا . وشوشت قريبا من مسامعه «نكمل حديث الأمس» بتهذيب وافق «نكمل» . قلت . «لقد كنت تتحدث عن السمات الخاصة لرجال قبيلتك ونسائها »

ابتسم :

ـ الى جانب ماقلته عن رجالى فان سمات الرجال على ما أظن فى كل مكان واحدة .. القوة وإرضاء النساء ! »

علقت مبتسمة بدورى :

ـ ليس فى كل مكان كما تعتقد .. ولكن دعنا من ذلك .. بالنسبة لك .. كيف ترضى كل هذا العدد من النساء ؟

جاءت ضحكته مدوّية ، ساخرة وواثقة في آن معا :

- إن لم يستطع رأس القبيلة ذلك فلا يستحق مكانته .. لايغرنّك عمري فأنا في كامل صحتي ! .

النساء يتغامزن، كل واحدة تنظر الى الأخرى وتضحك ضحكتها الخاصة .

- عرفت أن العشق مباح لنسائكم مثلما هو مباح للرجال .

- كيفما تشاء حتى تجد من يسلو له قلبها .

كلماته البسيطة تقذفني في دائرة الغربة . ما أصعب أن تجادل من بوسعه أن يبدو متهكما من كل عالمك الذي جئت منه دون أن يقصد ذلك . أن يحجّم كل الصراعات والاقتتالات التي تدور في مكان آخر ولا يعلم عنها وإنما ببساطة مناقضته لها فإنما هو لا يضع لكلماته حسابات أو مبررات «لاشيء محرم عندنا الا الاقتراب من أمهاتنا» وأنا أتأمل تعاليم هذه القبيلة النائية ، أجدها قد خرجت من إطار بدائيتها دون أن تختبر أغلال جهات الأرض الأخرى . سلوكيات تختصر التعقيدات وكلمة واحدة تلقي الأسيجة الى حيث المكان الذي يليق بها ، تلك الكلمة هي «الحرية» وبها خلقوا حالة من التصالح المثير حتى مع عقائدهم . حين سألته إن كانوا يعرفون شيئا عن الأديان وتطوّرات التاريخ البشري ، رد بيقينية لافتة . «نحن نعرف أرواح السلف الصالح وهؤلاء مكانهم في السماء» . ثم قال إن تلك الأرواح هي التي تهديهم الى مافيه خير لهم ، والقوانين عندهم تنسى وجهها الصارم والبليد ، لتنتقل بهم الى رحابة أفق أوسع «قوانينا نستمدها من الطبيعة . الأرض أمنا ومثلما جئنا منها اليها نعود .. لذلك نحن حريصون على محاباتها ونحن أحياء وحريصون على فهم قوانينها» .

الزمن معه يقف صامتاً . يتدحرج بتلافيفه إلى الهاوية . يفقد بريق سطوته ليصبح له وجه آخر . ليس لتراكمه هنا أيّ إلتباس خاص وإنما الحكمة ودلائل الخير والشر تجيء كلها في حينه . «فطرتنا الداخلية تدلنا عليها» تلك الفطرة الداخلية ذاتها تدلهم على ما عداها ، على أن الحياة تصنع نفسها دون اضافات بشرية مُخربّة ، لمسة البشر غير الحانية هي التي تدمّر بديهياتها الأولى ، وتخلق

من صلصالها ، أقبية ومحطات وسجون وسلطات ، تنثر نفسها على وجه الحياة كالبثور المتقيحة ، وحين كنت أسوق له معالم مناقضته لتلك الفطرة الداخلية التى يحدسون بها الأشياء وحياتهم ، لم يكن يفهم ولم يكن يستوعب كيف أنه فى أماكن أخرى، تنسج الحكايا من خيوطها شبكات عنكبوتية تلتف على رقاب الناس. كان يضحك ويقول بتلقائية : «ولم كل هذا التعقيد . ألا يكفى غضب الطبيعة وكوارثها ؟!». ومثله لم أكن أفهم كثيراً سبب التفاصيل المرعبة فى حياة البشر، أسردها له وأنا أواجه فى بساطته الوجه الآخر ، ، الذى لم أعرفه ، والذى لم تصبه رتوش الحضارة كما نسميها وأغلال التاريخ كما نعيشها . ذلك التاريخ الذى كان فى شرقنا مضيئاً ، فإذا به يصبح أكثر عتمة من العتمة نفسها . قال وهو يستمع لبقايا حديث يدهشه «نحن خلقنا من نواميس الماضى حريتنا لا أغلالنا... حريتنا نابعة من الأدغال والريح والماء المتدفق أمامنا .. أمام ذلك كلنا سواسية» . وحين عرّج فى حديثه عن علاقة المرأة والرجل لم يكن يفكر طويلاً .. ببساطة كان لايرى أى فرق «لا اختلاف بينهما فى أى شىء ... فى الزواج وحده نحرص أن لا تعدد رجالها. ماعدا ذلك فهى حرة مثلها مثل الرجل» . من ابتكر تلك الشرانق الحريرية الناعمة التى صاغت من نفسها كلمات وأعرافاً وقوانين ، وأدخلها صخباً لايهدأ حول ماهية الجسد والروح ، لتتحول معها الكلمات بفعل الزمن إلى كوابح وأحجار للرجم . أما هؤلاء مثلهم مثل الهواء وأشجار الغابات وأنهرها . مثل البراعم ونزات النوى . مثل الدخول فى حضن الحياة الحميمة والخروج منها كهبّات الرياح... فهل تحتكم الرياح إلى نواميس غير نواميسها الخاصة التى تحركها؟».

فى المشهد الجبلى وأنا أنحدر بين منحنياته ، كان يتراءى فى السفح القريب ، جماعات تسير فى ركب المنحدرات المائية . لم أشأ أن أدنو كثيراً من الوجوه السمراء المقنعة برسوم ملّونة . من بعيد أسمع الصخب وأرى رقصهم وهوادجهم، تلك التى تنثنى فى شرنقة الطبيعة الرافلة . هكذا يفتحون صدورهم المحروقة بشمسها لرذاذ المطر وهم يقيمون طقوس الولائم والسحر الذى يطردون به الأرواح الشريرة كما يعتقدون . كل الأشياء رهن الحس الأول . ليس هناك من أضداد فى

اللغة أو أضداد فى الروح . الأضداد فقط تنسخ نفسها من الحواس «لابد من انصهار كامل في اللذة وانصهار يماثله فى الألم حتى تبصر الروح وعيها المتحد بوعى الطبيعة» . قال رأس القبيلة ذلك ، وصمت مثلما يسود الصمت المطلسم حينما تتحول الأحراش إلى غضبها وتحل كوارثها .. «حينها يموت من يموت لتمنحه الخليقة روحاً أخرى فى مكان آخر» . أضاف الرجل المسّن ، وهو ينحدر معى إلى السفح ثم صمت طويلاً . لم يخرج من صمته الا ليقول كمن تذكر شيئاً نسيه «فى هذا المكان أرواح سقطت من نجوم السماء . هى التى تدلنا على طريق الحكمة وتضاهى بقوتها قوة الشر الكامن فى النفوس المريضة . هذه الأرواح الخيِّرة تتجسد فى هيئة الإنسان .. فنرى رجلاً يجمع كل الرجال في جسده وعقله وامرأة تجمع كل النساء فيها» . أطرق قليلاً وأكمل :

«نحن ننصت هنا لصـوت القلب .. مـتى تنبض الأرض بوجـيـبـهـا وترتجف أرتجافاتها المشرقة التى تدلنا كيف نقاوم الأمراض والشرور . بوابات الحكمة الخفيّة لا تنفتح هكذا .. إنها تعاليم الأجداد التى تنبض فينا ونتبعها لنصل مثلهم إلى حكمتنا ... هى ذات التعاليم التى عاشت فينا آلاف السنين وأثبتت جدواها لنا».

لم يكن وداعاً .. استقرت كلماته فى جهة من العقل ، ليعاد جدولتها فى دروب أخرى . تركته ، وأنا أحاول مثله ، أن أنصت لصوت القلب ، حتى تنبض الأرض بوجيبها وارتجافاتها المشرقة ، علها تدلنى كيف أقاوم التيه ، الذى كنت فيه ، وأنا أفكر بالذين تركتهم خلفى وقطعت سريان الدم بينى وبينهم .

(٥)

مع يقظة النهر وخريره ، أقوم فأتمطىّ تحت بصر الأشجار المتعانقة . نداء يسبح فى الماء على ترف صوت شجىّ يتناهى خلف السكون . كان الصوت يتململ بين ترانيم الطيور المغردة وقد أكتظت بها الغابة . يتفتق النهر الذى أمامى عن قوارب ومجاديف وسواعد صبية، تجازف بالاقتراب من نبع التيار المائى المعاكس. أقارن بينهم وبينى ، فأرى أن مجازفتهم أقل عناء مما كنت فيه . من بعيد لمحت طيف امرأة انشق الإطار الضبابى عنها .إنها المرأة العجوز التى اعتادت زيارتى كل صباح منذ حللت فى المكان . اقتربتْ وهى ترسم بحركة عصاها شواطىء ومدن وفضاءات . سألتنى :

– تبدين منزعجة هذا الصباح ... هل استجّد شىء ؟

قلت بصوت هادىء :

– أفكر فى الذهاب إلى جهة أخرى .

الكلام يأخذ حركة بطيئة في فمها . «لماذا ؟ هل أزعجك أحد هنا».

– إن كان من أحد يزعجنى فهى نفسى .. أشعر أن المكان والزمان يحاصرانى أينما أتجه .. إنهما يلاحقانى كأنى سرقت منهما شيئاً .

أقترب منها أكثر وتنفلت التداعيات دون توقع :

– لو بالامكان أن يذوب المرء فى هذا الكون ويصبح ذرّة أزليّة فيه لأمكنه حينها أن يراقب كل شىء على مهل .

حملقتْ بغرابة ثم قالت بتودد :

– اهدأى الآن وأنا أجعل لك المكان والزمان طوع بنانك ... سأعطيك خبرة العمر .

كلماتها جعلتنى أضحك قليلاً . قلت لها :

– تتحدثين وكأنك امرأة قادمة من الأزمنة السحيقة .

عيونها تصدر بريقاً خاصاً :

– لم لا ... قد أكون كذلك بالفعل ... ممتدة في الزمن وعمرى من عمره !

لم أعبأ كثيراً بمزاحها وإنما قلت :

– إما أنك تحلمين مثلى أو أنك تمارسين السحر الأسود كعادة أهل هذه البلاد.

– لقد سرحت بعيداً ياصغيرة ... لن أكون أبداً واحدة من أولئك الذين يستخرجون مسحوقاً مقيتاً من أمخاخ أطفال أبرياء كقربان لسحرهم .

تجهّم وجهها وهى تضيف :

– قد يحدث ذلك بشكل اعتيادى لدى البعض هنا ولكن لا شأن لهؤلاء بما أقوله. الخبرة والتوحد شىء آخر ... معين ذلك هو الحاسة الداخلية ولا شىء غيرها .

كان واضحاً أن الأسى يغطى صوتى :

– وما تفعل امرأة مثلى تجاه ما تقولين .

لم تكترث :

– بل أنت الأقرب لذلك ! رغم أن النساء هنا الأكثر حرية ، بل الأكثر هيمنة على الأسرة والمجتمع كله .

– لا تهمنّى الهيمنة . ليس ذلك ما أريد معرفته على أيه حال .

– جنسنا هو الأكثر حرصاً على الحياة والطبيعة والأسرة سواء هنا أو فى أى مكان آخر .. هذا هو المهم .

نظرت إليَّ بعمق وأضافت :

– ما أردت قوله أننا الأقرب إلى الحاسّة الداخلية تلك.

– ثم ماذا ؟

– يعجبنى فيك هذا الطموح والتوق للأبعد . إننى أشعر هنا إنه ورغم القدسية التى تحظى بها المرأة إلا أنها لم تحظ بذلك إلا بفعل طبيعة الزمن ذاته فى هذه

فى تأجج المسافات التى كنا نقطعها معاً انشقت الأرض عن ثعبان ضخم، اهتزت عروقى وأنا أراه يتأملنا بصلف بريق حدقتيه. حركّت العجوز عصاها، فاذا به مجرد عذق شجرة هرمة . فكرة الأفعى المقرونة دائماً بالأنثى من أين جاءت . أمن تلك اللدنة الغامضة، حين يقع الرجل فى لا مدرك الطبيعة الأنثوية واختلافها، فلايجد نعتاً يسوغه لنفسه ، غير مقارنتها بما كان يخيفه من الزواحف والكائنات.

قلت لها :

– فكرة المرأة الأفعى كيف ولدت وترسخت ؟

ردت هازئة :

– هذه النعوت وما يشبهها لاتدل إلا على خوف أزلى يستشعره الرجل تجاه الأنثى .. بنى عليها حكاياته وأساطيره وتداولها عبر منطوق كلامه اليومى حتى يظل الحذر سارياً فى أجيال الرجال بعده .

أهى العجوز التى تتحدث أم شخص آخر ... ولكن ما الفرق الآن . سألتها وأنا أثق فى ردها :

– هل هى حرب نفسية تاريخية بين طرف أصبحت له السطوة والغلبة ضد من رسخّه فى خانة الأضعف ، لكنه الأضعف الذى فى ذات الوقت قادر على قلب المعادلة وفى أية لحظة قد يأمن لها فيها هو دون حيطة مثلاً ... .

– لا أعرف هذا إنما الذى أعرفه أن الرجل لأسباب كثيرة يخشى المرأة ولذلك ألهّها فى البداية ثم استيقظ خوفه فحاول مسخ طبيعتها بكل الأقاويل حتى يتمكن من السيطرة عليها .

نخطو الآن بسرعة أكبر والوحل يندف ماؤه تحت أقدامنا . الهواء يحرك السنابل الصغيرة ، فيتفشى فى المكان هسهسة ناعمة ، تجعل عيوننا مرتجفة تحت خدر النبت الرقيق .

باب موارب وضوء فانوس يشتعل على ضفاف الفراش الخشبى ، تستلقى امرأة لا تختلف كثيراً عن تلك التى رأيناها فى البيت الأول أيضا ولكنها هذه المرّة تحفل بمزيج من الأصباغ والثياب الملونة ، تبدو متقاعسة ومنطمرة تحت ضغط السقف الواطىء .

شيء في وجهها يرتعش ، النظرات المتحدية التي كانت لها تتراجع . إنه الآخر ، ينام في هزيعها الأخير ، ويتدفأ بسخونة جلدها الرطب قليلاً ، ثم يدخل معترك التواشج الغريزي بينهما . مالفت نظري أنه قبل أن يتركها في وحدتها وضع بعض قطع نقدية فوق فراشها ومضى .

– ظننت أنهما متحابان ولكن ما إن ترك تلك القطع النقدية ..

التفتت نحوي مبتسمة :

– إنها المهنة الأقدم في تاريخنا وليس الحب ... لو كان الحب وحده هو الرباط المقدس لاختلفت أشياء كثيرة اليوم !

ونحن ننحدر صوب النهر ، لمحت وجهها يمتقع قليلاً ثم ينبسط . تمشي أمامي في الدغل ، ضاربة بعصاها بعض الحفر ، مثل الذي يختبر مطباً مباغتاً قد يفاجئه . صدى طبول يأتي من البعيد ، وفي طرفة عين ، خلعت عنها لباس الهدوء، ودخلتْ ارتجاج الخلايا الهرمة ، لتنتعش بقوة خفية ، ويدب في قدميها نشاط غير مألوف . «تعالي نشاركهم الرقص!» هذه العجوز غريبة الأطوار فعلاً . سألتها مندهشة : «هل سترقصين حقاً .. قبل قليل كنت تبدين منهكة!» هزت رأسها «دعك من هذا .. حلقات الرقص هنا تستقطب كل الأعمار» ثم أطلقت ضحكة جنونية «عيب ألا نرقص!» في الجهة الأخرى كانت ايقاعات الطبول تشتد ، جنّد الرجال والنساء ، أجسادهم لحركات متلولبة تداخلت فيها النشوة بالصخب .ايماءات مموسقة تتناثر ككرات صغيرة في الفضاء المحيط . تختلط الجهات وتتدثر الساحة العشبية الممتلئة بماء الأجساد ، مجتاحة وقار العجائز ، ليخضن غواية العدوى الراقصة .

تكتظ اللوحة الآن بالصيحات ويتدافع الأمواج البشرية، حلقة زار عصرية ، وقارعوا الطبول يتوسطون هياج البحر البشري ، متدحرجين حولهم على صوت ، يطغى بنشوة الأصابع المسيجة بعنفوان الرعود . تقدمت العجوز وترنحّت بأقصى ما يتيحه لها عنفوانها ، مسكونة بالحميّ ، مرتحلة في الغيبوبة، متناسية وقع

عصاها السحرية ، مستبدلة إياها بتلك التى فى أيدى قارعى الطبول . وفى انقلاب المشهد يتحول الاعصار المتحرك إلى بؤرة متكاثفة تتبعثر فيها الأجساد ، واقعة تحت تأثير سحرى يلسعهم بسوطه دون هوادة . هذه المرة ، تتقدم إلى الوسط فتاة ، تحمل هديراً خاصاً تعكس به نبض اشتهائها الأنثوى ، فى رجرجة صدرها وصلابة الساقين . التصفيق يرتفع والثوب الشفيف ينزاح تدريجياً ، عن ساقيها الأبنوسيتين بمرح حلزونى مؤثر . كانت خاتمة الحفل ، الذى أنفض بعدها وغادر الجميع طقوسهم المبهجة على رسم إيقاعات فالتة .لا أحد يدرى كم من الوقت قد مر منذئذ ، فالزمن فى مثل هذه المناسبات ، يصبح كالعجينة ، يتشكل حسب رغبة من يمسك به ، لا يفلت من أواره الاّ حين يفلت الهياج من الأرواح الطليقة .

التفتت العجوز بعد أن تقدمت نحوى : «كنت فى شبابى أملك جسداً شهوانياً وصلباً لم تملك أية فتاة حينها مثله .. ولكن ماذا أقول » .. تنهدت بحسرة «مع الزمن تضيع أشياء كثيرة عزيزة ونادرة» وكأنها تستدرك أمراً نسيته «لماذا لم ترقصى ... لم يبق أحد من الموجودين لم يحركه قرع الطبول» .

ابتسمت وأنا أمازحها «كنت أتأملك .. أدهشتنى فعلاً» . لم يعجبها التعليق . ردت قائلة «الحياة ليست مجرد تأمل!» وحين لم تسمع تأكيداً استرسلت قائلة «إنما مشاركة أيضاً . أظنك تدركين أن الوقت يحتمل كافة التغيرات والأشياء لاتكشف عن وجهها الحقيقى إلا إذا دخلنا كل تفاصيلها الممتعة والمرّة معاً ... هنا الرقص جزء من طقسنا الدينى وشكل من أشكال العبادة» قلت مازحة «كان تعبدك إذاً رائعاً كما رأيت!» . علا وجهها سمت من الجدية «من لايعرف كيف يحرك جسده تبقى روحه مقيدة بالداخل .. الكائن تخف روحه حين تخف حركته» . بدا كلامها أقرب إلى التوبيخ .. ذلك دفعنى أن أقول «بل أنا أحب الرقص كثيراً» . حركت حدقتيها ماسحة بهما كل قامتى «رأيتك ترقصين فى حفلة العرس ... حين جئت أول مرة

كنت أكثر انطلاقاً وطمأنينة» . نثرت كلماتى أنهى به حديث الرقص العبادة وأنا أتحرك معها إلى الأمام «نصف العلم هو الذى يسمنا بالطمأنينة الخادعة ... أما الآن فإنى أشعر وكأنى لم أبدأ الطريق بعد» .

فى أحشاء الطبيعة النافرة ، يتولد كل لحظة شىء جديد . يخضع العاشق فيها لعشقه ، ويستدرج الصيّاد طريدته ، مهما كانت طريدة مباغتة وشرسة ، هكذا هم يروضون الروح والجسد ، ويسكبون على حياتهم الباذخة فى فطريتها ، ألواناً وصنوفاً من المتع . الطبيعة ذاتها لا تقف على الحياد ، تتجلى كل لحظة برونق ورهبة من نوع آخر . وبعد أن يزف الفجر تفتحه الأول كل يوم ، يأتى المساء ليدخل بغموضه ، فى كل ممرات الأحراش الموغلة فى القدم . يتناثر الأريج من كل صوب وتطغى ألسنة النيران على وجوه سمّار الليل ، يجتاحون بها الوقت الموحش، وينسجون من رهبة المكان ، رغبات فجائية للالتحام والمرح . تعود الأرض بهم إلى أمومتها ، وتتجرد معهم من غطرسة زائفة ، لتسطع ببريق دهريتها ، وتحرك فيهم ذلك الخوف المبهم من المجهول ، ولتحل محله سكينة مشبعة بأبهى مافى المكان من ثراء وعمق . يعتمرون حيناً بقمم الجبال ، ويتسربون حيناً آخر ، فى انسياب الأنهار العارمة . أدغال مكسوة بروائح النبت الفطرى وبأجنحة الطيور الغريبة . ودعت العجوز ، وأسرفت فى الخطو المتسارع نحو جهة غير معروفة.

(٦)

أمام البحيرة التى تغطيها غابات الساڤانا لمحته ، على شفا البحيرة كان يقف، يشير نحوى وينثر فى الهواء ابتسامة رائعة . الشيخ مبروك ! هذا الجدّ الأثير ، الذى لم يباغتنى مرآه تلك اللحظة ، مثلما باغتنى توقيت ظهوره . يقينى بوجوده حولى لم يذهب سدى !. جاء كرسول أسطورى ليوقظنى من اندفاعة غير محمودة العواقب . ركضت نحوه وأنا أنفض في حضنه مسارات التوحد الطويلة . حضن دافىء ينجدل مع شراك ساعديه المضمومتين خلف ظهرى ، بكل ما ترقرق فى القلب من عذوبة وتيه . وعلى مشارف الدموع همست : «كنت واثقة أنى سأراك ... التوقيت فقط هو الذى كان يربكنى» . حديثه الوديع جعلنى أحس أنى لم أفارقه ولا للحظة «البحيرة هنا مليئة بالمخاطر .. تعالى نبتعد» .

رغم ذلك لم أستطع أن أمنع دهشتى :

– كيف عرفت مكانى ؟ كيف جئت إلى هنا ؟

دفء يتسرّب منه ويشى بلهاث مسافاته :

– تمهلى ! سنتحدث يا صغيرتى كما لم نتحدث من قبل .

– لم أشأ منذ رحيلك أن أفكر فيك كغائب . كنت دائم الحضور معى إلى الحدّ الذى لايستدعى فيه حضورك أى تفكير . أمى أيضاً كانت موقنة بذلك ... هل رأيتها ... كيف هى الآن ... وكيف أبى والآخرون .

– لم أر أحداً منهم .

عرجت نحو ما اعتقدت أنه يشغله .. أن أخبره عنىّ .

قلت بإيجاز :

– أشعر كمن يمشى على سجادة من الشوك والمسامير ياجدى !

رأى فى ذلك حنقاً متزايداً لا أكفّ عنه . أردت أن أوضح أن الأمر ليس مجرد حنق مثلما يراه وإنما سراديب لاتنتهى «فى كل منها أنثر شيئاً من ألقى وتعبى وأمضى» .

عند تلك النقطة خرج توبيخه واضحاً :

– مـاذا كنت تتوقـعين غيـر ذلك .. أليس من أجل هذا الشـوك تركت البـيت ورحلت.

لم أرد ، وإن اقتربنا من معالم الجزر المتناثرة زاد الأمر إبهاماً . لم يتكلم هو بعدها، دخل طقسه الخاص ، الذى أعرفه جيداً ، حين تنتابه الحيرة ، ثم مررّ على كتفى أصابعه اللينة . طرقات ذات وقع بوهيمى تتفجر بها الأحراش حولنا ، تاركين فى الخلف ضفاف البحيرة الممتدة وهى تعيش افتتانها الأزلى بالقمر . سألنى ونحن نلوى إلى طريق مفتوح «من أين تجيئك كل هذه التوجسات» . قلت فى سرّى «من فوهة الشظايا والشطوط الموبوءة بالشكوك» . مدّ خطوه إلى الأمام ومثله فعلت وفعلت التداعيات المنطلقة دون صوت «مادامت امرأة فلتحلج كل الأزمنة الغابرة منها ، وماهو آنيّ وراهن ، من براكينها.... طرقاً . ولتنثن جذوع النخيل الواقفة ، مرة أمام رياح تربض فى كل الجهات . شكل للحضور وشكل للغياب ، معاً يرجمان أولئك الذين يخرجون من جلد الآخرين ليرسموا جلودهم السميكة . أما هى فيكفيها الخروج الآن ، من ضيق التفاصيل ومراسم الظنون والنوايا ، لترسم فى الطريق وردة وعبقاً ووقتاً إضافياً، مسنوناً فى وجهها كما الرمح فى يد الباشق . خارجة من دوامة المرارات ، داخلة فى إسار اللعنة القديمة، أليست امرأة ؟ لماذا وهى تعطى الزمن كل هذا العبق المنثور وكل هذا الشغف والحنين توشم بالريبة والشك».

فـاجئـهـا صـوتـه ، وقـد انفصلت عنه لبرهة ، مسافات ومسافات «أين غبت؟» ردت دون شهية « سرحت قليلاً » . لم يكفه هذا الاختصار . قال بإلحاح : «فى أىّ شىء سرحت ؟» . اصراره جعل الهـواجس تأخذ مسرى آخر قلت : «فى الكّوة الضيقة حول تعرجات الجسد ... كـل شىء فى الشرق يدور حول ذلك ولا يحتفى أحد بروح مختلفة وجديدة ترزح تحت الأغلال وتحاول أن تزحزح حجارة الطريق.. تهرب من اليقين فيما تم تكريسه إلـى الشـك...» ظننت أنى

ألقى فى وجهه كلمات غامضة فاذا به يقول «لكنك كنت فى حال أفضل خلال الأيـام الماضية !» .

تقتربان من القرى المتناثرة . جدرانها من قش الشجر ، وأسقفها مائلة ، لطرد الأمطار المتواترة على غير ما توقع. خليط من الناس ، يعيشون فى السفوح والمستنقعات حياة بدائية ، متجاورين كحشود النوارس الطليقة .

عالم بكر لايد للخيال فى رسمه . أصوات متحشرجة تنبعث من ظلمات الأحراش البعيدة ، وخطوات متناثرة حولنا لرجال ونساء ، قُدّوا من البرونز الصقيل . لا مسافة بين حرش وحرش ، وإنما تداخل مجبول من صلصال الخلق فى شراسته ونعومته الأولى . الطرقات السّرية تنوء بثقل الظلام ، ونحن نتحاشى الحديث فى تلك اللحظة ، كانت أقدامنا تنزلق فى بؤر مائية صغيرة . صمت ثقيل ، لم أشأ تبديده مادام الشيخ مبروك قد أشعله فى الطريق بيننا . قد تكون حيرتى فى السؤال أو الرد أربكته قليلاً ... ربما توقع منى رباطة جأش أكثر ، مادمت قد اتجهت نحو مسار إخترته بنفسى ، ولم يقف هو ضده ، بل رحل قبلها ليتحاشى المواجهة هناك . ها هنا يجرجر خطاه معى ، مجدولاً برقته وصمته . نحن الآن وحيدان فى عنفوان الغابة . لا صدى للصوت ولا ترجيع للكلام ، حتى الهمس يدخل فوهة المسام بسرعة غير معتادة . أى شىء يفكر فيه هذا الجدّ الأليف ، خارجاً من صبوات كل الرجال داخلاً فى أحراش الشك . معى يمسك بمزمار خفى ويسرب لحناً شجياً ، يداعب فضول الكائنات دون محرمات مسبقة . قلبه الملفعّ بالأسى لم يقترب كثيراً من ماء الواحة الموعودة ، سراب فى كل شىء ، مثله مثل الظامىء ، أو ربما مثلى ، يضفى على سعير التراب خياله فينبض بالماء . يتكىء الآن معى على جدار الحيرة .. هل كان يظن أن لفرارى مستقراً نهائيا .

كيف جاء وكيف عرف المكان . رسول غامض يجىء كالريح مباغتاً ، يجوس عبر البحار والأحراش ولا يهب سرّه لأحد ، ثم يمضى غير آبه بالتفاصيل التى حوله .

صوت نشيد يطرق أسماعنا . سألته مجازفة بكسر الصمت :

- بأية لغة ينشد هؤلاء ؟

- بلغة القلب . لا تهم الكلمات ... أنصتى لشجن الهمهمة المبحوحة وأنت تعرفين اللغة التى ينشدون بها .

- تبدو كأغنية حزينة .

- الحزن يفجّر أكثر الأغنيات .

حاولت أن أجره الى البوح بما يعتريه من قلق :

- فى صوتك أيضاً حزن ... هل هو بسببى ؟

قال دون أن يرد مباشرة :

- ولأسباب أخرى كثيرة .

- لكنى عهدتك واثقاً .

- هدنة أستريح بها !

آنئذ ، أحسست أنه لم يكن يشبه أحداً ولا حتى نفسه . ما من مرة عرفته يتوارى هكذا تحت براثن الشحوب ، أو يطلب هدنة ليستريح . نظراته التى يرميها على الأرض بها شىء كثير من الذهول والتشتت ونحن نزحف تجاه غيمة كثيفة ، تلقى حجبها على البحيرات الصغيرة المتناثرة ، أدار رأسه عدة مرات وكأنه يتفحص الظلال المتواشجة حولنا ، وهو يصيخ السمع للنشيد الحزين ، الذى يذرف بصوت المنشدين ، أنفاساً لافحة تخرج مباشرة من صدورهم نحو مشارب الغابة ، يقطف كل منهم من الوقت حلمه الصغير ، ويتركه فوق شجرة علها تزهر صدفة . بعد قليل ، وقد اقتربنا ، رأيناهم يتناثرون بالوقع الخاطف لأقدامهم المتعبة ، وهم يسعون نحو بيوتهم فى المغيب ، محاطين بهالة من الاسترخاء المتوجس . يعرفون ولا يعرفون ، ليس هناك من توقع جازم لأى شىء فى بيئتهم ، يتدحرجون فى الكثافة والعتمة ، ورائحة الدم الحيوانى المفترس تخيفهم وتغريهم ، مثلما تغريهم رائحة الأنثى الممعنة فى الاغواء فى وقت آخر . هنا .. كلاهما ، الطبيعة والمرأة ينزحان نزوحاً ممعناً نحو الامكانيات القصوى . الطبيعة تتقن

التقلب والمرأة تجاريها في مواسم الفصول ، لكل فصل نزقه وإلفته ومراسمه الخاصة . هكذا هي تعتريها النشوة الكامنة ، مع بدايات التفتح ، ويعتريها الذبول بعد اكتمال دورة الخصب والولادة ، لتعاود الكرّة من جديد ... وهكذا تغتسل كالطبيعة بمائها الملغز ، تتلّون رقصاً واشتهاءً ، وتشعل من جذوة السماء الغاضبة، ناراً دفيئة تستعر في جسد الآخر .

أخيراً كشف الجد الستار المسدل على وجهه وتداعى بابتسامة عذبة :

– لن يفهم أحد سرّ التحول في الطبيعة ما لم يفهم سرّ التحولات في ذاته نفسها .

– ربما لا مغزى لما يحدث .. الا أنه يحدث واعتدنا نحن حدوثه وتقلبه . قد تزقزق الطيور في أوكارها وتبتهل مستبشرة بالفجر فيما نعوش تتهادى في الأسفل لتحتضن التراب ، الحضن الأبدي والأخير ... تحدث المتناقضات في ذات البرهة من الزمن ، ووسط هذا وذاك قد نعبأ نحن قليلاً بما يجب أن نفهمه ونكشفه وقد لا نكترث أبداً بمحاولة فهم أي شيء الا ما يفرض نفسه علينا بوجوده الاعتيادي .

تأملني بعمق ، رفع حاجبيه وقرصني في خدّي وهو يواسيني :

– متى واريت طفولتك أيتها الشقية ؟

– هل هناك ما يغري في الطفولة غير نقائها الساذج .

إننا نستحيل مع الوقت من هذا لذاك وليس لنا سوى الرضوخ لما تفعله بنا التحولات وهواجس المراحل المربكة .

صمت قليلاً ونحن ندخل منطقة أخرى ، كنا ابتعدنا كثيراً عن الرقعة التي التقينا فيها .

– العمر اللاحق يستوعب عادة ما قبله ... رحلتنا الصعبة أن نقبض على ما كان فينا فطرياً ونقياً ... أن نشيخ ونحن بعد أطفال ونجرب الأشياء بجرأة واندفاع تلك الطفولة .

– وما إن ينتهى العمر حتى نموت وكأننا لم نعش قط !

هل من فرق إذاً بين الحياة والموت ... الحقيقة الوحيدة المؤكدة هو الفناء .

سرح قليلاً ، ملتفتاً نحو الخلف :

– لا معنى لأحدهما دون الآخر ... والحقيقة أن هاوية الموت هي التي تجذبنا للحياة وكل كائن يأخذ دورته .

مستدركاً :

– لم هذا الحديث الآن !

ربما الكمون الآسر في الطبيعة فجّر السؤال تلقائيا :

– شعرت أن هذه الغابة الضخمة وغيرها من مفردات الطبيعة تعرف الحياة وسرّها أكثر منا نحن البشر . ثم إنها لا تتعذب بهواجسنا أو هي على الأقل تموت دون انتظار له مثلما نفعل .. قد تكون المشكلة في وعينا .

ضحك :

– أتطلبين لنا جنة المجانين مثلاً !

كنا قد خرجنا من سياق الكثافة ، وتواً دخلنا امتداداً أكبر لمرتفعات جبلية شاهقة . الوديان متعاشقة بالرداء العشبي وهي تستكين في مائها ولا تبرحه . الشقوق تكتظ بالبراعم الجديدة ، وكأنها تتحدى نزق الأقدام التي تدوس فوقها .

قال الجد مرتبكاً وخائفاً :

– حاذري .. هناك حيّة ضخمة تتلوى في الحرش على مبعدة منا . قفي دون حركة حتى تمّر .

هذه المرة الحيّة حقيقية ، وليست مجرد عذق شجرة يابسة . الانتظار تحول الى غول يلتهم أعضاءنا ، حتى لو كان طوله برهة ، ومثل الوقوع في هاوية سحيقة، مرت المباغتة تاركة خلفها شظايا ونتف . ماذا لو جُبلت الحيّة على المداهمة ، واستمرأت غيابنا الفطرى عن الوعي بها . هل كان أحدنا سيغيب فجأة، تاركاً رحيق عمره في ماء الفم المسموم ... هل يستحق شيء بعد هذا أن يجعلنا سجناء الحزن مهما كان نوعه . نحن الذين يضنينا البحث في سبر الأغوار

العميقة ، نصبح مجرد لعبة جديدة ، بين فكى أى كائن فتّاك لمجرد الصدفة ، نجلس حول الموائد ونحتسى العبق من الهواء ، ولكننا نركض العمر كله خلف حريتنا فلا نجدها ، أو خلف ذلك الوهج ، الذى يحرر أرواحنا من أسر الأشياء ، وهى تطوقنا بأقنعتها الهلامية وشرانقها الحريرية ، وبدل أن نقطعها نوغل فى المزيد من التشرنق فيها ، فاذا جاءت الصدفة ، اختطفتنا ونحن بعد فى الشرنقة ، نتبادل الدور مع الأطواق ، فإذا جاء وقت ندرك فيه سرّ الخليقة وسرّ الحرية وكيفية الفكاك من الأطواق تلك ، نكون حينها قد بلغنا أعتاب الرحلة الأبدية أو أعتاب الغياب الأبدى .

سحبنى الجد من ذهولى وأطل فى وجهى بهدوء .. قال دونما توقع :

– تعالى نصعد الى هناك ... الى ذلك البيت المضىء وحيداً . هناك أعرّفك على امرأة لم أحدثك عنها قط .

بيت صغير وحميم ، أو هو بالأحرى كوخ من سيقان الأشجار وعذوقها . على بابه ، تقف سيدة طويلة القامة ، قمحية اللون ، حادة الملامح ، تومض بوميض داخلى خاص ، وكأنها نحتت من بريق النجوم . بدا لى غريباً أن تنتصب بتلك الوقفة على الباب ، وكأنها على علم بوصولنا ، فى تلك اللحظة ، أو ربما جاءت من مكان لامرئى ما إن استدعاها الشيخ بذاكرته .

علا وجهها ابتسامة غامضة :

– أهلاً بالعزيز ... هل هى حفيدتك هذه التى معك ؟

نظر الجد اليها نظرة خاطفة وقال :

– نعم .. إنها هى .

تأملها أكثر :

– ألا زلت بثيابك ذاتها . ألم تقربى الماء بعد ؟

قالت وقد كسا ملامحها شحوب خاطف :

– إنه الحداد ... عند الآخرين أربعون يوماً وعندى ليس له حساب .

فاجئني تبريره :

– ها أنا أمامك ! ألا زلت في شكٍّ من وجودى .

زخت عيونها لمعاناً غريباً :

– ليس هذه المرة كما أرى .

وشوشتْ فى أذنه :

– هل تعتقد هى أيضاً أنك قد مت .. كيف ذلك وهى تراك أمامها تتحرك !

لم يعلق . رمقنى بنظرة غريبة ثم سحبنى من يدى نحو الكوخ . ورغم الريبة التى كانت تحيطنا ، بادرت بترحاب شديد ، بادخالنا الى عشها الشجرى ، ثم جلست مقابلنا على مقعد هزاز من القش القديم المتماسك :

– كنت بانتظاركما طوال اليوم .

ظننت أن الجدّ قد أخبرها فى يوم سابق .. ذلك لم يمنعنى من سؤالها .

– هل كنت على علم بمجيئنا ؟

لم تتغير هيئتها وهى ترد مضيفة لريبتى ريبة أعمق :

– خاطرنى الشيخ مبروك بذلك !

بدوره تضاحك وهو يغمزها :

– وكيف يخاطرك من هو غير موجود يا هاجر ؟

بدت لى غريبة فى إصرارها على ما تعتقد رغم أنها ردت بالمداعبة :

– أنسيت أن التخاطر بالذات هو الذى يحدث بين شخصين رغم عدم وجودهما معاً .

وكأننى فى مشهد سريالى :

– لا زلت كما أنت ... امرأة ساحرة فى كل أشيائها .

ما إن توارت خلف ردهة داخلية من الكوخ ، حتى همس الجد ، ليبدد بعض ما انتابنى على مرأى منه من الوجوم والريبة .

قال «هذه المرأة لا تعتبر كالآخريات بالنسبة لجدك . كائن أثيرى ...» توقف قليلاً قبل أن يضيف «على دراية تامة بكل صنوف الغواية والسحر ولكن منذ أن عرفتها فانها تركت كل أشكال الحياة خلفها واكتفت بزياراتى المتقطعة التى يحين أوانها بلغة التخاطر حين يريد أحدنا استدعاء الآخر ..!» . ورغم غرابة ما قاله بالنسبة لى ألحّ علىّ سؤال ساذج «وهل تزوجتها ؟ » . لم يؤكد سؤالى ... رد بطريقته الخاصة «قبل أن أعرفها كانت مقترنة برجل مزواج . وكلما يحين الوقت ليبعثر النصاب الرباعى الذى داوم عليه كان يتزوج بعد أن يطلق الأخريات ما عدا هاجر ... يبقى عليها .. هى الوحيدة التى استطاعت أن تجعله واقعاً فى شراك أنوثتها حتى النهاية وعندما بلغ الضيق بها حدوده القصوى لجأت الى السحر لتبقيه معها . أخبرتنى أنها نفخت مرة بطن إحدى زوجاته عن بعد ولم يهدأ النفخ فى بطنها الاّ حين رمى عليها الطلاق .

كانت تنفخ بكلمة السّر السحرية فى قربة مصنوعة من جلد فأرة ولكن ورغم كل محاولاتها للاحتفاظ به والنكاية بزوجاته مرض ومات بحمى الغابات .» .

– وكيف عرفتها ؟

– وهى خارجة مرة الى الجبال رأيتها ومنذ ذلك الحين استأنستْ الى شكل العلاقة بيننا وتركتْ كل شيء .

سكت عن سرد حكايته الملغزة مع هاجر ، ما إن رآها تدخل وبيدها صينية ، فوقها ثلاثة أكواب من مشروب خاص ممزوج بالزعفران .

ربما حدست بما كان يقوله الجد . كان كلامها استمراراً للرد على محاولة معرفتى لحقيقة ما بينهما .

– ليس سوى جدك من أدخلنى محراب الطمأنينة والأمان .

لن أنسى أبداً ذلك اليوم الذى شعرت فيه بغيابه وهو يرتحل من ريفكم الى جبالنا . جاءنى بردائه الأبيض الفضفاض وجلس على هذا المقعد كما هو الآن ... حدثنى عن أمور غريبة وعن أسرار لم يخض فيها قط معى . كان أنئذ أكثر سحراً من أية مرة رأيته فيها ومنها اشتعل قلبى كالأشجار الجافة ولم ينطفيء بعد .

هل اشتعل بدوره وهو يرد على مشاعرها بامتنان :

– هي المرأة ... حين تخلص فلا شيء يفوق إخلاصها .

كائنان يهندسان العالم حولهما كيفما يشاءان ! كيف ينسجان من العوالم السحرية علاقات عادية ؟ يحتدمان بالألفة والعشق كاحتدام الغابة برذاذ المطر . يعلقان على عتبة الزمن أرديتهما البيضاء ، ليتدحرجا معاً في وجيبه ووجيب القلب. وما الذي يحدث الآن .. أيمسكان من الطقوس المبهمة مسارب الطبيعة وكينونة الخلق الأول ... بأية لغة يتحدثان ؟

صوته المستريب مرة أخرى : «الى أية جزر مريبة وصلت ؟» شددت على يديه : « الى جزرك الخاصة ! ولكن قل لي من أين تستمد قوانين علاقتك بالمرأة ؟ أنىّ لك بكل هذا الدفء الخاص والدائم معها ؟»

كنت ملتفتة نحو هاجر وكأني أستحثها على الكلام ، وهذا ما فعلته على أية حال . قالت : «الشيخ مبروك يستمد قوانينه من البصيرة ... من تلك الوشائج الخاصة بكل ما حوله ...»

قاطعها :

– أيعقل أن تكيلي لي المديح في وجودي» .

– بل دعني أقل ما أحس به – ثم استرسلت – إنه لم يفتعل قط ...

في تلك اللحظة نهض الجد ودخل المطبخ مسجلاً إعتراضاً وديا على كلامها أو على ما لم تقله بعد .

عادت الى ما انقطع من استرسالها :

– إنه لم يفتعل قط معي رجولته لأنه يدرك أن الرجولة الحقيقية تكمن في رقته و عذوبة مشاعره تجاه من يحب ... معه لا أشعر أن هناك ما يفصل بيني وبينه .. هل أقول إنه التوحّد الكليّ مع الأسرار الكامنة فينا ... إنه نقيض ما أراه من رجوليات زائفة .

عند الغروب خرجا معاً . فضلت أن أبقى وحدي قليلاً تحت ظلال الأشجار المتعانقة فوق أعلى الجبل . أول مرة أرى الجدّ مع إمرأة غير جدّتي .. وربما لكي

أدارى إحساساً .. خفياً ، بعدم الرغبة فى المقارنة ، وجهت نفسى الى اتجاه ، أن ما أعيشه معهما قد لا يربو عن أن يكون مجرد حلم عابر ، أو صورة أخرى من صور المسافات المتلاحقة فى خضم الزمن وجسد المكان ، والا كيف يمضى الوقت معهما هكذا سريعاً ، وكأنه يومض بسريانه أكثر مما يجرى فى إنسيابه العادى . أراهما ، الآن طيفين متكئين على بعضهما ، قادمين من الجهة الشرقية ، لمنحدر الجبل الذى أجلس تحت ظلال أشجاره ، يمسكان بيديهما ذبيحة تبينت فيما بعد أنها لغزال اصطاده الجدّ وذبحه فى مكان اصطياده . قال الجد وهو مبتهج «سنعد وليمة شواء هذا المساء ... سأذيقك لحم الغزال المشوى ... ألا يعجبك هذا». على الضوء المنمنم ، فوق الرابية العالية ، وعلى مبعدة من الكوخ ، أقيم الحفل الصغير ، يضمنا نحن الثلاثة ، وضحكات مسائية عذبة ، تخلف فى السكون الليلى نشوة خاصة ومفارقة . كنت أرقبهما ، وأرقب الانفعالات الخاطفة تحت انعكاس الشرار النارى على وجهيهما . لم أر الشيخ مبروك فى مثل ذلك التألق قط . بدأ وهو يحتسي شرابه المفضل من النبيذ الأحمر ، وكأنه قد عاد الى صباه الأول .. لا ينسى بين فتره وأخرى أن يلف ذراعيه حول قامة معشوقته المتيّمة ، ارتدا معاً الى عمر آخر ، وربما الى فرح يلتئم فيه الغياب المطلق ، لرجل تعتقد المعشوقة ، أنه غادر بجسده وبقيت الروح صافية ونقية ، مثل النار أمامها وهى تحتضن جمرها المتوهج .

(٧)

هل بامكان قوة المشاعر أن تترك بصمتها فى الأثير ؟ كأن نخاف بشدة ، أو نكون سعداء ، لدرجة غير متوقعة ، أو نحزن بشكل عميق ، فتستجيب لنا النطاقات كلها ؟

ها أنذا فى لحظة من تلك اللحظات المفعمة ، تتراءى أمامى الطاقة الذاتية فى الفضاء الكلىّ ، بعيدة كل البعد عن خطواتى . أرى نفسى أتهادى فى الغابة وأنغمس فيما النفس الأخرى التى تراقب ، تكمن كموناً محايداً ، لكأنى ألتقط صورة فى الهواء لانبجاس روحى خالص .

الصورة الملتقطة جعلتنى أراه وهو يلاحقها ، تلك الأخرى الخارجة من جسدى، إنه هو ... الشيخ مسعود يفور وجهه بالحنق والقتامة . ما إن لمح الطريدة ، حتى تناثرت إشارات غضبه ، من اولبية حركاته غير المتزنة . يمسك بيده بندقية قديمة ، كان قد أورثها جده الأكبر لأحفاده فآلت إليه دونهم . قيل إنها لا تخطىء ضحيتها مهما كانت المسافة الفاصلة ، تدربت يداه عليها منذ الصغر ، وهو يخرج مع جده فى رحلات الصيد كل بضعة شهور . مرة جاء بغزالة ، تشبه وجه امرأة مثلومة . قالت عائشة مندهشة «لابد أنها كانت ملبوسة يا رجل .. كيف جرؤت على قتلها؟»، ساعتها لم يكترث وإنما أدار وجهه ناحية الحقل ومضى .

أمى قالت (هذا الرجل تتملكه قسوة غريبة تخرجه عن طوره ... إذا أراد شيئا وهو فى هذه الحالة صمم عليه ونفذه) . هل تملكته تلك القسوة الغريبة إذاً وقد جاء باحثاً عن غزالته الأخرى ؟ لم يحتمل فكرة نزوحها من حضانته فأيقن أنه بات مسربلاً بالفضيحة «لا يغسل العار الا الدم» . لكنه الدم الذى تناثر فى الحقول ، غير قابل للقبض عليه ، حتى لو وشم الأيام بفخاخ جاهزة لقنصه فى كل خطوة . هل عرفت غزالته لماذا شردت وأطلقت للريح حواسها الضجرة .

الصورة مرة أخرى تنفلت من الفراغ . يلهث هو من عناء الآماد التى قطعها نحو فريسته . أراقبه وهو يقترب . حذره فى التلفت يشى بأنه غير واثق مما لمحه .

هل هى الغزالة التى خرقت المحظور وأمعنت فى الانفلات ، يتدلى الآن جلبابه الممزق ، أين كان يكمن يقينه بالنواميس ، وهو يتخطى الحقل كل مساء ، الى الضفة الأخرى ، حيث بيت معشوقته «صفية» أم أن المحظور وقتئذ كان يرزحه تحت سطوته البارعة ؟ لم يكن يداخله الجدل حينها فيما هو مشين أو معيب . كأن التميمة تراوغه نحو تحقيق هدفه وكفى . أن يعبث بحياته كيفما يشاء ، لا يهم بعدها تلك الساكنة ، خلف الجدار حاملة سر صندوقها الأسود . عائشة مجرد تنويعة أخرى ويكفيها أنها تحتمى بكنف دارها ، ومجد اسمه ، بعيداً عن الشهوات المنفلتة ، التى لا يجيدها الاّ من هو مثله . كيف يحدث أن تفشى ابنته ، سر التعويذة الفاضحة وتكشف سرّية الناموس للملأ وهى تتحدى قوانينه .

كانت المرأة العجوز تطاطىء على الابل الشارد وتوبخه :

«إن لم تصنها آل مصيرها لمصير هذا الحيوان الشارد والفالت من عقاله» .

أزعجته نبوءتها فرد بغضب :

«وكيف أصونها ... لقد باتت حملاً ثقيلاً على القلب كالحجر .» .

قالت الأخرى فاغرة فاها :

«زوجّها يا مسعود» .

كظم غيظه المتزايد :

«وهل كان بيدى ولم أفعل يا امرأة !» .

الابل قد شردت والغزالة يتم الاعداد لذبحها . لم يبق الا أن يغرز عينيه ، فى الفسحة التى تفصله عنها ، ويشهر بندقيته ويقبض على الزناد ، ولكن الذى حدث كان شيئا مختلفاً ، مثل سحابة تنقشع بغتة ، وجدت نفسها فى فضاء آخر . ربما كان المشهد كله مجرد استباق للحدث القادم أو مجرد رؤيا منحوسة .

هكذا التقت الشيخ مبروك مرة أخرى ، هو الذى باستطاعته ، أن يخرج من جسده ، ويتجول فى الآفاق والآماد ، مثل بلبل يبصر ما حوله ، ويتفرس فى حواشى الزمن ، ليكتظ الدم الداخلى بطلسمه وبذلك اللغز المحّير ، الحياة ذاتها . كيف نفهم وجودناالداخلىّ ونقررّ مصائره ، نستحضر الفطنة ونتسلح بالمهارات ..

والطقوس ثم ندخل ، تلك الروحانية المنفلتة ، من حدقات البصر ، لنكون أقرب ما تكون ، للذوبان فى وحدة الوجود . كيف تصنع المعجزة شفرتها وإيماءاتها الغامضة ؟ كيف يكتسب أولئك طاقتهم الخفية ، فيعتكفون فى الوقت يغزلون شهب البصيرة فى عزلتهم .

كان الجد يجلس فى ناحية فى الشجرة الوارفة ، حين إنتابته حالة تشبه التشنج ، تركته فى غفوته المتشنجة ، وأنا أدرك أنه قد دخل غيبوبة من نوع خاص. حين صحا نظر الىّ بوداعة واستعاد هدوءه ووقاره . سألته «هل ذهبت بعيداً ؟» ابتسم وقال باقتضاب «هاقد عدت !» ، ومثله أزحت عن نفسى وطأة الكابوس الذى كنت فيه ، وأبعدت شبح الشيخ مسعود وهو يطاردنى .

(٨)

وجدتني في المكان المرتفع ، أطل على السفح الذي كنت فيه ، قبل أن ألتقي الجدَّ ويدخل غيبوبته . جبال شاهقة ونثار من ضباب ، يتكاثف في الجهات كلها الا جهة واحدة ، حيث ينزلق في الأسفل ، بشر عرايا يسيرون نحو بحيرة ملساء . كانوا ينحدرون اليها ، بخطوات متوثبة مأخوذين بمشهد هلامي ، ومثلهم كنت مأخوذة . رجل عملاق يمتطي صهوة جواده ، ويحثّ خطاه ، حتى إذا اقترب من البحيرة ، نظر اليهم وهو يبتسم ، ثم سار فوق سطحها ، وكأنه مجرد سطح زجاجي أملس ، غير قابل للخدش أو التشظي ، وإذا بالصورة تنقلب ، وتجرف معها عيون العرايا ، يتحول المهرجان الضبابي في الجهة المقابلة ، الى مرأى فارس يطير بفرسه بين السحاب ويشير بيده مخترقاً السحب ، حتى إذا مَّر وقت قليل ، كان قد اختفى وكانوا قد عادوا الى ما كانوا عليه وكأن شيئا لم يحدث .

أعود الى سكوني . أتأمل جسدي الذي يغط في سبات ثقيل ، لكأنني أخرج من صندوق محكم نحو نور يتوهج . شعرت في بادىء الأمر ، بما يشبه الغيبوبة ، ثم استعدت الوعي بما حولي ، لحظتها كنت مدركة أني أبصر جسدي في مكان آخر. إنه الجسد ، يستلقي على العشب في المكان المرتفع ، وإذا بي أجد رجلاً يقف على حافة الجبل يتفرس فيه ، وتنثال من حوله نورانية تحجب ملامح الوجه ، فاذا اقترب انكشف الوجه أكثر فأكثر . إنه الجّد يمد يده نحوي ويهمس : «أسرعي . سنرحل من هنا » . لم أنبس ، سلمت له القياد . كان يبدو في عجلة من أمره . تخطينا الحواجز الجبلية والأدغال، حتى وصلنا الى رقعة مأهولة . نساء ورجال وأطفال ، منغمسون معاً في حركة حلزونية ، دون أن يتضح بعد مغزاها . بعد قليل توقفت عربة كبيرة تشبه البيت المتنقل ، وانطلقوا كلهم نحوها ، يتناولون من داخلها بدأب حوائج مختلفة . اقترب الجد ، هللّوا حين رأوه وصرخوا بصوت واحد من هول المفاجأة «الشيخ مبروك!».

خطا نحوهم ليرتمي البعض خلسة في حضنه . أومأ صوبي .

«هذه حفيدتي» . لم أفهم شيئاً ولماذا أتى بي الى هذا المكان . آنئذ انفلت هو من وجهه القديم ، مكتسباً وجهاً آخر ، ببريق أخاذ كمن عاد الى صباه وصبوته مثلما حدث وهو مع هاجر . أشعلوا سريعا دائرة النار ليتصاعد لهيب الجمرات المشتعلة في المكان كله . بادرته واحدة من النساء المحلقات حولنا :

– منذ أيام شاهدت شبحاً يجوب الغابة القريبة ... كنا في طريقنا الى هنا ... غالبتُ شكي أن تكون أنت بعد غياب طويل .

لفّ ذراعيه حولها وتضاحك كعادته :

– وها قد حلّ الشبح بينكم بشحمه ولحمه !

من أين تنبع تلك البصيرة الداخلية التي تحدثت عنها امرأة الجبل . كيف يرى البعض ما لا يراه غيرهم . أي دافع يحث الجد بشكل دائم ، للهروب من محيطه نحو محيط الآخرين ، وكأن الأشياء قد تم ترتيبها منذ أمد بعيد ، وما عليه لحظتها الا أن يمارس طقوس اللعبة حتى آخرها يعرف ببصيرته ما يجب أن يفعل، وكيف يقول ، فاذا جاء وقت أوشكت فيه خيوط اللعبة المؤقتة على النهاية اختفى من المشهد الطارىء وجال في مكان آخر ، دون أن يتضح عليه تعب أو قنوط .

دخل الجّد مع المرأة الى مكان يشبه السقيفة المنعزلة .

بقيت وحدي محاطة بالوجوه ، التي أراها لأول مرة ، تنتابني رغبة قوية ، للانعتاق من المكان نحو جهات أخرى ، أدخل فيها وحدتي . أطراف ملتفة ومترامية ، مهرجان من الثياب الملونة ، وسط الغابة الفسيحة . أنحني أتنشق الزهور الصغيرة ، وهي تتمايل ، متوّجة رؤوس السيقان الرشيقة المنتشرة في المكان . بي توق الى البحر ، الى سواحله الرملية حيث متعة الدخول في الرمل وحيث الهواء المختلط بعبق البحر ينقل جسدي الى فلوات سرمدية خارجة من الملموس .

أنتبه على همسه المبحوح :

– كيف هي رفقة الغجريات ؟

- إننى أتعرف عليهم لأول مرة .

- كل شىء نعرفه يحدث أننا نتعرّف عليه لأول مرة .

انحنى نحوى . وشوش فى أذنى «والآن أخرجى من بحرك المعتم . انطلقى قليلاً وافتحى نوافذ الروح ... ما الذى حدث لك مرة أخرى ... البارحة فقط كنت فى حالة رائعة» .. أجبته موشوشة بدورى «ربما أشعر أنّى بينهم فى لا زمانى ولا مكانى !» . قال «الانعتاق يولد شعور الخفة» حدّق فى عينى وأضاف «لابد أن تحسنى قراءة الرموز والاشارات» ، لم أشأ أن أجادله ، كان الظلام قد حل والسماء أصبحت فى كامل ألقها ورونقها . وهج النجوم يخطف الوجوه المتعبة ، ويستبدلها بأخرى أكثر حيوية . تحلقّوا حول الدائرة النارية ، وبدءوا يرتشفون شراباً خاصاً بلون الرمان ، فيما الدفوف والطبل وآلة تشبه الناى الى جانب آلات موسيقية أخرى ، لم أرها من قبل ، تنتظم فى جهة من الدائرة . أومأ الجّد باشارة من رأسه وكأنه يدعوهم الى البدء بالطقوس المعروفة لديه .

قالت المرأة :

- أظنك افتقدت بهجتنا يا شيخ !

- ومن لايفتقد جنون الغجر؟.

لماذا هذا الانسحاب داخل النفس، الشيخ مبروك اصطحبنى إلى هنا لغاية ما، أية رموز تلك التى يتحدث عنها، لماذا انفرد بتلك المرأة قبل قليل مثلما ينفرد عاشقان.. أفى كل مكان هو يحب امرأة ويجد من تحبه، النور المتسلّل ببذخ من القمر، ينعكس على رحابة الطقس الليلى، ويدعونى بإلحاح للمشاركة، صبى صغير يوزع الدفوف والآلات الموسيقية، مر بعض الوقت، قبل أن تصدح الحناجر بتأوهاتها الحميمة. عالم مختلف تتمازج فيه الضحكات والهُمسات والغناء والتأوهات. دخلت بعض النسوة، دائرة الاهتزاز، وانطلقت الحركات الحرة تتراقص على وقع موجاتها الداخلية. على رأس الدائرة العشبية، جلس رجل فى منتصف العمر ويبدو أنه سيّد القوم المترحلين، يغنى بشجن ظاهر، ويرتسم على وجهه، فضاءات من المدارك الخفية. رغم ذلك لم أنجح فى الخروج نحوهم. بقيت

صامتة أراقب المشهد عن بعد، ويثير دهشتي الجد الذي كان في قمة تألقه وابتهاجه، ما الذي يجعله يتواشج معهم هكذا. لماذا يتصرف وكأنه يتقصّد تركي في وحدتي الداخلية، دون أن تشفّ حركاته لي، عن أي تجاوب مع ما أنا فيه. كنت شبه موقنة أنه يتجاهلني بطريقة مقصودة، منتحيا لنفسه جانبا يتهادى فيه مع أهازيجهم، بدت عينا المغني مغرورقتين، تلفّه ارتجافات خاطفة، مثل الذي يرفو من دفء الذين يحيطونه، روحا أخرى، فينغمس أكثر في أشجانهم المشتركة، ينصت لهمس قلوبهم فيزرع صداها في الليلة المقمرة، كنشيد يتردّد من ذرات الكون الشاسع حوله. قد يكون صوته هو ما أعادني إليهم، غمرتني عنوبة الوجوه وشجن الأغنية فأخذت أتأملهم بعين أخرى. أنوات خاصة تعيش تواشجا نادرا مع أنساق الكون، تحفّز شرودها وحزنها، دون أن تنسى مغالبة تلك المكابرة في وجه الزمن. طرقات أقدامهم على الأرض تقول «ها نحن هنا من غير بيت أو مستقر، لكننا منصتون جيدا لكل ماحولنا.. نعرفها وتعرفنا، بيننا وبينها وشائج سرية لاتشعرها إلا الأرواح المنعتقة من أسر التابوهات». حلقت عاليا، بدأت أدخل لغتهم. هنا نجمة تنداح بين ساقين فتيتين، ونجمة أخرى تشع من فم راقصة أخرى مغناج. هنا تأخذ الحقيقة طعم الشرود والتجوال المستمر، لاتفتأ الأرواح التائهة من أن تجري وراء جوهر النفس الثمين، يهزجون معا بما يليق بمن تحرّر من بعض الثقل ودفع الثمن، مغرمون بالفرح، يهيمون في كل مكان، وأي مكان وحيث لا مكان، فإذا أقاموا في رقعة من الأرض انصهروا معها وحولوّها إلى عربة نورانية يركبونها نحو الآفاق البعيدة. يبدون كمن على كفّ الميزان الأثقل قياسا لحياة الآخرين ولكنهم غرباء رغم كل شيء، مخلوقات تطير في الأثير، وقد لاتقبض شيئا غير أفراح متنقلة، يحبون متى شاؤوا، وينطلقون أنىّ شاؤوا، ويعتبرون البقاء في مكان واحد، مثل الإصابة بوشم يصعب محوه. استثنائيون يسرحون في حواشي الأرض، ويصادقون السماء والنجوم والجبال، يتآلفون مع المياه في غدرانها ومنابعها، حتى إذا أوشكوا على الغرق في إيقاع الديمومة المكانية، مهما كان جلالها وبهاؤها، أعلنوا أشرعتهم وأطلقوا العنان للأسرجة وانطلقوا نحو جهة مغايرة، تقع في المجهول، لكنها تتيح للخيال آفاقا لانهائية يكملون به ماهو ناقص،

يغتسلون فى الهجرة والتعب، وينغمسون بعد ذلك فى الانعتاق ومراسم الحرية كما يشتهونها.

تقترب امرأة، مثل الأخريات تلبس الكثير من الخرز والمدلّيات والتمائم، تزيّن وجهها بالوشم وتتميز عن رفيقاتها بملاحة واضحة، تدل على جمال غجرى فريد، «فطومة» كما ناداها الجد هى التى دخلت معه العريشة، والآن ترمقه ويرمقها بنظرات ذات مغزى، تلك اللغة الخاصة التى تشى بأن ما بينهما، أكثر من مجرد وشائج عميقة، ويتظاهر الآخرون بعدم معرفتها. قد لايكون مابينهما حبا وإنما رابطة ترشّح لتداول الأسرار بينهما، وذلك ربما ما فعلته وهى تدعوه على انفراد. حين اندفعت إلى الوسط قلبت الدائرة الراقصة، إلى فضاء من الترانيم الملغزة والطلاسم السحرية، التى أخذ الجميع يترنّم بها بغتة. انفعالات مكتومة سرت بين المتحلقين، ليطل النشيج المخبوء وينفتح على الصوت شيئا فشيئا، فيغنوا معا ويصبح الغناء مثل الصدى القادم من هدير بحر بعيد. لا أحد منهم يغادر غموضه نحو الوضوح، كان كلما الظلام يشتد، والسماء تتألق أكثر ببريقها الكونى، يتداحون أكثر نحو السّرية، مثل شموع على وشك الذبول. يتحول النقر على الدفّ ومزيج الأصوات الناشجة إلى همهمة كونية فى أفق غامض.

الشيـخ مبروك وفطومة يهتزان الآن معا برشاقة، وينقلان مسًا كهربائيا طافرا إلـى الآخرين . وددت لو أترك جسدى مثلهم وأفتح نوافذ الروح مثلما أومأ الجد، لكنها الأشياء التى تفوق أحيانا توقعاتنا فى أنفسنا، أشعر بالارتباك ورغما عنىّ أحلّق مرة أخرى بعيدا عنهم ، وعن ارتحالاتهم فى البرازخ الفاصلة، التى تقع وحدها بين ضفاف متنافرة، ومن الجمع بين المتضادات، يخلقون توافقهم المربك، مع التباس الجزر الجديدة التى يستقرون فيها لحين، ثم يتركونها لفضاءات أخرى، مختزنين فى أرواحهم توق البشر جميعا إلى العبث والفوضى أو ربما الجنون .

(٩)

أصبحت بعيدة جدا.

أصل إلى المرتفع الجبلى، الذى كنت فوقه، قبل أن يأتى الشيخ مبروك فى المرة السابقة. أرانى ممددة على جانبه العشبى. أتأملنى، هل غادرت المكان حقا؟ أم أنه ـ حين جاء ـ استلنّى خارج جسدى قليلا ثم تركنى أعود إليه وحدى!.

هذا الجبل، ينحدر إلى سفحه العميق بسلاسة. أغيب فيه، مثلما يغيب جذع عشوائى غارق فى لجّة بحر عظيم. أجدنى أتمازج مع النتوءات الضوئية فى الغيوم القريبة من نظرى، وتلك الأخرى البعيدة. فى زحامها وتشابكها، ينفصل الضوء عن العتمة، فيشعّ من جوانبها مسارب مضيئة، لكنها تائهة، تعانق قليلا قمم الجبال الأخرى ثم تفترق عنها.

لحظة العناق القصيرة، توحى بمدى ما كنت فيه من انطفاء وعراء، مجرد حركات طفيفة لخطوط لامعة، تكتسح فضاء متمازجا جهما، رصينا وكثيفا فى برودته، وتنذر خارطة الأشجار فى تموسقها وفوضاها بانقلاب مناخىّ مفاجىء ووشيك.

طائر صغير ينقر فى الأعشاب الخفيفة المتوزعة على القمة، فيما يتحرك طيف منّ خلفه ويقترب كفتيل شمعة تخترق العتمة الضاربة فى المكان بفعل السحب، فيكفّ الطائر عن نقره ويطير بعيدا.

يتقدم الطيف محاذيا الجمرات المختبئة فى يده، أجدنى لا أتحرك، ولا بعيونى نحوه وإنما أتقلب فى بياض رهيف، كالمنمنمات الناصعة، أراقب ظلّه.

الليل ينحدر من ثنايا الغابات الرطبة وتختفى تلك الخطوط الضوئية المشعة من المدار السماوى، ليحلّ فى الأفق حضورا غامضا يرسم لقطرات المطر المتساقطة، كثافة مهيبة تحرك فى النفس رهبة المكان المرتفع.

يقترب الطيف أكثر، يلامس قشعريرة الكتلة الذائبة فى مداراتها وارتحالاتها المبهمة. أسمعه يتمتم بكلمات بعيدة كمن يهذى.. لا أتبينها، فهى تبدو قادمة من

عالم آخر. كنت أنثال لحظتها فى برزخ عائم، وأشعر أن للروح فجوات تتسع وتتلاحق، وأن تثيث المطر وهو يتساقط على أعضائى يفتح فيها بؤرا أوسع فأوسع.

ينتابنى ما يشبه الغياب.

كيف تشبه دواخلنا جذع شجرة عالية، تهجرها طيورها لتنطلق إلى الفراغ فيما الاعتقاد كان ينم عن أن لا مأوى لها إلا ذلك الجذع؟.

«كله يذهب إلى الفراغ» يبدو أن هذا ما قلته وأنا أقارب تمتمة الطيف، الذى يحيطنى بذراعيه، والذى يجيىء من اللامكان ويعكس فى لحظة حضوره وهجا خاطفا ثم يختفى. يشبه عناق السحب للقمم. عناق سريع يبدد خلفه فراغا ويخلق فى ذات اللحظة فراغا آخر من نوع مختلف.

«لماذا أنت ذاهلة هكذا؟»، كان سؤاله، الذى سمعته بوضوح هذه المرة، يعبث ببقايا يقين تشبثت به طويلا. أردت أن أخبره أنىّ «لم أعد متيقنة من شيء» ولكن رياح الجهات الرمادية، تجمعت فى بؤرة صاخبة صغيرة، وبددت بنثيث مطرها المتساقط كل الكلمات. شعرت بالدوار فلم أنطق. نظر إلىّ نظرة حانية ولامس رأسى. كان مثل الذى يقرأ تميمة سحرية ويغادر وجوده نحو السماء المدلهمة فوقنا.

بدت مسارب الكلمات التى تخرج منه كعتاب مؤجل «لماذا غادرت المكان فجأة». لم أشأ أن أشعره بتوحّدى الذى كان قد بلغ أقصى حدوده هناك، ربما حالتهم المنطلقة زادت الأمر تعقيدا. لم تتوقف حركة يديه فوق رأسى. قلت ببلاهة غطتنى فى تلك البرهة «لم أعد أفهم إشاراتك»، ولكنى لم أنتظر رده، شعرت بما سيقوله دون أن ينطق به.

«كيف بإمكانك أن تفهمى وأنت سجينة القلق المستفحل». يقى وجهى بأطراف أصابعه الطويلة. أنظر إلى ماحولى ولا أجد مايبدّد تلك الشحنة النافرة، لا أجد ما يساعدنى ولو قليلا. لم أكن أبحث عن إجابات، فما أكثرها دون أن تتفتق إلا عن وهم آخر.

كانت تجرى فى داخلى، حالة تيه، تقترب من يأس آخر المطاف. بقى الجّد على حاله، صامتا، نظراته تستدير، متجهة إلى الامتداد الحلزونى للجبال الشاهقة. قال وهو يمسك بيدى وجذعى لأستقيم «أنظرى إلى كل هذا الاتساع وجلال ماحولنا». لم يكن بمقدورى آنئذ، لمس كثافته الروحية، قواى خائرة والكلمات لاتسعفنى فى استدراك ما أسببّه له من حزن. استدار بعينيه نحوى محاولا هذه المرة فتح حوار آخر بيننا قال:

«الأفق يبدأ من هذه القوقعة الصغيرة داخل غلاف الرأس، حين يتوجه العقل بالرغبة فى حدوث شىء لابد أن يحدث».

لم أفكر فى كلماته كثيرا. أرى العشب حولىْ مبلّلا ومتجانسا، مع التربة النادرة على رأس الجبل. توقف الرذاذ الخفيف، وتمزق صمت العلّو بهبة ريح مباغتة، طاردة دبق الرطوبة حولنا. الشجيرات الصغيرة المتناثرة على أرض المكان، دبّ فيها الروح فبدت تهمس لبعضها بهسهسة جوانية، وقد تناثرت بعض أوراقها، وتحركت مع الهواء نحو المحيط الذى يقع أسفل السمت الهائل للارتفاع الجبلي. نظرت إليه وأنا أبتسم للمرة الأولى منذ أن جلس بقربى. نفضت رأسى قليلا وكأنى أستعيد توازنا مفقودا، ودون أن أشيح وجهى عنه، سرحت فى نقطة بعيدة يلتقى فيها رأس جبلين، قلت هامسة: «مرأى الشيخ مسعود وهو يطاردنى لم يفارق خيالى لحظة.. ربما كنت أسيرة هواجسى رغم أنى بعيدة كل البعد».. ارتفع صوته الرصين: «البداية دائما صعبة.. إبعدى معها قدر استطاعتك عن الهواجس المقلقة.. لاشىء يفت فى داخلنا مثلها». تحركت، أغمضت عينى، وأنا أحتبس الهواء فى صدرى لأزفره عميقا. لم ألتفت خلفى، اقتربت من الحافة، واحتبست الهواء مجدّدا عدة مرات متتالية. استدرت نحو مكانى الأول تائقة لذلك التلاحم بين عيوننا.. أنا والجّد، فى مثل تلك اللحظات الموتورة، فلم أجده. اختفى مثلما ظهر! اهتز الهواء قليلا فى صدرى. أردت أن أصرخ وأنا أنادى اسمه، معلنة بإلحاح حاجتى إليه، فلم أجد ما يحفز طاقتى لذلك. لعبة مقصودة تلك التى يلعبها معى، وقائع ظهوره واختفائه، إلى حد وقوعها فى عتبة النسيان، نسيان أن أسأله مرة واحدة عما يفعل، ليس لى سوى أن ألامس طيفه، مثلما ألامس سرابا يتلألأ فى الصحراء، فيما الظمأ يغرس أنيابه بوحشية ومراوغة.

(١٠)

المعبد الذى وقفت إلى جانب بابه الكبير، يشبه نتوءا يتوغل فى ذاكرة حلم عتيق. تناهى إلىّ صوت شدو جنائزى مألوف، يصدر من حناجر رقيقة تتشّح بالبياض. كان لجنوعهن المنحنية إلى الأمام، إنعكاس لدى الحيطة والحذر اللذين يخطين بهما. تدخل الواحدة تلو الأخرى فى صفّ مستقيم، ثم تتفرق الأقدام داخل البهو الواسع، تمسك كل منهن بصحن بللورّى، مليء بالزهور الجبلية المختلفة وأشياء أخرى لم أتبينها بوضوح.

اقترب حارس المعبد من الحشد الصغير. همست التى فى المقدمة، بشىء ما فى أذنه، ثم لحقته نحو مدخل جانبى خاص واختفت معه، فيما الأخريات وقفن بانتظام أمام الجسد المصلوب والشموع تتراقص حوله. برهة وتنطلق الروائح الكنسية، من مكان ما، متمازجة مع الشجن الشجى الخافت الذى كان لهمهمة الابتهال، تطلقه الأصوات الخاشعة.

إرتددت إلى الوراء قليلا، أقف الآن وحدى أحتمى بالجدار، يسبق نبضى سكون المكان من خارجه ويتآلف معه، وقد خلا تماما من أى وجود بشرى. الأشكال تتحدّد فى ضوء الشموع المنسلّ من الداخل، وذلك اللون الرمادى المتسلل من مسارب أخرى، ليتداخل بدوره مع ضوء البهو الصقيل، الذى شدّنى نحوه. دلفت إلى حيث يقف الكاهن وإلى حيث المقاعد الأمامية تقع فى بؤرة الحدث. تسمرت قليلا، وأنا أتأمل جدار المعبد والسقف الدائرى المزين برسوم كلاسيكية ضخمة وانعكاسات متناثرة من الإضاءات الكريستالية، المعلقة بكثرة وبأحجام مختلفة فى سقف المعبد وحوائطه. يبدو الامتداد الآن لانهائيا، وكأنما المسافة المفتوحة خارج الباب، قد تكثفت لتأخذ هنا بعدها التأملى الخالص، وتفتح بريق شعلتها الساكنة. من قال إن: «المعبد رمز اتصال السماء بالأرض فيما الزمن يراكم خواصه فيهما وبهما معا؟!».

فى لمح عبرت وجه الكاهن الداخل فى صمته ووقاره. عيناه المغمضتان، أسعفتانى على الاقتراب أكثر، حتى إذا فتحهما تأملنى بدوره، وأبدى اهتزازة

خفيفة من رأسه، وكأنه يشجعنى على التماهى مع حالته. بشرته البيضاء الصقيلة تتشرّب ألق الضوء حوله فتكتسب حيوية ربما لم تألفها. لم أعرف كم مضى من الوقت وكيف حاذانى الكاهن لينبهنى بصوته الرخيم إلى أنى أطلت البقاء: «هل آنستِ الوحدة هنا؟». لم أبال بلياقة التعارف الأول بيننا وأنا أرد وكأنى أحدث نفسى: «وربما آنست السراب أو الغبار». انتبهت بعدها لوجوب لياقة مضافة فى آخر لحظة مستدركة بعد صمت قليل «أيها الكاهن الجليل». تفرّس أحدنا فى الآخر، وفى حركة احتشام تؤطر المسافة الفاصلة بيننا، دعانى للتجوال خارج جدار المعبد إذا شئت ، فهو الوقت الذى يتمشّى فيه عادة . حنين يجرف الشواطئ المهجورة نحو سفنها الضائعة . أخطو معه بهدوء ، ولم أنبس بكلمة بعد. مغلفة بارتباكات ما يشبه الحالة الأولى، بدائية ، نقية ، رصينة، وخاضعة لاستجابة مجنّحة ، تبعد بالعناصر والطبيعة عن خيباتها وانتكاساتها ، وتستفيق من انعكاسات النظم المعقدة، التى تحيل العناصر الخام إلى عناصر أخرى. مثل هذا التحوّل يستنفر فىّ كل اللهيب الداخلى ليعلن تحولاته المستمرة.

أصبحنا قريبين من المدخل الخارجى، أحاول أن أحصر بصرى المتعب، فى زاوية مشجرة يسترخى تحتها مقعد خشبى، نصل لونه البنى الغامق مع الوقت. أشرت بإصبعى إلى الجبل المقابل وقلت «كنت هناك اليوم حين رأيت المعبد وشدنّى إليه». ربما لم أصب فى صيغة أول الحديث معه لأنه صوّب نحوى وجهه الصامت، وبدا هيكله كله محاطا بهالة كبيرة شاحبة وهو يقول: «يبدو أنك لست من هذه الناحية. لم أرك قبل اليوم». تمتمت مؤكدة استنتاجه ثم باغتهُ بسؤال، لم يبد سلسا فى سياق التعارف، أو مبررا وسط الحديث المتقطع، لكنه هو بالذات ما أردت أن أتحاور به معه. قلت: «هل بإمكاننا أن نسيطر على الصدفة.. الحظ.. القدر.. أم أن مصائرنا ذائبة فى المطلق ترسم لنفسها حدودا خارج مانتوقع وما نريد». رد بصوت خفيض، كأنه يريد الإفصاح عن شىء مختلف، ولكن اعتناءه بالكلمات التى ينطق بها تجعله يقول ما قال: «حين ندرك ماهو سراب نقترب أكثر من الحكمة»!. اختفى وجهه فى ظل الشجرة العملاقة، التفت لوهلة نحو الجهة المقابلة، كاشفا عن ظهره الذى بدا منحنيا قليلا. علقت بنبرة ودودة وأنا أستميله

نحوى وربما نحو هاجسى الخفىّ: «وكيف يكون ذلك؟ كيف نصل إلى مثل ذلك الإدراك؟»، أتمعن فى الخطوط الصغيرة الذائبة أسفل عينيه وفمه. أبدى إستغرابا داخليا لعدم رده السريع. كان واجما قبل أن يوضح لى قناعته: «ربما الأمر يحتاج إلى أن يودع المرء لغط الحياة وبهرجها.. أن يصرع زيفها ويتجاوز الأحقاد». عكسه تماما انسقت وراء تسرّعى فى الرد ثم اكتشفت أنها ربما تكون قناعتى أنا أيضا.

«هذا العالم ملىء بالتفاهة».

ما إن قلت ذلك حتى رد بوقاره الملحوظ:

«لكنه العالم الذى نُمتحن به»!.

شىء ما فى هيئته وكلامه، يذكرنى بالشيخ مبروك، مع فارق غير ملحوظ، وهو أن الأخير يختلف فى أن قناعاته لاتدخل حيّز المسلمات، وإنما تأتيه عبر اعتراك يومى ومع تلك المسلمّات ومع ماحوله من فرضيات أخرى، أحيانا يصل إلى أن ليس كل شىء يشكّل سؤالا، وإنما قد يشكل مجرد قلق دائم لايجد تعبيره فى الكلمات، بقدر ما يجدها فى تصرف عابر، أو فى تآلف حيوى مع ما يمليه الشعور عليه. نوع من السحر يطلّ حينها، من شفرات كلامه وغرابة سلوكه، وما لا يسأل فيه أو يتحدث عنه. يقول «هناك دائما أشياء لاينبغى النظر إليها أو التوقف عندها.. يكفى أن نعيشها بصدقنا وحدسنا الخاص». هو الحديث الذى يتماهى بدوره، مع طلسمية الشفرات اللانهائية للكون ولحركة الحياة، مستجيبا لغبطة متواطئة مع تأرجحات خلايا الجسد المحدود واللا محدود معا، تحت وقع سطوة الأهواء أو الحالات الروحية الخالصة. حديثى الداخلى الذى مرّ كخاطر مكثف وسريع يتوجّه إلى الكاهن بصوت مسموع: «ما الذى يجعل الأشياء تحدث فجأة، هل هى احتياطاتنا الحيوية مثلما يراها البعض.. أن نرغب شيئا ما بقوة ونفكر فيه بعمق فيدب اليقين الغامض فيه أن لابد أن يحدث فى وقت ما».

وقبل أن أنتظر منه ردًا استرسلت:

«ولكن ماذا عن الأشياء التى لانرغب فيها وبقوة أيضا ورغم ذلك تحدث لنا!».

انتبهت إلى أن خطواتى كانت تتسع، بما لا يسمح للكاهن مجاراتى فيها. تباطأت قليلا، ولففت ساعدىّ على صدرى، وأنا أستقبل نسمات منعشة، تماوجت متثنية مع خطواتى، التى خلت من الارتباك السابق، مع اسقاطات الضوء وهو يتوزع فى الباحة معلنا مغيبا هادرا آخر سيبدأ بعد قليل.

وكأنه يكرر ما اعتاد قوله لمن هم مثلى، ممن لم يصلوا بعد إلى يقين ما فى نظره. قال:

«إنه عالم ملىء بالانتفاخ الزائف على أية حال. وخزة واحدة وانفجاره سيدل على ما فيه من خواء.. ما نحتاج إليه حقا هو قليل جدا».

سرحت لبرهة قبل أن أنقضه:

«بل هو انتفاخ يتسع كل يوم ويتمدد رغم كل الوخزات . ألا يكفى تاريخ الحروب والعبودية والأحقاد لينتبه هذا العالم إلى المنحدر الذى ينجرف نحوه ويقع فيه.. وعليه فإن ما ينقصنا كثير جدا! وما لا نريده أن يحدث لنا هو أكثر! حدقّت فيه بفضول أكبر، مجرى تفكيرى كان قد تغيرّ نحو هاجس آخر يخصه هو تحديدا سألته:

«أمن أجل هذا تحتمي بهذا المعبد.. أتخاف من أن يلوّنك الزيف الذى يمتلىء به العالم فى الخارج فاختصرت الطريق نحو العزلة؟».

يستعيد نبرته الهادئة والودودة وصوته الخفيض:

«لا علاقة بين هذا وذاك. هنا أعيش جانبا خاصا اخترته لأنى أستريح فيه».

جذعه النحيل يتمايل وبهزّة من رأسى علقتُ بلهجة محملة بالدعابة:

«يبدو أن كل منا يهرب نحو وعيه أو راحته بطريقته الخاصة».

لم يجفل من تعليقى وإنما لامس كتفى فى رفق قائلا:

«ولم لا! إن أردت تسمية ذلك بالهروب فهو ممكن.. وهذا لايمنع أن يكون لى بدورى تسمية أخرى.. ولكن ليس ذلك هو المهم على أية حال.. إنها مجرد

تسميات.. إنما هنا بالنسبة لى يتاح لى أن أسمع ذاتى.. صوتى الداخلى، وأن أسمع صوت الطبيعة وصوت السكون وبقية المخلوقات».

قلت وقد اقتربت من استفزازه:

«والآخرون! ماذا عنهم؟ هل هم خارج هذا المكان مجرد جرذان تائهة تتملقّ صدفة وعرضية وجودها؟».

كانت تلك هى الجملة التى اعترضتُ بها انسياقه اللافت وراء صوته الداخلى، فاجئنى أن يبتسم ابتسامة صافية دون أن يستفزه المعنى المضمر فى اعتراضى:

«ليس الأمر بهذا السياق. إنما هو يتوقف على ما يريد كل منا معرفته والوصول إليه».

بدا عليه وهو يرفع رأسه ، ويتأمل السحب القاتمة فوقنا أنه يستعجل الدخول لمعبده . صافحته بود ورسمت على وجهى ابتسامة حاولت، قدر ما أستطيع، أن تماثل ابتسامته الصافية، والتى لم أشك لحظة أنها تنبع من داخله دون تصنّع، وبذات الدرجة من الصفاء. قلت كلمات أخيرة أودّعة بها وأنا أهمس «يحدث أحيانا أننا لانعرف مانريد أيها الأب!»، تململ قليلا. لم يشأ أن يترك تعليقى مؤرجحا، كفاصل أخير بيننا، فرد برصانة: «جيد أن ندرك أو أن تصل معرفتنا إلى استنتاج أننا لا نعرف!، هذا يعنى أننا بالمقابل قد قطعنا شوطا لابأس به فى المعرفة!». هل كان يحاول أن يحررنى من شعور عدم الرضى عن شىء، ربما، وربما ذلك مادفعه ليقول أشياء أخرى مضافة كأن «يسلك المرء حكمة الدهر فلا يتوه». حين علقت على كلامه ذاك بالتحديد باعتراض قلته «وهل يستل المرء حلمه وحكمته فى مكان منعزل.. الحلم يرتبط عادة بالحرية والانطلاق». رد مقاطعا لأول مرة بأن «حريته ترتبط بأسرار أخرى أولها المحبة». وبالمحبة افترقنا!.

الركام الترابى خارج الباب الكبير وسوره الممتّد على سعة البصر، يجعل الخطوات تبعثر الغبار وكأنها تنفضه من فوق الأرض . كنت على وشك أن

أتجه نحو السفح ، حين عدلت عن ذلك فجأة ، واتبعت طريقا دائريا يشبه استرسالي الموتور والمغلق. اقتربت من الظلال متحاشية وجها آخر للأفق، بدأ يستحوذ به، على الغيم المتكاثف وهو ينث رذاذه الأول. الظلال تعكس أطيافا آدمية متفرقة، تسرع فى خطاها قبل أن يتحول الرذاذ إلى انسكاب مائى كثيف.

كم من المشقة وضبط النفس يعوزنى للدخول فيما كنت فيه . هناك أشياء لاتشترى ولا تباع ، وقد يسوق أقرب الناس إليك تبريرات خادعة تبرر ما فعلوه «لقد غشّنى أبى بكلماته وخدعنى بأقواله وأقسم كذبا باسم قوته».

تلك هى كلمات «أننا» فى سفر سومر وهى تجاهد أن تنقذ قارب السماء! حين يهجر المرء مكانه تحطمه الأيادى.. هكذا ينداح فى الأحراش، فى رحلة تائهة، لكأنه يسمع نحيب الآفاق والخرائب والأرض مثلما تقول الأسطورة القديمة. السؤال لايزال حائرا!، خبا نور النهار واختلطت السحب الداكنة ببعضها. تقتحمنى الكلمات القديمة دون أن أستدعيها، إنما نحيب الآفاق والخرائب تلفنىّ من كل صوب. برفق أحاول أن أتخطىّ بعض حجارة متناثرة فى عرض الطريق. شىء ما ينبع من جهة لامرئية ويشمل كيانى كله.

شىء يكشف وجه الدهر، ويضع علامات مشتتّة على الطريق. الذكاء الشخصى وحده يعيد ترتيبها وتنظيمها، ليقرأ الإشارات المطلوبة. فى حالات التأجج القصوى، أو مباغتة خطر غير متوقع، يندفع ذلك المخزون الداخلى تلقائيا، يقترب من شعور مهلك بتوّقع الموت والغياب الكلى، فينهمر حضور الأشياء، ليسير فى الوقت مسيرة سلالات الضوء بكل أنواعها ومراسمها.. ولكن ماذا عن أولئك، الذين يعيشون الخطر كل لحظة ولايشعرون به.. وهل هي تدرك حقيقة ما يصادفها لتستنفر ذلك المخزون الداخلى، الذى يدرأ الخطر عنها، ويشير إلى العلامات الصحيحة.

«غير المتمرس وحده يتلعثم بضباب الممرات المقفلة فى الروح، متقاطعة مع أهازيج العواصف المتلولبة في قفص الذاكرة وتناسلها.. هنا ينكشف سرّ آخر.. الرحلة هى تلك التى فى الداخل ومرأى المشاهد الخارجية مجرد وهم يطفو على سطح العمق.. ومالم تتشظَّ القوقعة الخارجية فلن يصفو ويخرج ذلك الجوهر الداخلى العميق». هكذا قال الشيخ مبروك وهكذا سريعا وصل الطريق إلى مفترق آخر. إتجهت عشوائيا ومن غير تفكير نحو الجهة التى يشعّ منها المزيد من الأضواء والظلال. المغيب يحمل حلّته الحمراء والأرجوانية، ويلقى بها فى وجه امتدادات الأفق التى هى فى مرمى النظر. تثاقلت خطواتى قليلا قليلا، مثل صدفة بحرية خرجت من مائها أو حيوان بحرى يحتمى بقوقعته، يتمايل ويهتزّ فوق ساحل رملى رطب، يبحث عن أقرب ثقب ليختبىء فيه.


خط الجليد

«إي سيدتي.. إي، وردة السماء وسطرها اللامع.. أيتها الجميلة أننا».

«إي حبيبي وأخي دموزي، إنني أهيىء نفسي لك فقد اغتسلتُ بالماء والصابون وارتديتُ ثوب الملوكية.. ملوكية السماء وكحلتُ عيني وأرخيت شعري على كتفي وزينْت شفتي ولبستُ لك أساور الفضة وقلائد الخرز».

من سفر سومر

الحب :

أطلّ دموزى إلى داخل بيتها فرأى الفتيات يعزفن ويغنين وهى كالقمر بينهن وحين دخل دموزى غنت «أننا»:

ـ سيحضّر الناس فراشي ثم يكسونه بورد لونه مثل حجر الدورو وسآخذ حبيبى إلى هناك. سآخذ ثور السماء إلى هناك حيث يضع يده بيدى وقلبه جنب قلبى. أيها العريس العزيز على قلبى ما ألذ وصالك، حلو كالشهد لقد أسرتنى فها أنا أقف مرتعشة أمامك، أيها العريس ليتك أخذتنى إلى غرفة النوم. لقد أسرتنى فها أنا أقف مرتعشة أمامك. أيها العريس دعنى أقبلك فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد. وفى غرفة النوم المملوءة عطرا دعنى أتمتع بجمالك اللطيف، أيها الأسد دعنى أقبلك فقبلتى العزيزة أحلى من الشهد. أيها العريس لقد نلت منى رغبتك فأخبر أمى لكى تعطيك مالذ وطاب وأخبر أبى لكى يقدم لك الهدايا. إننى أعرف أين أدخل السرور إلى نفسك. أيها العريس، تعال ونم فى بيتنا حتى الفجر وأنت مادمت تحبنى أتوسل إليك أن أقبلك ياسيدى الإله، ياسيدى الحافظ، يا من يدخل السرور إلى قلب إنليل، أتوسل إليك أن أُقبلك.».

من سفر سومر

الشهوة:

(إلهة تمثلّ فى صورة امرأة حسناء، خدّاها مخضّبان بصبغة وردية زاهيــة، ألوانها مـصطنعــة، ونظراتهـا ســاهمــة تفـصح عن الطراوة والاسترخاء، وليس فى مظهرها احتشام. تبدو مستلقية على سرير من الأزهار، وفى يدها كرة زجاجية ذات جناحين) .

من الأساطير الإغريقية والرومانية


الدائرة المسحورة

(١)

بين «أنّنا» وتلك الأخرى المستلقية على سرير من الأزهار ، كان خط الجليد ، يتشقّق الى تعرجاته الجافلة ، وبزوايا انقسام حادة . ينفجر الماء ، بين ثنايا الشقوق ، وتطلّ البؤر المائية الملساء ، مذعنة ومأخوذة بخيوط النور ، وهي تتسرب نحو الأدغال الداخلية المعتمة .

جاء تماس النور الأول ، مع سطح البحيرات الجليدية الصلدة ، ليطلق نزوعا كامنا ويشي بمراوغة خاصة . حواس تقتفي في فلول الليل مناوشاته ، وتطل بأبجدية تلعثمت طويلا في الأقبية المظلمة ، ثم احتشدت بهدير تلقائي نافر ، لكنه مطوق مثلما الأصوات الأولى والهمهمات البوهيمية ، التي تجاهلت في حينه ، ألاعيب (إيروس) وهو ينثر للكائنات نفحة روحه ، فيدبّ بينها ذلك التجاذب الخفيّ كإله للاتحاد والمصاهرة .

في تلك الدائرة كما الحلم ، حيث تقود الخطوات ، الى المنطقة الجبلية المليئة بالغابات ، والمسوّرة بالأشجار السامقة ، يطلّ البحر على مبعدة من الجهة الغربية، ويضوّح المكان بخليط من عبقه وعبق النباتات . دثرنّي شعور غامض لم أدرك كنهه. منذ تركت الكاهن في عزلته ، تتراءى لي من بعيد شموعه مختلطة بنظرته الحانية ، رغم ذلك فان مشاعر مناقضة أفلتتني نحو الطريق ، مبتعدة عن جلال صمته ، بفعل ضجيج داخلي متصاعد ، يطفر برأسه نحو الخارج ، أو مثل قوقعة آن أوان تكسّرها بفعل الضغط المخزون .

من الذي وشى للقوقعة أن تفتح مسامها ، ليطلّ كائنها الرخوي الغريب ، ويطلق تفتّح الرغبات وهي تعلن شموسها من خلف الجلد الرابض في ظلام سكونه.

أخطو الآن نحو البحر خطوات مرحة وخفيفة ، أجمع بانبهار ، صدفه وقواقعه لأفتحها بفضول الاكتشاف المعاد ، ثم أرميها في لجّة الماء ، وكأني أدعو الكائنات الصغيرة التي أستخرجها ، لتنطلق خارج صدفاتها اللؤلؤية ، ولتغامر بالسباحة

فى فضاء الشمس، دون جلودها الواقية لأول مرة ، وبعد انقشاع سحبها الداكنة ، متبارزة مع المياه المتماوجة ومعلنة للأمواج مغامرتها القاتلة . تحرّك الضباب وانتشر فى الجانب الآخر من البحر . لم أكن متأكدة أنّى أرى جسد امرأة أخرى، يتحفز بعريه ليغرق فى الماء ، وينبثق مجددا مثل (فينوس) وقد تشكلت من زبد البحر ، وخلقت من صدفتها ، عالما إيروسيا فسيحا بقى مثارا لجدل الآلهة مدة طويلة .

فى البداية ظننتُ أنى أرى مجرد شبح أو طيف من خيال ، ولكن الأخرى كانت تعلن وجودها ليس بالصورة فقط وإنما بالصوت أيضا ، وهى تتبارز مع الماء فى شقاوة ظاهرة .

فى الجانب الآخر من الجبل أطلّت أعمدة التماثيل والمنحوتات ، كعلامات راسخة لزمن بائد . ومثل مدينة مصعوقة ، أخذت الخرائب والأطلال تحيط عزلتها المائية ، بإشارات مبهمة تستميل بها الشواطىء المترامية ، الى حيث تتكاثف الأشعة البرونزية ، خلف الغابات المرتفعة والمسيّجة للتماثيل والمنحوتات ، وتحيل التداخل العجيب بين البحر والغابة والآثار ، الى رقعة غامضة ، لكنها تبثّ نورانية خاصة ، يتواشج فيها وهج الأضواء المتعاكسة بوجوه المنحوتات القديمة .

كان الربيع فى أوله وجحافل السحب تتراكض خلف بعضها تاركة وراءها ثغرات سماوية فضيّة تزداد اتساعا مع كل هبة ريح .

فى مكان ما تستيقظ بقعة تشبه الحلم . أرى المرأة خارجة لتوها من الماء ، تقف برهة ، تتأمل الامتداد الربيعى المنعش ، بعد أن أكملت إطلالتها على عالم مختلف ، ودخلت فيه انزياحات البحر ، وكشفت ما بداخله من غموض . ها أنا أنطلق خلفها من جهة الشرق ، وأمشى حثيثا متوازية مع امتداد ظلها ، لقد دثّرت عريها البحرى بما كانت تلبسه ، حورية بحر تسير وئيدا نحو نقطة معلومة ، تحيطها موسيقى داخلية خاصة ، تتدافع من الأطراف النائية نحوها . فى تلك اللحظة شعرتُ برغبة متحفزة ، تسلخ عنى مراثيها ، وتدخل بى طرقات غريبة مرشوشة بعبق الزهور ، فى قصور مزخرفة بالزمرد والعقيق واللؤلؤ لكأنها تنبجس من الليالى الأسطورية المسحورة التى تمتلىء بها الذاكرة .

الأخرى تلهث وأنا ألهث خلفها ، غير مدركة الخيوط الخفيّة التى تشدّنى نحوها، وإنما مثل السحر يتمرأى العالم أمامى بخداعه البصرى .

كان وجهها نحو أطلال المدينة البائدة ، وأنت تقفين خلفها على بعد خطوات . بدت كنمر يشم عن بعد فريسته فيدخل استكانة مراوغة ، استكانة ما قبل التأهب للانقضاض . لسبب ما أدركتُ أن مناوشة مكتومة تدور بيننا . ربما حدستُ ذلك ، من حركة رأسها وصلابة عروق عنقها ، التى لم تهتز قط .

كان الهواء واقفا فى المسافة القصيرة بيننا . كل شيء كان محتملا ، لعلها جنية بحر خرافية ، لكنى لم أتوقع قط حركتها المراوغة التى أطلقتها من أعضائها ومن مطّ شفتيها والغمز المعربد فى عينيها . ببساطة كانت تسخر منى دونما سبب .

تجاسرتْ على التحديق فيَّ طويلا قبل أن تطلق كلماتها الملغزة : «فى البداية رفض (جوبيتر) وتمنّع ولكنه استجاب لتوسلاّت حبيبته فتجلّى لها بعد برهة وسط الصواعق والبروق واشتعلت النار فى القصر وهلكت (سيميليا) وسط اللهيب» .

عيونها الزرقاء ثاقبة ، تسبر بهما ذلك الارتباك الذى يبدو أنه كان واضحا ، وأنا أتخيلّ هلاك الحبيبة وسط اللهيب . لم أشأ أن أعلق ، فليس فيما قالته ما يدفع الى التعليق ، وإنما دعوتها بنظرة تنمّ عن فضول أن تواصل كلامها . تحركت نحوى وتحدثت بشحنة داخلية أليفة ومسترخية كمن يحادث صديقا قديما يراه ثانية :

«هكذا تقول الأسطورة الإغريقية ...»

وقبل أن تكمل كلامها شدتنّى من يدى ودعتنى الى حيث كنا فى مواجهة التماثيل الأثرية .

«انظرى هنا . هذا تمثال (باخوس) الذى نجا من الحريق بأعجوبة ثم عُمّد إلهاً للنبيذ واللذّة » .

أخذ الهواء يستعيد حركته التلقائية فى رئتى بعد أن كان محبوسا . سألتها سؤالا مقصودا فى سذاجته :

«أعُمدٌ هنا .. فى هذا المكان؟» .

أطلقت ضحكة صاخبة ومدوّية . أمالت رأسها نحوى وقالت باستخفاف :

«ما بك ؟ انه هنا مجرد تمثال بين عشرات التماثيل المنسوخة والمتناثرة كما ترين ..

استعاد صوتها بعض جديّته :

« كل مكان وضع الاغريق أو الرومان قدمهم فيه كرسّوا على أرضه آلهتهم المقدسة كرموز وشهود على حضارة قائمة ومهيمنة .. أما الأمور الأخرى فكان مكانها السماء لا الأرض » .

أشارت بيديها (اقتربى لترى أكثر) . اقتربت .

بدت حركاتى تستعيد ارتباكها السابق ، ومع ذلك كنت أتلمسُ قدمي باخوس ، وكأنى استدعى روحه من أسر الفناء .

يبدو أن روحه استجابت سريعا لندائى ، فما أن رفعْت رأسى حتى ارتطمت بذراعه الضخمة !

هذه المرة كانت ضحكتها هستيرية :

«لقد عمّدك أخيرا إله اللذة !» .

جفلتُ من ضحكتها والكلمات . داخلنى ذعر خفىٌ ، لكنها لم تعبأ وإنما سحبتنى إلى جانب آخر ، من مدينتها الزاخرة بالأطلال لتنساق وراء تفاصيلها ، وكأنها تتحدث بحماس عن أصدقاء عاشرتهم وعرفت كل شئ عنهم :

«باخوس هذا أصيب بالجنون فترة وهام على وجهه فى جزء كبير من العالم» .

وبشكل مباغت تماما تساءلت قائلة لى :

«ألا ترين تشابها بينكما يا إلهة الفلسفة ؟ .. آه وأى تناقض أيضا !»

أطلقت زفيرا طويلا ، لم تلتفت ولو لبرهة لتدرك مدى تبرمّى من سخريتها القاسية إنما اكتسبت ملامحها هيئة مرشد الآثار وجدّيته واعتنائه بنقل ما يعرفه :

«انظرى إلى هذا التمثال .. الرأس الأصلع والأنف المعقوف والقامة القصيرة والجسم البدين المترهل . هل تتصورين أنه (سيلين) مربّى باخوس ومعلمه . كان لا يفيق من سكره وحين يفيق فإنه يصبح رجلا حكيما للغاية .. قادرا مثلك أن يلقّن

تلميذه الإلهى دروسا فى الفلسفة ! هكذا هى القسمة عادلة .. أنت سيلين وأنا باخوس !»

أحسست بتماديها فى السخرية ، هممتُ على المغادرة ولكن قبلها دفعتُ بثقل الكلمات من فمى دفعة واحدة .

«بل أنت امرأة لا تمنحين الآخرين سوى نزقك وجنونك ... وإن كان باخوس هكذا، تصلحين أن تكونيه» .

وأضفت :

«ثم منذ متى أنت تعرفينني أو تعرفين عنى أى شئ حتى تقارنى بينى وبين تماثيلك هكذا ؟»

قريبة منّى حد الالتصاق . فى عيونها الزرقاء ما يشبه الغضبْ المكتوم ، الذى عدلت عنه ولم تطلقه لسبب ما . مالت نحوى وقالت بهدوء :

«أعرفك . أنت الغريبة التى كانت بصحبة الكاهن يوم أمس . كنت بالمعبد .. سمعت بعض حواركما ولم ترياني ... وحين سألت الكاهن بعد خروجكِ أخبرنى أنك مهتمّة بالأمور الفلسفية ولم يضف» .

عاودنى بعض الهدوء ، انزاح شئ من ثقل النفور ، لكنى رغم ذلك لم أفهم ما يحدث . من أى كهف انبثقت هذه المرأة . متيقنة أنى لم أرها فى المعبد فكيف إذا رأتنى هى وسمعتنى ! . يلائمها أن تكون إحدى شخوص الليالى العتيقة التى طاردت فيها امرأة أحدهم فى حلمه ، فلم تمنحه إلا عاطفة كريهة وقبلات مميتة . ماتزال تتأملنى والابتسامة الساخرة لم تفارقها . ربما ذلك ما استفزنى لأقول :

«وافرضى أنك رأيتنى وسمعت بعض كلامى ... أيكفى ذلك لتتهكّمى هكذا ؟»

ما أدهشنى أنها أيضا لم تكترث وإنما بسمت المتحدىّ أغفلت عن استفزازها، أشارت بأصبعها نحوى وبذات اللهجة المستفزة واصلت :

«لا تتساقى كثيرا وراء الأفكار . ذلك لن يسعفك حتى فى إدراك حدود ما تحت قدميك ! بدل ذلك ما رأيك أن أميط بعض اللثام عن ما يثير فضولك نحوى . ألم تتبعينى ؟»

قلت بلا مبالاة :

«لم يعد يهمنى أن أعرف أى شئ عنك» .

قالت بثقة :

«بل يهمك . أنا أيتها المتأملة جُبلتُ من صلصال البهاء والعواطف الوحشية والجمال الذى يفترس ما يراه .....»

لوت شفتيها ودحرجت زرقة عيونها على كل جسدى وأضافت :

«ربما تملكين مثلى بعض المواهب ولكنك لا تحسنين أبدا التصرف بما وهبتك إياه الطبيعة مثلما تحسنين الكلام والتنظير .. أنت فى نظرى مجرد امرأة من زجاج .. يشفّ عما بداخله ولكن هذا الداخل غير قادر على القفز خارج حاجزه الزجاجى !» .

صاعقة ! أنّى وكيف لها أن تشرح طبيعتى الداخلية هكذا ؟ إنتابنى ما يشبه الصقيع . هناك دائما ما يقفز فوق الحدس ويخلط الحواس . ولكى لا أعطيها فرصة نصر مجانى بفعل مباغتتها الناجحة قررت أن لا أنساق وراء استفزازها لى .

قلت باقتضاب ولا مبالاة :

«ثم ماذا أيتها المرأة التى تفترس ما تراه !»

لقد أدركت دافعى . أرادت أن تكون أكثر إلغازا فسألتنى دون مقدمات :

«هل لك مثلا أن تحدثينى عما تعنيه الشهوة لك !»

جاريتها فى السخرية والحوار غير المترابط :

«بل حدثينى أنت عما يعنيه الحب لك ؟»

تأرجحت أمامى كمن سيرمى بورقة لعب يثق أنها رابحة :

«الحب .. آه نعم .. الحب يا عزيزتى يشترط وجود اثنين وأنا لم أجد بعد الذى يستحق عواطفى .. هكذا ببساطة !»

تأرجحت مثلها ساخرة وأطلقت نحوها ما اعتقدت أنه استفزاز :

«إنما الشهوة وجدتِ لها الكثيرين .. أليس كذلك ؟»

ردت بلهجة مستهترة :

«أنت تدركين مثلما أتوقع أنى لا أريد أن أختلف عن ناموسهم فى هذا .. هؤلاء الكثيرون» .

توالت إشاراتها الساخرة . لم أرغب فى الانسياق وراء أسلوبها فى الحديث أكثر . مثل المدينة المتحجرة التى نقف فوق أرضها ، وتلك المدينة الأخرى التى حولّت سكانها إلى حجارة ، وسط ثرواتهم وبذخهم ومجونهم ، أطلّت من زرقة عينيها نظرة متجمدة وعابثة تنتمى إلى عالم وعيون التماثيل المحيطة بها . هدأت قليلاً . عرفت أنها ذات أصول أوروبية مختلطة ، متعددة السلالات ، تنتمى إلى تماثيلها مع حسبان ما أضافه الوقت لهم ، إضافات محتملة ومتضاربة بعدد مئات بل وآلاف السنوات التى مرت .

فى الأرض الحجرية كانت عينا «باخوس» تبتسمان بجلال الآلهة القديمة . الصور تتناثر من كل صوب وحدب كما فى مرآة أثرية قديمة فيما الملك الحكيم يناجيه :

«إيه يا زَهو الغرور .. كل شئ فراغ وتفاهه !»

السماء يعاودها اكتساح السحب الثقيلة ، آخذة أشكالا ضخمة ومتمازجة ، أبت إلاّ أن تتماهى مع المدينة الحجرية ، بأطلالها وظلالها وكانت فى تمازجها تفلت كل لحظة مجموعة أخرى من تماثيلها الغمامية .

كانت الأخرى جافلة من مرأى الغيوم . مغيب آخر ينداح بتؤده بين رذاذ المطر المستمر نحو السفح . البحر يطلق أمواجه ، وهى لا تزال فى وجومها تهندس بين التماثيل والغيوم المتماهية معها فى هياكل ورسوم ضبابية متحركة .

(٢)

«كان الموكب الذى يضمّ كل الأجناس .. كاهـنات وحوريات وساتيرات ورعاة وراعيات ، يحملون عصا (الثيرس) ملفـوفة بأوراق الأشجار والكرم وأكاليل اللبلاب وكؤوس العـنب وعناقيده .. يبدأ باخوس المسيرة فيتبعه الموكب كله والجميع يطلقون صرخات ويعـزفون على آلات موسيقية تصدر عنها أصوات مزعجة» .

مدينة الأطلال والمتاهات تدّب فيها الحياة ، والمجهول ينفلت من عمق تاريخه ، متوهجا بصيحات الباخوسيات الجدد . باخوسيات العصر ، حيث المرح والنشوة ، يأخذان شكل الأعياد المستعادة والمفتوحة لكل النزوات ، بما فيها تلك الإباحية التى تحولّت فـيها النساء إلى جسد الأسطورة القديمة . «بمواقف وصـرخات ووثبات غير منتظمة : أعينهن زائغة ، وأصواتهن متـهدّدة وشعورهن مرسلة متشعثة على أكتافهن العارية» .

إنسلت «كاترينا» وهذا هو اسمها ، نحو الموكب الصاخب زائغة العينين مثلهم جميعا ، ترمى قطع ثيابها قطعة قطعة ، وتعانق أول من صادفها فى الموكب ، ليمرحا معا بأجيج النيران الملتهبة ، والتى تم تحضيرها من قبل ، فى الأوانى المنحوتة ، ثم وُزعت على الأسيجة التى تحيط بالدائرة المسحورة . ينعكس لهب النيران على الوجـوه كعادته ، ويكسب الأجساد مزيدا من التأجج ، ويفلت الحواس نحو جـمرتها الكامنة . أجيـج آخـر يتصاعد منفـلتا هذه المرة من براميل النبيذ ، التى كلما فرغ أحدها ، استبدل بشـكل سريع ومتواتر، لكى لا يفسد الأمر طقس الرقص الجنونى . صور العناق الساخن ، تتوالى ، وتفحّ الأفواه المختلطة على إيقاع القيثارة والمزامير والآلات الموسيقية الصاخبة . أصوات عنيفة، متمازجة ، ومكملّة لايقاعات أخرى من الضحك والهياج ، لا تقل عنفا وصخبا .

كاترينا تغمز لى بعينيها من وسط الموكب ، لا تتمالك نفسها عبر قوس الألوان الباذخـة ، وكأنها واقعة فى نشوتها حتى الثمالة . قبل بدء موكب المهرجان ، لم

أكد أصدق ما قالته «نحن الباخوسيين الجدد نكسب المدينة الحجرية كل الألق ونملؤها بشهوات لا حدود لها» .

ظللتُ سارحة لبرهة ، غير قادرة على اتخاذ قرار ، كأني منطفئة خلف الزجاج وربما مثلما قالت هي ، غير قادرة على تخطيّ الحاجز الزجاجي أو القفزَ من داخله . مطارق الضحكات المنطلقة تجعلني أبدو كأرض يابسة بينهم ، زحفها لا يتوقف وليس له حدود ، مثل شهواتهم التي ترتسم على حواف الأرض اليابسة ، أنهرا محرّمة وبحارا اختارت بحّاريها حسب رموزها وإشاراتها الخاصة . كنت أمسك بصولجاني الخشبي ، وأستوي على المقعد داخل القفص الزجاجي وقد أخذ يزداد سماكة وشفافية معا ، كلما انفلت الآخرون في إبحارهم الباخوسي . شرق وغرب ، الأرض تضيق . شمال وجنوب ، الرياح تهّب . أتخيل مرآة كبيرة تماثل مرآة الزمن . يطّل منه وجه قاس ويصرخ مندهشا وربما موبخاً : «كيف يحدث أن يكون بداخلك كل هذا الحشد ؟» لم أفعل سوى أن أسدلت ستارة كثيفة على المرآة ، وحين استدرت لأبتعد وجدت كاترينا تنظر اليّ ، ولم أعرف ، لحظتئذ ، إن كانت تبتسم ساخرة كعادتها من نظرياتي أم تكتم حالة بكاء . أخاف ابتساماتها وسأخاف أكثر حزنها . كنت كمن فرغ لتوّه من هواجسه وارتاح ، وربما شعر أن الوقت لم يكن صالحا لاستطراد آخر ... هل من حدّ فاصل بين بوح وبوح ؟ أردت أن أختصر الصوت . أن أسكب الماء فوق جمرة النار ... أطفئها إن استطعت وأخلص منها حتى لا تبقى جذوتها تلاحقني . حين يتبدد الدخان ستتبدد معه أسبابه .

لوحّت كاترينا بيديها قبل أن تبتعد بصوتها الثمل وتمايلاتها المتعرجة :

«لماذا تسدلين الستّار على كل تلك الوجوه . أليس من الأجدى أن تخرجيها إليك لتعرفيها وتحاوريها !»

ثم إذا بفاترينة ضخمة .. بل ما لا يُحصى من الفاترينات اللامعة ، وجميعها تجلس خلفها نساء عاريات يحملن وجه كاترينا بتشكلاته المتنوعة . لم أقل شيئا وإنما اتجهت نحو الضفة الأخرى كعادتي .

اليوتوبيا :

تمر القرون الآن مديدة وطويلة
تتكاثر الحروف والكلمات ..
يتغير كل شئ
إلا لون الضباب الذى يسربل النساء

(٣)

بدا الأمر كالتالى :

أرض قاحلة هرقت براحتها فى يوم مضى . الدائرة المسحورة تودّع آخر أنفاسها ، مستسلمة لسبات آخر الليل وأول النهار . عيون الليل مرهقة بالساعات، التى أنهكتها فى خضم الحفل الصاخب . برك متشظية ومتناثرة تخلع رداء الليل، ليتضح مع بدايات الضوء المتسلل ، مدى ما كانت ترزح تحته من تعب ، تمازج مع مطر كثيف هطل فى آخر ساعة ، وهو على أية حال قد أسهم فى تفريق الحشد الذى لم يكن على استعداد للرحيل إلا بأثر استثنائى ، غاضب ومباغت . بينما الريح جاءت لتمسّد الأرض وتجففها ، متكاتفة مع شمس دافئة ، ترمى بدفئها فى ثنايا البرك المتناثرة تلك لتبدو وكأنها تغسل وجه الأرض من ركام وحلها أو وجه امرأة من بقايا أصباغها الليلية .

فى الجانب الآخر :

كاترينا تتمدد على إحدى المصاطب شبه منسيّة ، وما إن تفيق قليلا ، حتى تترجّل بعيدا عن رماد الدائرة وقد ودعّت لهيبها فى الليلة السابقة . جرّت قدميها بثقل الحالة التى كانت فيها ، لتخور قواها مجددا على سفح جبل قريب ، يدغدغها هواء البحر الجاف فتدخل فى هدأة نستها منذ مدة طويلة . الأمواج الناعسة تلامس طرف الجبل ، وترتطم بجانب عرضى من جذعها الممدّد فتشعر أنها تنام على سرير مائى يحفّزها على مزيد من الاسترخاء.

كان الارتطام الأول قد نقلها إلى داخل غرفة مسحورة ومسكونة بالأضواء الخافتة فى كل الزوايا . هناك وجدت نفسها ، فى أحضان عدد لا يحصى من كائنات لزجة لم تتبيّن أشكالها . الإحساس باللزوجة جعلها تفيق لوهلة خاطفة ، ثم تعاود إغماضة الأزرق بين جفونها المقفلة فى استرخائها ، فتجد نفسها هذه المرة تنحدر إلى أرض غريبة . فى تلك الأرض اندهشت من وجوده ، شاب بهىّ منشغل بمناجاة خاصة . اقتربت منه لتتأكد أنه هو ، وما إن فعلت حتى اخترقت محيطه الساكن وأعلنت فى وجهه دهشتها :

«بحثت عـنك في كل مكـان حتى أعيـاني البحـث . أين كنت طوال تلك المدة ؟»

لم يرد ولم يرفع رأسه نحوها . كان مسترسلا بوجهه الشاحب في السكون . زعقت بصوت مضطرب بعد أن استفزتها لا مبالاته : «أين كنت ؟» . اعترك ألوان الطبيعة ، فاختار منها لوجهه ، ما يناسب عـزوفه عما حوله ، ظلّ صامتا وكأنه لا يراها أو يسـمعها . أما هي فيدوّى في أعماقها صوت الوحشة ، يلفحها هواء حار ، لا تجد أمامها إلا أن تهدأ قليلا وتقول مروضةً إياه : «ما بك .. لماذا لا ترد .. قل شيئا .. أي شئ» . فراشة أضاعت حقلها . اقتربت بنوري منهما . استدارت هي بعينيها المعتمتين ، بدتا وكأن زرقتهما استحالت إلى لون داكن . قلت لها «ما كل هذا الحزن على وجهك» . زعقت بضجر : «بالله عليك .. اتركيني وشأني» . لكني لم أفعل . وقفت متسمّرة وهي تخلع عن نفسها رداء العبث والسخرية ، وتبدو كشجرة تذوى في صحراء العطش ، وتقاوم الصهد أكثر مما يحتمل جسدها المنهك . لم تُعرني التفاتاً وبحركات متواثبة اتجهت مرّة أخرى للرجل الصامت ، تهتّز أمامه بحنق ، وتمسك كتفيه تهزّهما بعصبية ، رغم ذلك لم يخرج من وجومه ولا للحظة ، مجرد تمثال أثيري متشح بعري المكان . بسخطها كانت تعلن عن جرح أنثوى غائر ، تقلته نحو العراء . بدا أنها تكتّمت على جرحها طويلا ، فشاء أن ينفلت خارج إرادتها ، مجازفة بكبرياء مخدوشة تطفو على السطح في التّو . الأحجار الضخمة المتناثرة ، شواهد قبور تؤكد وحشتها . واجهت قمة الجبل المثبط بتنازعات السحب فوقه وهي تظهر وجها عابسا .

شئ ما يلوح في الأفق ينذر بالفراغ القادم ، لم تستطع أن تقاوم حنينها إليه ، فوقعت كلية في شرك البوح وإغوائه متجاهلة عنادها . مسحت على شعره الفاحم برقة مفاجئة وهي تغالب ارتجافات داخلية لم تهدأ بعد .

«ألا تـرى . كنت أحـبك بقـوة وحين تخلـيت عنّي لم يكن أمـامي الا طريق واحد اتبعـته ... طريق النسـيان ... ومع ذلك لم أنس ولا لـبرهة واحـدة» .

من الواضـح أنه عاقد العزم على التجاهل . كلماتها المتوسلة لم تثبط من عزيمته ، وفيـما هـيَ تتـوغل أكثـر في الهذيان ، أشـاح بوجهه ، فما كان إلا

أن انداحت نحوه تهرق روحا عزيزة ، وهو بعد تمثال من حجر . الهضبة التى احتوت شرك بوحها ، تواجه لوحة البحر من بعيد ، وتشتبك مع كائنات متضائلة بأثر البعد ، تاركة خلفها ظلالا قاتمة . كنت أجلس فوق حجر ضخم وأملس . أستثنى من تفكيرى أى شعور بالشماتة ، بل كنت منجرفة نحوها فى حالة انهصار ألم مضن ، ولم يعجبنى أن أراها فى تلك الحالة . السحب الداكنة تتحرك فوقنا منذرة بانهطال مائى آخر . شاحبة هى الأخرى ، إلى حد الذهول ، متماهية فى شحوبها مع المزيج الضبابى الذى يتمدد فوقها . بحركة عشوائية تغالب بها يأسا أخيرا قالت وهى تتفرسه وتتمعن فى صمته : «كنت أنانيا .. ما إن شعرت أنى أحبك ملء القلب والجسد حتى تركتنى ورحلت دون كلمة ... ألا ترى الآن كم كنت قاسيا !». شعرها الكستنائى يتدافع خصلا على وجهه ، تستنفر فى ذاتها بقايا طاقة ، جمرات تنبئ عن احتراق سابق لم يبق منه إلا نثار الرماد .

«كنت تحاججنى كعادتك ولم أفهم . من وجهة نظرك الحب حالة وجدانية مجردّة وأنا لم أكن أريد أن أدخل حالة تبّتلك العذرى هذا . أردتك كلكّ لى .. روحا وجسدا» .

حاصره مكمن السراب فى علاقتهما ، أضافت :

«أما طبيعتك الألوهية هذه فهى فى نظرى طبيعة ناقصة .. مشوّهة .. أتسمعنى !!» .

الفراغ يتكاثف . حرير الكلمات وصخبها ، تنداح انداحاً كلياً ، نحو فردوس مفقود ، لا يريد الآخر الدخول فيه رغم كل محاولاتها . لم أشأ إرباكها . تنتابها حالة بكاء مطوق بالغياب ، غيابه هو وانفلاته من عالمهما المشترك . لقد هرقت أمام نفسها ، وأمامنا ، آخر ما تبقى لها من مكابرة جريحة . صمتت ليتلاشى فى الوقت المشحون كل أثر لصخبها السابق وكأن شيئاً لم يكن . عاد اللون الرمادى يتحرك ويتخلخل من داخله إثر ملاحقة ريح خفيفة هبّت من الناحية الشمالية . بدت أكثر هدوءاً ، استعاد الرماد شيئاً من حلتّه البيضاء السابقة ، وتمازج بأشعة مرتبكة ، أطلت على استحياء وسقطت على وجهها بتباطؤ . هذه المرة لم تكن توجّه

كلامـها إلى أحد وإنما إلى نفسهـا ، وربما الى الفضـاء الملبّد ، حيث المسـاحات اللانهائية تثير فيها وخز وحشة مضافة ، الذكريات تتداعى أمامها وتطفر بما اكتشفته فيها من وهم . رقّ صوتها وهى تقول : «هل تذكر قبلتنا الأولى . بالطبع تذكـر ... كـانت الأولى والأخـيـرة مـعـاً . صـدقّنى .. حـينهـا شـعـرت أن الروح بمستطاعها أن تدخل أفقها الأعمق من خلال تعاشق جسدين مغرمين ببعضهما .. لا تنكر .. هزّك ذلك الشعور الروحى غير المتوقع .. فكيف إذا كان قد تحقّق من خـلال تماس كلى لم تعتـده مع أية امـرأة . قل لى ... هل تزلزلت أفكارك حـينهـا وأنت تصـارع من خلال جسدينا يقينيتك الجاهزة ... المرأة مجرد كائن معجون بالخطيئة فكيف يجوز أن ترتحل بها ومعها فى الوجد الخالص ... ولكى تسلم روحك من الرجس الشيطانى كان عليك أن تحارب هذه الخطيئة وتحاربنى بكل ما أوتيت من قوة ... قل لى ... ألم يكن الأمر بالنسبة لك هكذا .. تكلم» .

ولكنه لم يتكلم . شدّته بيد خفيّة نحو عراء الداخل فيما الهواء المبلّل ، يتخلّل مسامه وطنين قوى يفلت من كلماتها نحوه .. أحسّ أنه فقد حركته ، كان مقيداً بسلاسل من هواء ويرزح تحت ثقل التساؤلات . ترقرقت عيونه قليلاً ، محدقاً فى الفراغ الذى خلّفته وراءها إلى حد أن شعر أن العراء حوله يتلّوى ، والبرك الموحلة أمامه ، ترتّج مسايرة ارتجاجاته الهوائية داخل صدره وهو يحبسها .

كانت هى ما تزال تحدّق فيه ، وقد يئست من جرّه للاستجابة ، ولتستسلم مرة بعد أخرى لصوت داخلى على مرأى ومسمع منه ، ملونّة يأسها بابتسـامة تخللّها شىء من التهكم :

«هكذا أنت ... كمـا أنت دائمـاً . مبـحـر فى شـرودك حتى النهاية . رغم ذلك أحببتك ....» وقد تذكرت سؤالاً كاد يفلت منها :

«قل لى .. والآن هل قطعت الشوط كله بعد هروبك من رغبـاتك المحرمة ؟ هل تمكنت من إطفائها نهائياً لتثبت صفاء داخلك ....» . هزت رأسهاً وأشاحت عنه : «ربما مـا حـدث هو الأفضل لنا . نحن مـختلفـان رغم الحب الذى يجـمعنا أو قل الحب الذى انتهى ليكون من جانبى فقط . أنت من جليد وأنا من نار . أنت تطفىء كل مـاهو حـمـيمى ودافىء بيننا وأنا ليس بيدى سـوى النبش فى التـراب ... أى

تراب ... بحثاً عن جذوة مختبئة ... لماذا كنت تلومني إذاً ... ها ... ليس من حقك أن تلومني أبداً ...» . وبحركة غير متوقعة قفزت في الغدير المائي المتسلل بين صخرتين ضخمتين ، انغمرت بالبلل وتقلبت بعدها على الطين المحاذي له ، تتدحرج فيه وبعيداً عنه . صرخت بملء فمها :

«أنا من ماء وتراب ... من طين ... هل تفهم؟» . أخيراً تململ بعض الشيء تحت حاجزه الكثيف ، وخرج وجهه من الشحوب الذي كان له ، ليستحيل إلى قطعة من جمر . أخذ التململ يصطخب في سكون وجهه ، ودون إرادة منه تنزل من حدقتيه دمعة دافقة لم ترها الأخرى مع الأسف . هيئته الثابتة جعلها توقن أن لا شيء يحركه ، وأنه سيبقى ذائباً في سباته العميق ، لذلك لم تلتفت إليه ، بل واصلت بصوت أقوى استفزازها «أما أنت فكائن من نور ... ملاك يريد أن يتنكر لبشريته الطارئة ... وشتأن بين النور والتراب» . يخالجها الضحك وهي ترمي بمعجمه في وجهه :

«ولكن يجب أن تدرك أيها البائس بأنه دون الماء والطين لن تثمر طبيعتك أية حياة . منذ أن اختلطت بتلك الجماعة الغريبة وأنت تختبيء خلف جلدك ... خلف درعك الواقي ... وربما خلف وردتهم وصليبهم أو أدعية الهنود المقدسة ... أخذت تبحث في تعاليم الفراعنة وتنسى تعاليم وجودك .....» .

تعاود غطسها في الغدير ، تمتزج بانعكاسات السحب الداكنة على الماء . تلقي برذاذه في نتوءات الصخور الصلدة ، موغلة في عزف قيثارتها الاستثنائية ، وكأنها تدخل وحدها أدغال حزنها الغامر ، وترتحل فيها ارتحالاتها الموجعة . تقلصت رقبته وانسلّ خيط متلألىء من الماء نحو شعيرات صدره المكتظة . عيونه الزائغة ، تشهد على احتداماته الداخلية ، وتنحدر إلى حافة الغدير ، لتمسح جذعها المبتل بنظرة متوسلة ، وكأنه يطلب منها أن تنهي لعبتها الكلامية التي طالت . «هل تعرف ... الفارق بيني وبينك أني من ماء وطين أتوق للنور لكي أجفف بللي ... وبعد كل احتدام في رغباتي أشعر بحاجة إلى نورانيتك ... أما أنت فترتحل دوماً نحو الجهة المعاكسة وقد يأتي يوم تنزلق فيه من عالمك النوراني نحو الطين لأنه جزء حقيقي منك مهما تنكرت له . ولكن متى سيحدث ذلك ؟» .

العراء يمتلىء بالكلمات ... طين وماء ونور ... شجرة اجتثت من طينها ، فيما هي لا تزال عالقة بشروش جذورها . تقافزت نحو الجهة البعيدة ، تركته دون أن تلتفت إليه أو تقترب منه لمرة واحدة أخيرة . طيفها يتضاءل في السكون الذي خلفته بعد هدير صخبها ، وما إن ابتعدت تماما واختفت ، حتى نزع الرجل عن نفسه رداء الحجارة ، وخطا خطوات ثقيلة في طريق معاكس . لم تبدر منه أية إلتفاته ، تواكبه ريح خفيفة محاذياً الغدير المائي حيث كانت الأخرى تبلبط فيه قبل قليل .

كان يتلاشى بالتدريج ، مكشوفاً للفضاء ، متباطىء الخطوات كأنه قد خرج لتوّه من امتحان صعب . فوق صخر ناتىء وقف غراب يطلق نعيقه ، مثلما مشهد مسرحي يتم اختتامه ، وأمام حافة بركة ضحلة وقف قليلاً ، وفجأة انحنى بجذعه نحو الجهة المعتمة ، ذائباً في ظلامها ، الذي تسلّل إلى المكان دون مقدمات .

(٤)

الآن وقد غابا معاً كنت أمشي وحيدة على سفح المنحدر الصخرى . تتخللنى فكرة طالما قفزت إلى ذهنى فى أوقات بعينها ... أن هذا العالم به كمّ لا يصدق من الجنون . كاترينا مجرد رقم بين ملايين الأرقام ، ابتكرت عبثها الخاص ، واستهتارها بتلك الحقيقة ، متشبثة بما تصورت أنه يقيها من صلفه وخوائه . إنها لا تكاد ترى المأزق العام . فى جموحها الساخر ، ما ينبىء عن مكنون داخلى ، يصعب الوصول إليه وكشفه .

هل تمزقها لمجرد البحث عن سكينة داخلية لم تصل إليها .

أحسستُ أن في هذه النقطة تحديداً ربما كنا متشابهتين ... كلنا متشابهون ، نحثّ السير نحو ما نسميه بسلامنا الداخلى فلا نجده ، وكنا نعتقد أنه على مرمى حجر منا .

كنا جميعنا ، نحن الثلاثة ، مثل الذى علق الطين بروحه ، ولم يجد الماء ، لما تستوجبه طقوس الاغتسال . بدا الأمر مشوشاً ومضطرباً . دائرة العراك ترمى شظاياها الخارجية نحو الداخل ، هناك حيث تتمركز البؤرة الناريّة المصطخبة وتتماوج لتعبث ببقايا هدوء ، كريح قوية تجرف معها ثمار حصاد موسمى وتبدّده... لكنه هذه المرة حصاد العمر .

ذكاؤها وحده ، قد يمتلك قدرة التبرير لانسياقاتها اللامبالية ، فتلبسه لباس المنطق . كنت أنظر إليها طوال الوقت وأرى فيها ، أكثر من أى شىء آخر ، جرأة أن تكون فى مستوى قدرها ، حتى لو بدت لمن يراقبها فى حالة تدعو للرثاء . عموما ذلك ما كان يخالجنى منذ أن رأيتها أول مرة ، ومعه أدركت ، أنى لن أكون قادرة قط على أن أكون فى موقعها العبثى ، رغم إدراكي ويقينى بعبثية كل ماحولنا ، لا لسبب الا تردّد داخلى ، وذعر يسيطر حين أفكر فى إمكانية أن أجسدّ القلق بالشكل الذى يحاصرنى به وتحاصرنى هواجسه ، دون خوف من حكم الآخر أو توقّف أمامه ... حين يكون ذلك الآخر ، هو كل الآخرين معاً ...

خلاصة التراكم والتشابك والنفاق العام . «إنه العالم الذى لا يعرف إيقاف السير المجنون لتحولاته» أحدهم قال ذلك ، وأضيف أنه العالم الذى لا يريد قاطنوه إيقاف جنونهم، بل هم يستمتعون به كما هو ، فى مسار مستمر من التدمير الذاتي . الحب مثلاً فى حياة كاترينا ، هو نوع من ذلك المسار ، هى تدرك بشكل أو بآخر أن الارتباط العاطفى ، يفترض وجهين للعملة ، أما أن يندفع أحد الطرفين نحو جنونه الخاص ، أو غايته الخاصة فى الآخر ، دون رغبته ، فذلك ما يجعل المعادلة فى حالة اختلال . يتحوّل الأمر بالنسبة للطرف المندفع الى نوع من العقاب الأحمق ، والاستمرار فيه يدفع إلى ما يشبه فعل الانتحار الذاتيّ . الشاب يهرب من نفسه الى الفكرة المتسامية ، وهى تهرب من ذاتها إليه ، لتؤكد بشكل ملتو أن الرجل للفكرة والمرأة للرجل مثلما يقال عادة ! ذهاب الى الدائرة الضبابية ، كل على طريقته ، وهو حين يأبى الاعتراف بذلك ، فلأنه يحاول أن يسبغ على دائرته هالة مقدسة ، يجمّل بها عذابه وتشظيه . ما الذى دعاه إذاً وهو فى صمته ، أن يذرف دموعه ... هل انتبه حينها ، لخواء دائرته المغلقة ، رغم كل المبررات لانسياقه وراءها ، أم من أجلها ، وهى لم تره ، أم أنه ندب داخلى وسط حيرته ، فى عراء الصخب والتوبيخ الذى أهرقته الأخرى بكرم جنونى . رغم ذلك ، كنت أرى فيها براءة لا مثيل لها ، وسط غوغائيتها وانكشافها على الخطيئة ، كما حدّدها الآخرون ، لكأنها تستدعي لغة المجهول فى نبض الكون ، ذلك المجهول الذى يأتى اليها ، ويقول بوقاره الخارق : إننا لسنا كائنات حرة كما نعتقد ، مسيّرون حتى فى تفاهتنا .. حتى فى لا مبالاتنا ... تلك اللامبالاة ، تصبح مجرد عقاب آخر ، وربما تشبوهاً آخر ، نضطر إلى حمله ، فوق أكتافنا ونسير به ، مثل الذى يحمل كفنه معه نحو شبر من تراب ، ويصرخ فى داخله ليمنعه أحدهم ، فلا يجد من يعبأ به ... فالرد : «دمر نفسك كما تشاء ولا تبال . فذلك شأنك وحدك مهما كان حجم عذابك» . ذلك التوتر المشحون ، وهو يدفع حامله الى مسارب مرتبكة وساخطة وعبثية ، هو ذاته ما يجعل الآخرين لا ينظرون الى الأمر الا من خارجه ... ببساطة يجعلونه خطيئة . الحكم الأخلاقى دائماً جاهز ، وليس هناك ما يدفع لمعرفة السبب ، ولا أحد يلتفت الى كيف تتبع الخطايا ، أهى عشوائية ،

لتعلن فقط عن عدم اتزان الذى قام بها ، أم أن العالم كله يعيش أبدية فوضاه ولا اتزانه وخطيئته منذ أول الوجود . ماهى الخطيئة ؟ وهل من سمو أو انحدار ، حين يكون مجرد ضحية ، يجد أمامه طرقاً متضاربة ، لا يؤدى أى منها الى الهدف . وكل بطريقته يسمو أو ينحدر ، وهو يدرك أن الأمر لا يتعدّى كونهم جميعاً ، وبدون استثناء كبير ، يغالبون بؤساً مقرراً ، وعليهم البحث عن نقيضه ، بشرط عدم الوقوع فى الخطأ أو الخطيئة ، سيان ، ولا يتحقق شيء لأنه حينها تتساوى الأضداد بتعاليم المنطق والأخلاق ، حيث العالم كله يدخل انحداره المروّع وعلى مرأى من الجميع .

هل من كائن دون براءة فى دائرة هذا الإنحدار العام ! وحدهم ، الذين لا يداخلهم الشكّ فى ذواتهم ، وفى العالم حولهم ، فقدوا البراءة ، واكتفوا ببعض تعاليم جاهزة ، دون أن يفهموا معناها أيضاً . لقد سجّل البعض حكمته «فاذا كانت تفاهة كل شيء قدرنا فلا ينبغى أن نحملها كعاهة بل أن نعرف كيف نستمتع بها» . ولكن ماذا عن أولئك الذين يبحثون عن براءتهم ، دون أن يدركوا أنها لصق جلودهم كسمة بشرية ، مرتبكة ، ومادام القدر يسيّر الجميع منهم فهم محض أبرياء من لوثة الخطايا ، وحدها الآلهة موشومة بالطهر لأنها دون ارتباك إنسانى ، وعلى علم بكل شيء .

أنحدر نحو الشاطيء . لم أعرف كم مضى من الوقت وأنا أمشى هكذا .. ماذا يهم ، فأنا لا أملك إنجازاً استثنائياً ، يباغت ذلك الارتباك الصاعق ، ولا أحد غيرى يملكه ، كل ما نستطيعه أن نستمتع بما نحن فيه مهما كان صاعقاً .

أمسح البحر وامتداده بنظرة خاطفة ، ألوان كثيفة تتبعثر ، يخفيها الشحوب الضارب فى عروق السماء وخلاياها .

بنظرة أخرى ، أرى ذلك الاشتباك المتواطيء بين البحر ولون الأفق الرمادى بسحبه الداكنة . لم أتوقع أن أراها تجلس فى ذات المكان الذى شاهدتها فيه فى المرة الأولى ... دون عرى وإنما بكامل هندامها على الشاطيء . وأنا أقترب منها رأيت وجهها غارقاً فى اللجة العميقة ، ظهرها وحده يرمقنى بحزن . تدّور بعض القواقع بين أصابعها ولا تفتحها . أدهشنى أن يستولىّ علىّ حزنها ، مضافاً إليه

كونى لا أملك حجة لمواساتها ، اللهم إلا بضع كلمات ربما لا تريد أن تسمعها ، ولن تغير فى الأمر شيئاً . كنت عاجزة ، إنها الحالة التى تقترب من بكاء العالم على نفسه . ظهرها الداخل في الضوء الرمادى يحركنى ويبدد صمتى .

قلت لها وأنا أحاذيها : «لقد اختلست أحد وجوهى . لم يكن بإمكانى أن أفهمك أكثر لولم أشاهد ما حدث معك اليوم» ظلّت كما هى من غير أية حركة . «لست مجرد امرأة ، وإنما أحسست أن اضطراب العالم كله مستكين بداخلك» . لم تغيّر الكلمات من هيئتها ، ربما كان صمتها حينئذ ، يستعيد فى داخله مناجاتها الحارقة ، وهى تتلمس شعره وتبوح له دون أن يحرّك ساكناً ، وقد تكون فى محاولة منها لتستوعب أكثر ماحدث معها . كان هو يمثّل نكراناً صامتاً لكل شىء، بما فيه العاطفة ذاتها ... فى نظره ، إن كان ما قالته دقيقاً ، فان العاطفة تقف بينه وبين العالم الآخر ، المأخوذ بنورانيته ، وهى تريد دفعه عنوة للخروج منه .

قالت كمن يحادث نفسه وغير معنّى بمن حوله «أليس هو من طين مثلنا ؟ أم هى القطيعة النهائية بين ما هو بشري وما هو إلهى ... بينى وبينه» . كان واضحاً أن سؤالها يأتى من صوت تداعياتها لذلك لم تلتفت نحوى وهى تتساءل . أردت أن أقول شيئاً . أن أختصر فعل الاحتراق الذى لم يكن له مبّرر فى نظرى ، إنما كلمات أخرى غير التى أردتها خرجت منى . «كان وجهه مأخوذاً بصرخاتك الغاضبة . أنت لم تلاحظى ذلك» .

استفزتها الملاحظة . ردت بعصبية «مأخوذاً ... بأى شىء كان مأخوذاً .. فلتستمر فى طينها مادام الاله لا يعبأ ... هذا ما كان مأخوذاً به» .

قلت مجارية إياها «أصحاب الرتب النورانية لم يكونوا قط سوى كائنات مأخوذة بذاتها مع سبق الإصرار» . ولكنها أجابت بحنق «أمن أجل هذا يجب أن أتخلى عن آدميتي لأدخل ترفعَه ...» . التفتت إلى «أرجوك دعينى ... لا أريد أن أتحاور فى هذا الأمر أكثر من ذلك» . هل كان باخوس يريد أن يطلق صرخة الطين ليصل الى نورانية أخرى بطريقة مبتكرة ؟ الفوضى والتدمير جزء من توازن الطبيعة ... هكذا يقول الجيولوجيون ، ويقول غيرهم إن الأمور لا تستقيم إذا كانت كلها نمطاً واحداً ، وإلا كيف تكون الحياة حياة كما نعرفها . وأولئك الباخوسيات

وهن مشعثات الشعر ، زائغات العيون ، عما كن يبحثن ... هل مجرد اللذة ... أم أن ذلك مجرد قناع خارجي يخبيء تحته ضياعاً أكبر وبحثاً عن شيء آخر . النصل تزداد حدّته قبل إطلاقه لبلوغ الهدف ... هل الجسد هو ذلك النصل المبرّي في لحظة انطلاقه ، باحثاً عما وراء جسديته وطينه . والذى يترسخ شيء آخر ... بذور شكّ وحماقة تترفع عما هو أرضي عند البعض مقابل انغماس كلي فيه عند البعض الآخر . كلنا ننجذب الى ما نعرفه ... نتكتم عليه . الأكثر إغواء هو الأكثر جاذبية ، ينمو الاغواء فى صمته ، دون أى إهراق لبقية الحماقات المكشوفة ، وإنما إهدار لما تعارفنا عليه ، بأنه عالمنا الأخلاقي . كلنا ذلك الخليط الغريب من الشيطان والرب معاً ، كما تم تلقيننا بهما . الانحياز لأحد الطرفين ،، يفقد ،الأمر جاذبيته ، وهي قد أدركتْ كيف تمزج خليطها بحيث يكون أقرب لبشريتها . فى تلعثمها ، لها سحر الكائنات الخرافية ، حيث كل شيء يتفجّر بكثافة دون مواربة ، تضع يدها على المخزون ، فينفجر بوحشيته المكبوتة والمهمشّة ، حينها لا تهم التسميات ، فالبشر وحدهم صنعوها مثلما صنعوا كل تاريخهم وأزمانهم ، فرحهم وحزنهم ... حريتهم وقيودهم . هم أيضاً وراء مارد كل الحكايات والأساطير ، اخترعوا النقيض والنقيض ، ووقعوا بعدها في فخ اختراعهم المتناقض .

وضعت كاترينا قدميها في الماء ، وبرفق أخذت تنثر حبيبات الرمل الناعمة فوقهما . عزاء من نوع خاص ، يتماهى مع ذينك الحماس الفطرى فى الطبيعة ، وهى تبدّل أقنعتها حسب المواسم والفصول . تدحرجت موجة قوية وعالية فوق قدميها ، وانهمرت بدفقها الكثيف لتبلّل الساقين . ماء وتراب يتمازجان مع مائها وترابها ، ويستّلان من الشمس الباهتة شعاعها وظلالها خلف طبقة السحب المكتومة . ارتطام أقوى مما توقعته ، جذبها للزحف على مهل وسط الانجراف المائى فابتلعها حتى منتصفها . وجدت نفسى أتجاسر على نفسى ، وبخفّة اندفعت خلفها ، لأحرث فى الماء حفراً صغيرة بحجم خطواتى المتردّدة ، وهي تتوغل فى برودته على مهل . كنت في مواجهتها تماماً . ملأت يدى بالتراب الموغل فى نعومته، ونفضته مع الفقاعات المائية فى الهواء . تأملتنى قليلاً ، أحسست أن شيئاً جديداً ينمو بيننا ، إبتسمت ابتسامة متوارية وقلقة . تجاسرتُ أكثر . أخذت

أتقافز حولها لأستنفر الماء في وجهها . لم أكن أنجرف فيما أفعل عن سابق تخطيط ، إنما أعماقي توشك أن تنفتح على بئرها السرّي ، وتصر على تبديد شيء من الظلال الكثيفة ، غير آبهة إلا بالصدفة وهي تروضنا ... أنا والبحر تجاه بعضنا . أنسحب نحو العمق أكثر ، أتراجع قليلاً الى الخلف . أنظر في زرقة عيونها دون تلعثم وكأني أنظر في عيون صديقة أعرفها منذ زمن طويل . ذلك مادفعني أن أقول:

– كم سيكون رائعاً لو ننسى أوهام مراهقتنا .. نجتاز الحدود لنقف بعدها على أرض صلبة هي أرضنا ... دون الركون للآخر الذي لا يرى الأمر كما نراه ولا يرى فينا ما نعرفه عن أنفسنا .

– ربما مغرمون نحن بالركض خلف ما يستعصي علينا !

استدارت نحو الشاطيء وهي تنثر كلماتها مع رذاذ الماء المتطاير من فوق شعرها . التفتت نحوي مجدداً ، أدركت أن عتمة ما قد عاودتها ، واكتسحت ملامحها . أنحني برأسي وأترك الماء يتخلل شعري . سحبت قدميها من البحر وقالت بما يشبه الانفجار غير المتوقع «لست بحاجة إلى عطف أحد . مايحدث لي أستحقه لأنني أنا التي خلقته وعلي أن أدفع ثمن ما أنجزته ضد نفسي» .

في انفجارها نقيضان . تبرير ومغالطة ، وبما يخص الثاني قلت وأنا أجر نفسي من الماء خلفها : «نحن لا نخلق العاطفة لكي نستحق الألم في حالة فشلنا .. إنما الأمور تحدث هكذا ... العاطفة تداهمنا دون إرادتنا ، وقبل ذلك تحدد موقفنا من الأشياء ... نولد إما عاطفيين أو غير ذلك ... وأنت لم ترتكبي خطأ لأنك أحببت حتي تدفعي ثمن خطيئة مفترضة» . سألتني وقد عاودتها نبرة السخرية التي افتقدتها فيها «ما الذي ترمين اليه ... أتتوقعين مني أن أذهب اليه وأركع تحت قدميه هذه المرة أم تريدين أن أسفح دمي قرباناً لتألهه؟» شجعتني نبرة التحدي في صوتها .

– لا هذا ولا ذاك . إنما أن لا تعتبري نفسك مذنبة تستحقين العقاب لمجرد أنك أحببت . واجهي فقط الأمر كما هو . فشلك في هذا الحب ليس هو نهاية العالم بالنسبة إليك .

ردت متبرمة هذه المرة وهى تباعد بين خطواتها :

– لا هذا ولا غيره . بدأت أشك فى هذا الذى يُسمى حباً . أعتقد الآن أنه مجرد وهم مثل بقية أوهامنا .

تتمالك ثقل روحها ، متلاشية كنقطة فى الفضاء الواسع . ليس هناك سوى البحر والجبال ذات النتوءات الظاهرة .

كيف يحدث أن يتغير كل شىء فى يوم واحد ، منذ الصباح الى الآن ، انتقل الأمر من يقين العاطفة إلى نفيها نفياً تاماً . وهى فى هرولتها الآن ، مثل التى تريد أن تُشيِّع خلفها عالماً تتركه للأبد ، عالم لم يعد بالنسبة اليها الا مجرد وهم وخدعة . بعد ذلك سألتها : «متى نفيق إذاً من أوهامنا؟» .

قالت لا مبالية «الحياة نفسها مجرد وهم كبير ... كل شىء فيه يتلاشى بمجرد نهايتنا كأشخاص وكأن شيئاً لم يكن . وكأننا لم نفرح ولم نتألم ولم نحزن ولم نضطرب ... كلها معاً تدخل حيِّز النهاية معنا ويسدل خلفها ستار كثيف» .

صمتت قليلاً . كنا نمشى معاً دون أن نعرف وجهتنا . فجأة التفتت لتضيف :

– أبعد كل هذا تنتظرين الافاقة ! أتصور أن محاولة إفاقتنا ذاتها وهم آخر نريده ونركض خلفه فلا نقبض إلا السراب .

وبصوت مرتبك فسرت ما تشعر به :

– نحن هنا فى هذا المكان نحب كثيراً أن نغيب فى فعل الجسد ونُتوج الشبق والشهوة بأكاليل الورود ... لأننا نشعر فى دخيلتنا وفى أغلب الأحيان أن أرواحنا تائهة ، أننا وحيدون ... غير قادرين على فعل الحب والتضحية ... كل مشغول بذاته ... لا أحد يعبأ بأحد . آلة ضخمة تدور ونحن زيتها المفضَّل الذى تدور به .

(٥)

لصخب الحشد الباخوسى هذه المرة طعم الماء . حجر ضخم يسقط فى بركة فيستنفر تحته وحوله ماء كثيرا .

الرؤوس العابرة نحو بعضها ، والمشتبكة باعتراك شبقى، بدت وكأنها تتملق مصائرها المنفلتة . ترسم منحنياتها وخطوطها، الموصولة بشحنة منزلقة من داخل الأعضاء، نحو التقاسيم المتململة والمتضحة بدقة أكبر على الوجوه الثملة . ليس من طرف ثابت بإمكان النظر أن يتبعه ، ولايتّبقى من الليل ، سوى لهاثهم وإيقاع أجسادهم ، التى صمّمت أن تصل نهاية قدرها . يتبادلون الأقنعة للدخول فى مزيد من التمويه . مجرد فراغات وضجيج هادر يحل محلها ويملؤها . كاترينا تتبوأ الصدارة ، ويعتريها الهوس الخرافى . تنثر هديرها على المحيطين بها فى حركات ليّنة ، وكأنها تدعوهم وتحثّهم على الانجراف دفعة واحدة ، فى عتمة المكان، بحثاً عن مصدر ضوء يجرف معه ساحة الرقص كلها . ومرة بعد مرة تندمج الهياكل الشبحية فى بعضها ، يختلس الجميع من بعضهم قبلاً حارقة ، تنهب هواء الحقل المكشوف وتزفره فى لجّة المحيط ، وتطلق ماله من سطوة وغواية. مشهد غجرى يستحيل إلى امتحان مرتجل للأكثر قدرة على الصمود. يفتحون الأبواب كلها على مصاريعها ، وهل دون ذلك الانفلات، كان لأى منهم ، أن يجد مجال طاقة أكثر حيوية واندفاعاً . الليل مترع بلعبة المرح والشهوة وبها ، وهى تسترسل فى لهاثها وسطهم ، شاهقة كحماقة . كاد استقرارها الأخير فى الانجراف ، نحو ما كانت قد بدأت به منذ فترة ، أن يفقدها عقلها . قذفت نحوى بزرقتها وهى تلوحّ «تعالى ... ماذا تنتظرين ؟» أشرت بيدى أنى لا أريد . مسحت وجهها المشرئب بحمرة اللهاث وأرسلت إلى حركة عتاب .

السماء رائقة وريح خفيفة تهّب ببطء لتتلاشى فوق جلودهم المعروقة ، بعد أن تمتصّ بخارها الساخن . وأنا ألتفت نحو الجهة الأخرى رأيته دونما توقع. الشاب نفسه ، جاء إلى الحفل ، ومن زاوية قصيّة ، كان يتلصصّ بوجه صارم وعيون زائغة ، تتخلّله ابتسامة متهكمة وهو يراقب كاترينا . اتضّح أن إطلالته مجرد

اختلاس قصير ، وعلى عجل ، غادر زاويته وابتعد دون أن تراه هي . داهمني إحساس لامعنى له ... ملامحه تدخل نطاق ماهو إنساني ... السخرية فعل الإنسان وليس فعل الآلهة. لماذا جاء خطفاً ورحل . أراد أن يتأكد من أمر قبل أن يحسمه ، ويستقر عليه ... أن يتخلص من شعور بذنب خفيّ تركته كاترينا في صدره ، فجاء ليوضحّ بعضاً من أمره ، في مواجهة محاكمتها القاسية له . أم أراد أن يؤكد لنفسه ولها ، انحدارها وانتصاره الأخير ، وأن العالم الذي يحتّل مساحة روحه الآن ، هو الأجدى والأكثر مدعاة للركون إليه . تساؤلات خاطفة دفعتني إلى الانسلال من المكان ، وأنا أضمر نيّة اللحاق به . ربما فضول نادر يدفعني نحوه في تلك اللحظة . كان ظهوره مفاجئاً مثلما اختفاؤه . وقع الخطوات ثقيل ومدلهم كالليل حولنا . يتراءى لي على مبعدة شبحاً يتضاءل بين الأشجار المكفهّرة في العتمة . أوشك أن أناديه ولأني لم أكن أعرف له اسماً أسرعت بخطوي نحوه . كدت أن ألاصقه دون أن ينتبه ، نقرت على كتفه فالتفت إليّ. حملق مستغرباً ولم ينطق. الكلمات قد تتحول أحيانا إلى منزلق خطر . كان الفراغ الساكن في المسافة بيننا يدفع أحدنا لقول شئ .. أي شئ . فقلت دون أن أفكر : «هل تتكلم .. أم أنك هجرت الكلمات أيضاً !» رد بهدوء من يستنكر تطفّل آخر عليه «لست آخرساً على أية حال» . بردّه هذا ، أتاح لي أن أسمع صوته لأول مرة، ذلك الصوت الذي فعلت كاترينا ما فعلته لتخرجه من غيابه فيه. الفراغ المتوجس ينزاح قليلاً ويحلّ مكانه ضوء خاطف ، يلتمع كبداية لحوار كنت أريد فتحه ، «أرجوك أن تطمئن، اعتبرني صديقة قدّرية حلتّ فجأة وسترحل فجأة دون أن تراها مرة أخرى» ولأشبع فضوله أضفت «وهذا ماسيحدث على أية حال... فأنا غداً سأكون في مكان آخر» . الظلال الكثيفة تحيط بنا، وبصعوبة أتبيّن أنه قد استرخى بعض الشئ ، فيما كلماته دلتّ على إصرار بعدم التحدث «ثم ماذا ... ليس بيننا شئ نتعارف عليه أو نتحاور فيه» . تباطئت الخطوات . تنفسّ بعمق محاولاً أن يزحزح ثقلاً كبيراً يحتلّ مساحة صدره ، ربما كل المساحة .

«رأيتك هذا الصباح حين كانت كاترينا معك .. على تلك الهضبة» وأشرت نحو الهضبة البعيدة ، المسكونة بصدى صراخ امرأة في حالة يأس . قال مستدركاً

«نعمْ . فعلاً .. أنا رأيتك هناك» . بدا شاحباً ، نهباً لاختلاجات شتّى، يستعير من الظلام قناعه ، وهو ينحدر وأنحدر معه نحو السفح . بعض ضوء يصدر من قناديل معلقة على الطريق ، وصدى الحفل يصل إلى مسامعنا عن بعد . كنت أشعر أنه مهيأ لحديث ما وأن شيئاً ما قد تغيّر فيه منذ الصباح إلى الآن ، مثلما تغيّرت كاترينا . أردت أن يكون له الوجه الذى يكشف المنحنيات الغريبة التى آل اليها حسب وصف الأخرى .

سألنى :

– ما الذى جاء بك إلى هنا .

– ليس من شئ محدد .. مغتربة عادية تحاول أن تعرف لغز بعض ماحولها .

ابتسم لأول مرة بشحوب :

– وهل عرفتِ ؟

بادلته الابتسامة دون شحوبها :

«لا أعتقد . الألغاز تتوالد !» .

شئ داخلي يدفعنى للتحدث معه عن بعض شجونى ، لكنى تراجعت قبل أن أنطق. قلت مدافعة عن كاترينا :

«هى تحبك ... وربما بجنون» .

تململه دلّ على أن اقتحاماً فجائياً يخترقه ويستبيح عالمه .

لم يرد وإنما صمت . فهمت أنها دعوة مفتوحة للاستمرار فيما بدأت به . «هل تعرف قد تكون هي الأخرى تبحث عما تبحث أنت عنه ولكن عبر طريق آخر» نظر بشئ من الامتعاض وقال واثقاً : «لا أعتقد ذلك . طريقانا متباعدان إلى أقصى الحدود ... على الأقل الآن» .

ها رجل يحمل بين ضلوعه رقّة متناهية ، ربما نبرة صوته وملامحه أوحيا بذلك. أفاق من صمته . هز رأسه بحيرة وقال :

«كاترينا امرأة طيبة ... أعرف ذلك ولكن ...»

«ولكن ماذا ؟»

وكأنه فجأة فقد شهية الكلام . التفت نحو الافق البعيد فى الجهة الشرقية ، حيث موقع الهضبة الصباحية وغاب فى تأمله . دخل فى مجاله المغلق ولن ينفع معه بعد هذه اللحظة أى كلام . قد يجعلنى أتحدث وحدى مثلما فعل مع كاترينا ، وقد ينهرنى ويخطف نفسه بعيداً . أربكنى ذلك الهاجس . قلت دون ترتيب : «هل لك أن تقول لى لماذا الجميع ينزلق (سراً)، وليس مجرد هذه الثلّة المكشوفة ، إلى فعل الاستهتار أو فعل الباخوسيين ويناقضون مبدأهم الأخلاقى ، رغم إعلانهم على الملأ ، ظاهراً ، نواميس عفتّهم وشرفهم والتزامهم ... كيف يركع السلاطين والملوك أمام تلك الشرارة التى تبدأ فى القلب لتدلهّم فى الجسد كله ... كاترينا وجماعتها على الأقل أكثر وضوحاً من كل هؤلاء وليس لديهم أى ادعاء » .

كنت أنتظر تبديد حزنه وغموضه، وأنه أخيراً يمكننا أن نفتح كوّة مشتركة للتأمل .

ـ تردّد قبل أن يقول :

«دائما هناك ماهو فى السّر وماهو فى العلن .. ليس هذا جديداً على عالم البشر ... لا على الملوك والسلاطين ولا على من هم أقل من ذلك من دون رتب أو حواشٍ .. ليس من فارق كبير بينهم وبين من يعلن باطنه أو يظهره ... الفعل واحد فى كل الأحوال .»

«هو تحايل على الأخلاق كما تم التعارف عليها . التفاف على المظهر الخارجى .. أم أن «الرغبة» هى القانون الأقوى وهى التى تطغى حتى لو خفاء على بقية القوانين والأعراف ... الأغلبية هكذا أما بالنسبة للبعض الآخر فهم قليلون جدا... أو أنهم يعيشون فى بلاد تبدلّت نواميسها نحو الاعتراف بما يعلنون عنه من حريات فردية» .

التمعت عيونه فى الظلام . ندت عنه ضحكة خافتة :

«بل ما أراه التفاف منكِ على قناعاتى ... ليس ذلك مايهّم الآن مادمت قد دخلت فخّ الحوار ... قناعتى الخاصة أن الرغبات والانغماس فيها هى التى تبعدنا

عن فهم أنفسنا ... الحياة أكثر من مجرد الرضوخ لرغبات وشهوات أقلّها أنها دائمة فينا» .

قلت بشكل مباشر :

«أمن أجل ذلك هجرت كاترينا . أتعتبرها مُجسّدة للشهوات وأنت مُجسّد لما هو نقيضه ؟»

ردّ بحزم :

«الأمر لاعلاقة له بها ... إنما يخصني وحدى . وربما هى تصل الآن إلى النقطة التى قطعتها وتجاوزتها مع نفسى» .

قلت بحزم مماثل :

«ولكن الا تعتقد أن ذلك جور على الطبيعة .. طبيعتك مثلاً ... من مّنا بإمكانه أن ينكر مثلما قالت كاترينا أننا من ماء وتراب ونور أيضاً .. كلها معاً دون انفصال».

ابتعد بوجهه قليلاً :

«لا أحد ينكر ذلك . كل ما فى الأمر أنى حققت ما يريده جزئى الطينى وأنا الآن أبحث عن جزئى النورانى ... ما العيب فى ذلك ؟ وهل من ينكر علىّ هذا الحق أيضاً ... إنه شأن خاص على ما أعتقد» .

كان حذراً ، محافظاً يمزج المنطق برهافة مع قناعاته، وإنما كمن يريد أن ينقض الحب المشبوب، ويخرج من منزلق الجسد فيه . هكذا يبدو الأمر بالنسبة له على الأقل أو هذا ما فهمته منه ومن كاترينا . صورة لفارس مؤرق على صهوة جواد، يتجّه إلى الافلات من كل الكوابح لينطلق خفيفاً، بريئاً وصافيا فى فلواته . فيما هي روح تائهة ، جائعة إلى الآخر ، وربما إلى حمايته . كاترينا ، تحتكم تطوراتها إلى فتنة لامتناهية ، وفضول لامحدود ، تتسّم بالغزارة فى كل نوازعها وأهوائها . تبحث أن تكون كلاً فى ذات الوقت .

قلت وأنا أشعر أني موشكة على المغامرة بالكلمات :

«هل تحقيقك لجزئك الطينى جاء فى مرحلة سابقة ... وكيف انتهيت فجأة مما هو جزء من طبيعتك لتتفرغ كما أرى لجزء آخر هو بحثك عن سكينتك الداخلية أو لنسمها نورانيتك أو روحانيتك ؟» .

يبدو أن المجازفة قد نجحت . تمهّل فى مشيه ثم إلتفت اليّ وهو ينظر فى عينيّ مباشرة نظرة ذات مغزى . ربما شعر أنىّ أجرّه لمناطق لايريد الدخول فيها . رغم ذلك اندفع وقال باقتضاب :

«يكفى أنىّ دخلت تلك المرحلة وانتهيت منها ... لا تّهم التفاصيل» .

لم أذعن لاقتضابه :

«بل التفاصيل مهمة . ربما تكشف مسألة البتر بين المراحل فى طبيعتك البشرية ... ألا تتّفق معى أنه لايوجد هناك بما يسمّى مرحلة جنسية ومرحلة عاطفية ثم مرحلة روحية ... إنما الإنسان هو خليط كل ذلك وفى نفس الوقت» .

أشعرنى أنه وقع فى مطّب السؤال فهل عليه المجازفة للخروج حتى لو باح بالأمر كله :

«ما عشته كان شيئاً استثنائياً. كان إيغالاً إلى حد الجنون» .

«لكنك اخترت ذلك» .

«لم اختره وانما إنسقت وراءه عبر نزوات متضاربة . ربما كانت الحيرة تحكمنى ... وربما قلق صعب راودنى لأعيش كل شئ بما فيه الانحطاط .. وجودى فى حد ذاته كان محكوماً بالنزوات المتنوعة وربما بالنزق الدائم أيضاً . توهمت أن هكذا تكون حريتى .. وهذا هو التعبير الأمثل عن وجودى الداخلي الذى يرغب فى حرق المراحل ....» .

لقد وصل إلى نقطة البوح فما كان منه إلا أن يسترسل :

«لكن شعرت فى يوم أنى مصاب بالخواء ... هل جربت قط الشعور بالخواء وسط زحمة الامتلاء بكل شئ ... ذلك أرعبنى بشدة ... أشعرنى أنى أرغب فى هجر كل شئ أيضاً ... وفى حالة تردّدى بين الشعور بالخواء والرعب منه وبين

نوازع الهروب التقيت كاترينا . لا أنكر أنها أعادت لى شيئا من توازنى الروحى فى البداية ولكنى فى لحظة أخرى شعرت أنها تجرنى ثانية لذلك المنزلق الخاوى فيما أنا بحاجة إلى فترة أتأمل فيها نفسى وأصمت . تركتها وقد حاولت أن أفهمها كيف نبقى أصدقاء . لم ترد أن تفهم ذلك وهذا ما دفعنى إلى الابتعاد كليّة عن طريقها وأنا فعلاً بحاجة الآن إلى عزلتى وإلى إمتلائى الذاتى وربما إلى فهم نفسى بشكل أفضل . ما يشغلنى هو ذلك التوازن الذى أشعر أنه ينقصنى إلى هذه اللحظة» .

توقف برهة عن حديثه ، التمعت فى عينيه نجمة وباغتنى بسؤاله : «هل كنت قط رجلاً محاطاً بالنساء وشهوات الجسد . كل ما تتخيلينه من أشكال النساء بما فيهن العاهرات ... أنا عرفت ذلك وانغمست فيه . كنت لا أعرف بعدها الفاصل بين الحب وبين مجرّد الشهوة . اختلطت كل الأمور فى رأسى . ذلك ما كنت أعيشه وما قررت إيقافه بأى شكل لأنوزن ذراتى المتضاربة والمنفلتة» .

الحزن مجدداً يغطّى كل مساحات صوته وانفعالاته .

قال :

«ربما استولى علىّ إحساس بالدناءة وأنا أوغل فى رغبات الجسد بحثاً عن طمأنينة خادعة . ذلك ما يقع فيه الكثيرون دون أن تعنيهم الافاقة .. وذلك البؤس الداخلىّ هو ما يجعل الأمر غير قابل للتقييم أو إلغاء اللوم ... إنما إدراك الاندفاع المضطرب وراء المصائر التى يمارسها بعضهم بانتظام كطقس سرى من طقوس حياته مثلما قلت قبل الآن .. أنا أعرف ما هى حقيقة شعورهم .. لقد خبرت بنفسي كل ذلك .. إنهم يريدون باندفاعهم الفوضوى أن يمسكوا ببريق يتراءى لهم من بعيد ... ثم كل مرة لا يجدونه ... يعاودون البحث ربما رغبة فى الخروج من كآبة خاصة هذه المرة وشعور قاتل بالوحدة الداخلية ... وربما الرغبة بشكل خفىّ فى التوحد مع الكون عبر الآخر وجسده ... هذا الآخر الذى قد يراوغ كأقسى ما تكون المراوغة وقد يريد التملك لأنه يبحث عن طمأنينته الخاصة بدوره .... وبدلاً من أن يسود الحب الذى يحتاجه كل منهما يسود الاضطراب وتسود الشهوات كوجه للتعويض عن فقدان الأمان الداخلى .... لعبة خادعة لاتنتهى .....» .

كان هادئاً أو أكثر هدوءاً من قبل، متخلصاً بتواضع عن كل ما جاء في بوحه المثير . تمنيت لو كانت كاترينا معنا .

«ربما لم تشرح الأمر هكذا لها . ألا تعتقد أنك مادمت تحبها بعد وهي أيضاً تحبك أن تترك فرصة أخرى بينكما » .

قال أسياناً :

«لقد حاولت ... وهي اختارت طريقها الآخر ... ثم أنا لايمكنني أن أرهن وجودها معي لحالتي الآن أو للانتظار ... ببساطة هي حالة لا أعرف متى سأخرج منها إن كنت أرغب في الخروج ....» .

الطريق أمامنا يتلّوى ، يجفل مما حوله، لولا الريح تبعث فيه شيئا من الانتعاش والألفة . كان الوقت قد تأخر قليلاً والكلام أوقف نفسه دون صخب وافتعال قال «أنا أسكن في هذا البيت» وهو يشير إلى بيت قريب منا . حركت يدي لأودعه ولم أكن متيقنة إن كنا سنلتقي ثانية . ابتعدت عن منتصف الطريق الذي كنا نمشي فوقه، بينما انحدر هو نحو بيت أسمنتي تعلوه طبقة من القرميد الأخضر . اختفى تماماً داخل المبنى، ولم نكن بعد قد تبادلنا الأسماء . قال وهو يودعني «عرفتني ولم أعرفك . لا أفهم كيف دلقت معك كل شجوني وأنا كنت مصراً على عدم الحديث» قلت «لايهم .... تأكد أننا جميعاً نحمل الكثير مما يتشابه ... وقد نلتقي ثانية لنتأكد من ذلك» .

لم أشعر حيال أي شخص بذلك القدر من الامتنان . خروجه عن صمته بدافع من فضولي كان يعني لي الكثير. هناك نوع من التلقيّ يلعب الحدس فيه لعبة خطيرة .

أواصل سيري مستعيدة أحداث اليوم كله، فيداخلني الشك في أني لم أر ما رأيت ، وإنما مجرد شريط داخلي ، يتواصل بما يمتلئ به من هواجس مربكة . التفتت نحو البيت القرميدي، كان كما لم أتوقع يطالعني بهدوء، ويخفي وراء ظله شخصاً حادثته قبل قليل ، في خصوصيات دقيقة ; وقد لا أراه مرة أخرى أبداً .

(٦)

الطريق الاسفلتي الجافل، يهتز تحت قدميّ، وأنا أرتعش من سماع صدى صوت يبدو أنه كان موجهاً لي. وقفت في جانب الطريق لأتبيّن صاحب الصوت . كانت هي دون غيرها ، كاترينا تهرول نحوي مشمرّة عن ساقيها العاريتين، حتى ما فوق الركبة، ووهج ناري يطلّ من قامتها المديدة. موشكة على الاقتراب، كانت تلهث ولهاثها لم يعقها عن مبادرتي فور وقوفها أمامي:

– لقد رأيتك وأنت تتسلين خلفه من الحفل.

قلت باستغراب :

– هذا يعني أنك رأيته أيضاً .. لماذا لم تلحقي بنا.

– بل فعلت . كنت أخطو خلفكما على مهل وأختبيء بين الفينة والأخرى حتى لاتشعرا بوجودي.

– ثم ماذا؟!

بدأ لهاثها يزول ووجهها يستعيد طبيعته لكنها موشكة على بكاء.

– لا شيء . لم أشأ مقاطعتك وأنت معه. كان واضحا أنكما تتحاوران .. لقد نجحت فيما فشلت فيه.. جعلته يتحدث.

قلت متخابثة :

– والآن تريدين أن تعرفي ما كان يقوله .

– أليس من حقي ذلك.. ألم تكونا تتحدثان عني.

– بل كنا نتحدث عنه !

– وهذا بالتحديد ما أريد معرفته . ماذا كان يقول عن نفسه.

– لقد أخبرني أنه تحدث معك بكل ما قاله لي .. لا جديد.

وأنا أستدرك أضفت :

– ثم إنيّ وعدته بأن الأمر لن يخرج عن كونه حديثاً مع إنسان قد لا يراه قط مرة أخرى.. أي وكأنه يحدث نفسه .

لم أندهش من إصرارها على معرفة ما دار بيننا. انزلقت إلى الخلف قليلاً فاتجهت نحوها لأشدها . كانت ثملة ، خارجة من محيط دائرتها المرحة، لتفتش وحدها في وحشتها الضبابية. لم أشأ أن تدور بيننا مشاحنات غير معلنة، فالأمر فيما قبل وفيما بعد، يخصها أكثر مني. جلست تحت شجرة عملاقة وارفة الأغصان وجلست قريبا منها وأكاد أكون ملاصقة لها. في هبّات الليل السخية ما يجفف بعض قطرات عرق، تنزلق نحو عنقها وتختلط قبل نزولها ، مع قطرات مائية أخرى ، تنزل من العيون الزرقاء. أطلعتها على خلاصة ما قاله وعن مبرّره للابتعاد عنها ثم علقت بدوري على الأمر كله «لا يريد أن يجعلك تنتظرين ما هو غير متأكد من خروجه منه أو توقيت ذلك الخروج لو حدث يوماً». مزاجها وتر مشدود، وصوتها ملىء ببقايا هيجان، عالق بها من حلبة الرقص، ولم تتخلص منه بعد لتستعيد هدوءها.

قالت بحدة :

– إنه يكذب ! لو كان يحبني لما استعاد تلك الحالة ودخل فيها بعمق مع بداية تعارفنا.

تذكرت ما قاله :

– ولكنه كان يشعر بكل ذلك قبل معرفته بك. أنت فقط جئت في التوقيت الخاطىء بالنسبة له . حاول أن يستعيد اتزانه معك ولم يستطع.. غلبته هواجسه .. وذلك لا يعني بأية حال أنه لم يحبك أو هو لا يحبك الآن. ربما العكس تماماً.

أضفت بعد صمت :

– هذا المساء مثلاً من المؤكد أنه جاء ليراك ولكنه رآك منساقة وراء ما يعتقد أنه ملّ منه .. وأوصله إلى الخواء الروحي .

هزت رأسها. أساخرة أم حائرة لم أعرف :

– التوقيت الخطأ ! ياله من وصف وكأن الحب ينتظر التوقيت .

أعجوبة أخرى من أعاجيبه إذاً.

ثم ضحكت وهي تسترسل :

– يخرج هو من الصخب وحكايات العشق والجسد لأنها سببّت له إحساساً بالخواء .. فيما أنا أدخل في صخبي هروباً من الخواء الذي سبّبه حبي له. أليس ذلك أمراً عجيباً.

لو كان ما يشعر به نحوي حباً حقيقيا لاستعاد توازنه به وأعاد إليّ توازني.. ألم أقل لك إنه كاذب.

ينتابني ما يشبه الدوار. قلت لها لأقرّب لها ولي ما تفهمه هي عن الحب:

– ولماذا أنت متشبثة به هكذا مادام في نظرك محباً كاذباً؟.

اختلطت ضحكتها بعربدة ظاهرة ثم بشجن مكتوم تحوّل إلى نوع من الضحك المختلط بالبكاء :

– تسألينني .. وما أدراني . وهل نملك نحن قط معرفة لماذا نحب شخصاً بعينه ولماذا نتشبث به رغم أنه يسيء إلينا.

– تنهدت بعمق – إنك لا تفعلين سوى إرباكي بأسئلتك الغريبة هذه . لماذا هو دون غيره .. وهل هذا سؤال يسأل .

– لم أقصد إرباكك حتماً . لم يكن هذا قصدي على أية حال.

بصعوبة تخرج الكلمات منها، تعود إلى ذاكرة بعيدة :

– في البدايات الأولى قبل أن أعرفه بفترة طويلة كنت أخشى أن أكون وحيدة. ولكن لم أكره تلك الوحدة مثلما كرهتها هذه المرة . منذ أن تركني وغاب وأنا أحاول ملء الوقت بكل الطرق . دخلت الصخب لأخرس صخباً أكبر يُدويّ في أعماقي أينما أذهب .. بل يزداد وحشية وأنا مختلية بنفسي . – قالت وهي تقاطع نفسها – هل تعرفين الأمر الغريب .. الآن يحدث العكس .. صخبي الداخلي يزداد ضراوة وأنا مع الآخرين ولا يخفّ حين أكون في مواجهة نفسي أيضاً .. لقد ضجرت من كل الآخرين .. ولكن ما الحل .. من دونهم ، رغم إضجارهم لي ، سأصاب بلوثة . مقاطعة نفسها مرة أخرى :

– أتعرفين شيئاً آخر . حاولت بكل صدق أن أجد من أنسى به مجنوني الروحاني ولكني لم أجد في أي ممن حولي من الرجال من يستطيع أن يفعل ذلك

أو على الاقل أن ينتشلنى من ألمى، هنا أدركت أن حبى له قوىّ وعميق ولكن أين كان هو . – تشير بيديها إلى السماء – إنه فوق .. فوق تماماً حتى لا يكاد أن يرانى! ابتعد وأنا أشدّ ما أكون بحاجة إليه، لقد أوقعنى دفعة واحدة من الأعلى إلى تحت.. هل شعرتِ قط بغدر إنسان تحبينه كل الحب وهو يتركك فجأة دون مقدمات أو مبررات موضوعية إلا مبرراته الداخلية التى تعيث فى داخله أوهاماً وراء أوهام .. قولى لى ما ذنبى فى هذه الحالة .. لماذا جعلنى أحبه إذاً وأتعلق به..؟! ألكي يقطع كل الخيوط دفعة واحدة ودون رحمة ثم ينتظر أن أصل إلى حالة الإذلال لكى يتشفى وهو يرانى فيها.

قلت لها :

– حتماً هو لم يقصد كل ذلك .. ولكنه يعيش أزمة ذاتية لا أعتقد أنه يكذب فيها.

– أزمة ذاتية !.. ألم تتساءلى كيف وصلت أنا إلى مثل تلك الأزمة... كلنا مأزومون .

– تساءلت وربما مللت الموضوع من وجهة نظرى الخاصة وقد لا تكون صحيحة .

– لقد دخلت تلك الأرض الغريبة حيث الحماقة تندفع نحو آخر نقطة فيها ، حيث لا منطق وحيث كل شيء مباح وجنونى . مجتمعى لا يسمى الأمر بهذه المسميات .. إنه يراها تصرفات عادية بل ومطلوبة لمن هم فى مثل سنى . إنما الأمر بالنسبة لى ليس كذلك .. ليس مجرد صخب مجانى .. إنه اجتياز المناطق الوعرة . الحرية كما أراها فعل أكثر جنوناً مما عداها.. لأنى وأنا فى تلك النقطة البعيدة من الاندفاع لازلت أبحث عن الحب .. عن حبّه تحديداً ، عنه وحده . لم تنفع المسكنات .. انتحلت عشرات الأقنعة لأستمتع بفوضاى وصخبى وبما يتيحه لى كل ما حولى ولم أنجح.

صمتت قليلا ثم قالت ما يكاد أن يكون مرثية :

– هل تصدقين.. لم يتبقّ لى الآن من كل ذلك إلا وجهى الحزين وقلبى الوحيد .

– ربما لم يتبق لنا كلنا سوى الزمن .

– ولماذا تسميته الزمن .. إنه الماضى وحده.

– ألا نملك معه نعمة النسيان .. ثم أنت فى أول عمرك . بالفعل لا شىء يربط بين الناس بمثل هذه الحميمية سوى تواطئهم مع بعضهم على الحزن.

تمتمتُ :

– لماذا لا توقفين كل شىء وتذهبين إليه. حاولى هذه المرة إقناعه أن انتظارك له ليس مرهوناً بحالته ، وإنما هى حالتك وبقناعتك دون تدخل منه.. وإذا حدث أن اكتشفت فى نفسك بعد ذلك ما هو نقيض ذلك الانتظار أو أن مشاعرك تتجه ناحية أخرى فأنت حرّة مثلما هو حرّ . أشعريه أنك معه فى أزمته وأنك حوله لا تنتظرين منه شيئاً سوى أنك لازلت تحبينه بعمق .. ولكى لا يتموّه الأمر عليه أخبريه أنه قد يحدث حين رغبته فى الرجوع إليك أن لا يجدك كما أنت الآن .. ربما تكونين قد وجدت نفسك فى طريق آخر.. والأشياء كلها رهن لما سيأتى بعد . هكذا تكونان أقرب إلى بعضكما بدل هذه المكابرة التى أنتما فيها الآن .

تأملتنى ثم قالت ببرود من لم يعجبه ما قيل :

– أنا أحب وأعشق حالتى معه كما كانت .. كما عشتها معه.. ضمن ظروفها وتفاصيلها السابقة .. أحببته كما كان وأريده كذلك .. أما ضمن هذا التنافر فلن أستطيع أن أتعاطى معه قيد أنملة . هكذا أتصور الأمور وبالتالى فإن مراهناتك وتصوراتك تلك تبدو بالنسبة لى خاسرة.

– تلكأت قبل أن تضيف – ولا أريد أن أقول إنها ساذجة !.

المسافة تتباعد ، الشجرة الضخمة ، كثيفة الظلال تبدو وكأنها تغطى الطريق كله. هبّة ريح تشقّ طريقها ، إنما لتعصف هذه المرة ، بكلمات قليلة عالقة نحن نلهث خلفها ، نمنع ما تجريه تلك الكلمات من حفر قاس، وما تخلفه من ندوب . نيرانها الخافتة بدت أكثر تأهباً لصياغة ما ينتابنا دون محاولة ترميم الشظايا المتناثرة .

قلت وأنا أنهض من جانبها : «بإمكانك وحدك طبعاً أن تتركى ما يخفف عليك وطأة الألم والوحدة .. ولا يسعنى إلا أن أترك أمنياتى الطيبة هنا معك». السماء تتداخل فجواتها فى الفراغات المفتوحة ، التى تخلفها الأغصان المتحركة تريد أن تقول شيئا . «ليس هناك من شيء بإمكانه أن يوقفنا عنده إلى الأبد . إنما الطاقة مفتوحة مثل جداول لم يكتمل حفرها وبانتظار من يأتى ليكمل المهمة العالقة». خطواتى على الطريق ، تبدّد صمت المسافة التى أخذت تتسع بيننا . سألتها أن تلحق بى إن أرادت أخذ قسط من الراحة ، وتركتُ الأمر مفتوحاً لها، بعد أن أخبرتها عن المكان الذى أنا فيه. لم تردّ . تكورّت على نفسها تحت الشجرة ، آخذة حيزاً طبيعيا لغصن مضاف . تحت الظلال بدت كانعكاس آخر من الانعكاسات المتشابكة ، لجذوع شجرة ضخمة ، وفى مثل تلك العتمة لن يلاحظ أحد حتى وجودها .

انحدرت من الشارع الأسفلتى نحو الجهة التى أقصدها . لم يكن بعيداً وما أن وصلت إليه حتى تبدّد كل شيء من ذهنى ، ما عدا الإرهاق ، الذى ازداد بتوحش ، مع دخولى الغرفة .

(٧)

حولهّم الليل إلى أشباح داكنة غير متوازنة ، منفلتين فى السواد بصياحهم ، غير عابئين بالوقت . ربما مرّت ساعات طويلة منذ تركتها هناك تحت الشجرة ، أشارت إلىّ بحركة ثملة وهى تقف أسفل النافذة التى أطل منها وتقول «لماذا يسكن الجميع بيوتاً من أسمنت!» . ثم انفلتت نحوهم ، داخل الدائرة الطيفية ، وانسحبوا معاً إلى الطريق الرئيسى. شىء غريب أن تصطحب كل من كان بالحفل، وتجعلنى أفيق على صياحهم ، لتقول تلك الكلمة وتمضى . لم أستطع أن أفكر إن كان لديها شىء آخر أرادت قوله ، التعب لم يسعفنى ، حتى على دعوتها للصعود ، لأعرف ما أرادته . أحسست أنى لم أكن على استعداد البتة ، لأى حوار، ومن أى نوع كان . لهذا تركتها تذوب معهم فى الأفق الليلىّ ، الذى دخل بأبعاده المعتمة ، أجسادهم المترّهلة ، وربما أرواحهم وهم يبتعدون ، ليبقى ذلك ، آخر مشهد أراها فيه، ولأجد نفسى منسحبة نحو فراشى ، أغط فى نوم عميق ، ما إن استقرت الأطياف المترنّحة .. فى سوادها .

عرفت بعد ذلك بفترة طويلة ، أنهم اختبؤا فى غابات الجبال البعيدة ، متخلصين من كل شىء ، إلا عراء الطبيعة وبذخها وانبثاقاتها الموسمية ، تاركين الفصول تستدرجهم نحو نزق تحولاتها، كأنما هى تلوذ بهم بدورها ، من وحدتها القاسية ، حينما يُرخى الليل ستاره . قالوا : كانوا يشعلون النيران حتى مشارف الصباح، ثم يدخل كل منهم شجرة مسمّاة باسمه ، ويتفرّع منها ليبدوا كالأغصان وهم يستقبلون الرذاذ المتناثر ، أو الهطول الحاد، للمطر بفرح طفل يكتشف ما حوله للمرة الأولى .

لم يكن مستغرباً أن لا يعرف أحد لهم مكاناً بعد ذلك. بحث ذووهم عنهم ، ولأمد طويل دون جدوى. قيل إن كلا منهم تحوّل فى كهفه فترة إلى متصوّف زاهد، مستغنياً عن كل شىء إلا حضن الطبيعة . وقيل أيضا : أن عجوزاً مترحلة ،

عرفت بالمخابىء السرِّية، وهى تلتقط من النواحى بذخ الثمار، وحين هاجت العواصف عليها . اختبأت عندهم ثم عاشت معهم بعد ذلك . والأقاويل تتناسل كعادتها ،.فكان بين ما تردّده الألسن أن سخطاً إلهياً قد حلّ بهم، فتحولوا معه إلى تماثيل من حجارة، ليطلقوا بعدها على تلك المخابىء الخاوية اسماً يليق بها «مدينة الحجارة» .. أما لماذا كان ذلك السخط ، فالروايات لم تتفق على قول واحد. بعضهم قال إنه بسبب الفسق والفجور ، الذى نال عقابه، وقال آخرون ، بل إنهم كانوا يعيشون حالة صوفية ، لا يدرون بما يجرى حولهم ، ففاجئتهم ثلة من قطاع الطرق وقتلتهم ، وأن تماثيل الحجارة هى لقطاع الطرق القتلة وليست لهم . آراء تتضارب والوقت يضيف اضافاته، ولا أحد بعد ذلك، حاول أن يتقصّى حقيقة ما حدث . تعاملوا مع الروايات كمجرى عادى للأحداث . التى شهدوا كثيراً منها، وأرجعوها إلى أسرار الطبيعة التى لا تقبل أى جدل أو نقاش . أما كاترينا ، فقد قالت امرأة كانت تعرفها ، أنها لاذت بحبيبها ، الشاب المستكين فى شروده ، إلى طريق آخر. لجأت وحدها إلى مسافات ، لم يعرف أحد حدودها.

قالوا إنهم رأوها فى أماكن مختلفة ومتباعدة ولم تهدأ فى الترحال فراراً من يأس طغى عليها بعد غيابه .

وقدَ زايد البعض على مجرى الأحداث ، فقالوا إن شجرة عاطرة، خبأته فى داخلها بين بذور الثمر ، وحين مرّ الوقت واخضرّت الأوراق ونضجت الثمار، خرج الشاب من بطن الشجرة، ليتلقفه سرب من نساء المدينة ، شاهدوه خارجا من الشجرة ، تباركاً به. . حتى أن الشجرة ذاتها ، تحولّت مع الوقت إلى مزار تؤمه النساء ، من كل مكان ، درءاً للمخاطر ، وطلبا للعلاج لمن كانت مصابة بالعقم . أما الشاب فظل لا يفعل شيئاً، ردحاً من الزمن ، سوى أن يرّش نساء المدينة الجبلية ، بابتسامة غامضة ثم يواصل صمته ، رغم ذلك فقد أحبه الجميع، وكان مثل التميمة السرِّية ، التى تتداولها نساء تلك الجهة البعيدة ، دون علم أزواجهن .. حتى إذا جاء يوم كان قد اختفى فيه، ولم يعد أحد يراه ، قيل إنه لم يكن كائناً عادياً ، تناثر فى الريح ، بعد أن سكن أرحام النساء ، وأن مواليد ذلك العام

أخذت كلها، من الشاب، ملمحه ولونه ، ولم يستطع رجال الجهة أن يكذّبوا نساءهم فيما ذهبن إليه، ولا أن ينبسوا بشيء خوفاً من الطعن فى رجولتهم ، وربما كان الأمر كله ، مجرد تهيؤات وأخيلة ، تلوذ بها النساء المخدوعات بخدعة مماثلة من أزواجهن لمداراة خيانات أخرى مع رجال آخرين ، أو رجل واحد ، حطّ رحاله أثناءها في المكان نفسه ، فتهيأ لهن أنه الشاب المبروك ، الخارج من بطن الشجرة، والذى لم يبق من حكايته سوى شجرته الحاضنة ، التى تحولت إلى مزار مقدس استطاع أن يصمد على مرّ الأعوام .

خط المتوسط

المهم أن لا نتحول إلى لعبة أنفسنا !

(١)

كل شيء يزداد عتمة .

خط المتوسط يزخر بالكثافة والدفء والانفلاش .

الرؤى تتطاير زخماً مراوغاً، من فوضى زبد البحر ، يعلن صهيله الأبدّى والمتواتر.

دوامّة رملية ، بكائنات ذات أظلاف ، تهب نفسها للرقص وعشق الطرب وليالى السمر، فيما الدوأمة تحاصر كل شيء.

كل مرة أشعر أنى أفيق للمرة الأولى ، ربما زخات المطر الغاضبة هى التى أيقظتنى من سبات عميق .

ترى ما الذى ينقص هذه المدينة الرملية؟ لا أرى شيئا سوى الضباب ، ضباب رمليّ يضمحل كل شيء فيه وتتماهى معه الرؤى والأفكار.

المكان محاصر بالأسمنت والزينة والكرنفالات وضجيج أبواق وميكروفونات ، تمسك بذرّات ما بين السماء والأرض . حوارات صاخبة ولغط لا نهاية له، يتبعثر فى كل الأمكنة ثم ينفلش سريعاً، مثل فقاعات الصابون وقد فقدت قزحية ألوانها وتلاشت فى الرماد.

وكما فى مرآة مشروخة ، مبعثرة الزوايا تطل الحياة فى هذا المكان وهى متشظية.

أسمع صوتاً داخلياً «الآخر لم يرحل إلا بعد أن تأكد أنه مقيم فينا» . لا تستوى شروخ المرآة إلا به . قالوا: ما معنى الحياة ، إن لم يكن صراعاً أزليا ، تتمحور فيه المسمّيات وتتبعج معانيها ، لتأخذ لباساً آخر كل مرّة ، حسب قوة الزوبعة أو فتك الزلزال ، مع فارق أنه هنا ، فى هذا المكان تحديداً ، تأخذ المسمّيات أبعادها الدراماتيكية بشكل مذهل . صرخ رجل «هل بقى شيء لم يتشظّ بعد فى حياتنا»، فيما صرخت امرأة مترددة الصوت «الحياة مقسمة إلى نصفين ، ونصف يعلو النصف الآخر» .

من أين تأتى الحكمة لتغيير شكل المعادلة التى قالوا جميعاً عنها إنها قسمة عادلة ومنصفة حسب طبيعة الأجواء.. مثلما هو عادل ، أن لا يكون وقع للرأى الآخر ، وأن تنقسم دروب الحياة إلى نصفين ، أحدهما فى البروج المشيّدة ، والآخر على الأرصفة يقتاتون بما تقتات به الكلاب.

(٢)

أفقتُ من سباتى إذاً لأجد كل شىء مؤجلاً ، حتى رغبتى فى البكاء . بينى وبين العالم فى تلك اللحظة أقرب ما يكون إلى القطيعة. خط دقيق وشفيف ، ذاك الذى يفصل بين الذاكرة والحزن. الذاكرة انقلبت إلى مجرد بؤرة، تسحب فى داخلها كل الشجون والأحزان دفعة واحدة . ثقوب سوداء ، يعرفها الفلكيون جيداً، تفتح هوتّها فى المجرّة وتبتلع نجوماً بأكملها . لا أحد يعرف بعد ذلك فى أية هاوية تدحرجت وانتفت .

لم يكن ذلك البيت الغامض وحده ، هو الذى دفعنى إلى الدخول فى هوّة الثقب وسواده ، كل تفاصيل الوطن الرملى ، بدأت تنفث براكينها وتسقط حممها ، بفوضى على سفوح مهيأة لالتقاطها. إنما شجون الوطن باب مقفل . مؤجل لبوح آخر ، رغم أنه مشتبك بضراوة بكل ما يمّت إلى عوالمى المضطربة .

كرة ضخمة من الخيوط ، تداخلت مع خيوط كرات أخرى ، ولم يكن أمامى سوى مسك طرف واحد، لأجعل لوناً بعينه ينسلّ ، فيكون بإمكان ما تبقّى ، أن يعلن انخطافه الخاص ، فى مكان يزدحم بكل الألوان الغامقة.

كم مرّ من الوقت ، وكم قطعتُ من الطرقات ، حتى أصل إلى ذات النقطة التى بدأت بها. المكان ذاته . التعريشات الخضراء المحملة بالعنب والفاكهة . أصص الزهور . بركة الماء ، التى يقف فى وسطها تمثال لامرأة عارية . شىء واحد تغيّر . نصل اللون عن نفسه واستبدل ضجيجه القزحى بصمت لونى باهت تّم توزيعه بدراية فى كل الجنبات .

هكذا دخلت فى دهاليزه مرة أخرى .

ذات البيت تحديداً ، الذى ادعىّ فيه ، ذلك الرجل ، أنى زوجته أو حبيبته .. لافارق ، سيان ، وناورنى حينها ولكن لتنتهى مناورته بتلك الأخرى التى تشبثت بحضنه.

فى الطريق نحو الباب الكبير، وقفت قليلاً ، أتأمل ، ومثلما المرة الأولى ، انتقلت الغيوم الضبابية من علوها ، لتستكين فى مرمى النظر.

كرة بللورية ، تعلن نزقها الضوئىّ ، فى وجه من يقترب منها . كل ما أحسست به وسمعته هو صوت ارتطام الشيء على الأرض . هذا الشيء كان جسدى.

وكان هو ، يمارس لعبته الجسدية ويتسلّى بقضم الفستق والحلوى ، يندّ جبينه عن شماتة ضارية... تفرقع على وجهها وهو يقول «قولى إنى سيدُك!» ، وبين تأوهات اللذة والألم تعترف له «أنت سيّدى وتاج رأسى»، لحظتها فقط، وهى تردد انفلاشها على مسامعه ، يصل إلى أقصى درجات نشوته، ويستبيح كل خلاياها ، لينهمر فيضانه فوقها مغطّياً به حتى فتحتى وجهها الزائغتين. ومثل كل مرّة ، تقف أمام عالم رخو تصرّ على دخوله لترى ما بداخله من أسرار . تفرد يديها على سعتهما ، وتدخل فى سبات هيولى لزج ، فيما هو يستند على ساقيه ، متجهاً نحو أشرطته الصاخبة ، معلناً بذلك نهاية حالة وبداية حالة أخرى، تلعب فيها الموسيقى دوراً رخوياً آخر.

السبات هذه المرة ، ينتقل بها إلى حيث بيت وحيد فى الخلاء ، يمتلىء بعيون الأرانب الوحشية ، والنمل الأبيض يفترش السقف الخلوى ، ويندلق فى كل الجهات.

قالوا له إنه بيت مسكون ، وكعادة الناس فى الشرق، لم يجرؤ أحد على النزول فيه ، ولكنه ابتزّها بإصراره.

قال «إيجاره رخيص وأنا لا أصدّق بما لم أره بنفسى».

جرّها من يدها وهى خائفة ومرتبكة وليس لها أن تعصى له أمراً ، خاصة بعد ما أكدّ بحزم «لا يوجد مكان آخر نسكن فيه ... إما هذا أو اذهبى إلى بيت أبيكِ » . تلعثمت قبل أن تردّ « وأين بيت أبى من هنا .. نحن فى بلاد غريبة لا أعرف فيها أحداً » . رمقها بحنق «لكنها البلاد التى نجد فيها رزقنا . ألا يكفيك هذا ؟ ! » .

حين حلّ الظلام ، سمعا صوت طرقعة أقدام ، على سقف الغرفة حيث كانا ينامان . استبدلاً الغرفة بأخرى والصوت يزداد حدّة مع مرور الوقت . قال لها مخففاً الأمر :

« ربما قطط سائبة تتناوش بعضها » . بدا مرتعشاً في داخله، ولكنه قادر بما يكفى ، ليصعد إلى فوق ، ويقترب من مصدر الصوت . لم ير شيئاً . كل ما رآه عينىّ أرنبة سمينة ، لم ترتجف أمامه وهو يباغتها ، وقفت فقط مسمّرة ، تنظر إليه بنظرات غريبة ، أدخلت الرعب فى نفسه . نزل من فوق السلالم مسرعاً يدارى ضعفاً طارئاً ألم به ، فرآها جاثية ترتعد من الخوف ، وأزيز جسدها يختلط بالصوت ، الذى عاود دبيبه بشراسة أكبر هذه المرّة .

قال «وأنا فوق لم أسمع شيئاً» . نظرت إليه بتوسل : «لكنه لم ينقطع قط عن هنا .. كيف لم تكن تسمعه وأنت فوق» ثم أضافت متشنجة «يجب أن نغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن .. غداً صباحا نأخذ حوائجنا التى لم نفكّها بعد ونرحل» . هل كان ارتباكها وهلعها أو صوتها الآمر ، هو الذى دفعه ، إلى استجداء بقية همّة فى نفسه ، شعر أنه فقدها فى تلك الليلة .. قال بعناد «بل سنبقى ... إما أنا أو هم» إنه يتحدث عنهم ، وكأنه فى منازلة مع مجهول . فغرت فاها قائلة «من هم؟» ها هى فرصة قد أتته ، يسترد بها ما تزعزع من رجولته أمام نفسه . قال متلذذاً بسطوته :

« الجن ... أم تريدين أن أتعارك معهم هنا أمامك حتى تصدقيّ!» . وبقيا ليلة أخرى . جاء الليل وأخذ الصوت ينقر بوحشية لا متناهية فوق رأسيهما . لم يكن الصوت وحده هو الذى أخرجها من صوابها ، إنما أشارت إليه بهلع وهى تكتشف «أنظر ... النمل الأبيض يملأ الغرفة ...» أبهره ما رأى . النمل الكبير يملأ شقوق البيت كله ، مما اضطرهما للبقاء فى الحوش طيلة الليل ، هى ترتعد وهو يفكر فى حل . فى الصباح وجدوا أن النمل أفسد كل شيء ...

لقد قضى على حوائجهم بشكل مذهل . داهمها إحساس أن هذا الرجل مستعد أن يقتل نفسه ، ويقتلها معه ، ولا يشعر أن رجولته أمامها تحديداً ، قد تم خدشها بأى شىء ... لقد صمتت كثيراً . أدركت أنه يستمد نزقه وعنفوانه ، من إيغاله فى بثّ الرعب فيها . كثيراً ما يعاود ما أسمته بارهابه النفسى لها بين فترة وأخرى . تجده مثلاً يحملق فيها بضراوة ، وهو يتحدث عن ليالى العشق الخرافية التى يعيشها مع جنّية ، اصطفته لها عشيقاً ، مثلما يقول ... يخبرها عن مكامن اللّذة ، التى لم يعرفها مع أية امرأة إنسية ، وفحولته الخارقة ، التى يتمتع بها مع معشوقته الجنية . قالت وهى تتوجه نحو الباب «إبق وحدك هنا ... المسألة ليست هزاراً ولا أعتقد أن عشيقتك الجنّية هى التى تتسلّى معك الآن» لم يعجبه تحدّيها السافر . سحبها من يدها بقوة ، كادت توقعها على الأرض . «سأتصل اليوم بجهة ترشّ البيت كله ... انتظرى وسأتدبر الأمر» . لكن تنمّرها زاد . صرخت فى وجهه للمرة الوحيدة «أنتظر الى متى ... حتى يأكلنا النمل فى الليلة القادمة مثلما قضى على كل حوائجنا !» . بقيا فى ذلك البيت عدة شهور ، وكل يوم تخترع الصدفة إزعاجاً آخر ... الدبيب يزداد وطأة ، ونظراته تتفشّى وحشيتها كالظواهر المحيطة به ، مثلما الخرافة ، تشتبك بعناصرها لتولّد مزيجاً هيولياً سقيماً ، تنفثه روائح البخور وعتمة المكان . ومثلما قيل أن الانسان بإمكانه أن ينقلب الى حيوان أو شجرة ، تراه فى ذلك البيت ، منقلباً الى كينونة رخوية ، لا تنتمى الى جنس البشر بشىء ، ولا الأجناس الأخرى التى تعرفها ، إنما يشبه ما هو أقرب الى روح غريبة ، تهيمن على الحواس والمكان ، وتُسرّب فى الحنايا هاجساً مقلقاً ، يستحوذ على أشيائها بما فيها روحها المرتبكة ، وكأنه الرعب كما لم تختبره قط .

(٣)

أصوات من بعيد .

الكائن الخرافي ينفلش ليغطيّ كل المساحات .

المدينة تحترق . إنهمار ناريّ ينتشر في كل مكان . كتل ضبابية سوداء ، تموّه الوجوه المختلطة . كائنات بشرية وتلك الأخرى القادمة من البحر أو من فيافي الصحراء . طيور جارحة تنكأ العيون . أبواق وأصوات وتراتيل والكل في غيّه ، سادر نحو حتفه المحتوم . نساء معلقّات من رؤوسهن ، في حفر نارية تصهرها ، ثم تعاود صهرها ، بعد أن تستعيد هيئتها الأولى ، لتشتعل من جديد .

نساء أخريات تخرج الثعابين من أجسادهن ومن الأدبار ، تضاهي في ذلك كائنات خرافية بشعة ، ذات أحجام كبيرة يخرج من أفواهها اللهيب ونار السعير . يصحى كل الموتى ، تنّد عنهم صرخات مسعورة . خوازيق ضخمة تجلس فوقها كتل نسائية رثة تصدر عنها زعيقاً لامتناهياً . «النساء وراء كل الخطايا» . صوت آخر يفجع بصداه المكان المضطرم : «هي السبب وراء خروج آدم من جنتّه» . ترتجف السماء . ترتجف الأرض . البشر ينقلبون الى رخويّات سمجة ، تنفث من أفواهها السعير . ممرات واسعة مليئة بجداول من حمأة زيوت مغليّة تُحمّر كل من يقع فيها . دخان أسود كثيف . « من صنع الخطيئة الأولى ؟ » . لم تعد تفقه شيئاً مما حولها . كان أحدهم يجرّها نحو الخازوق . وجهه يتمطىّ الآن أمامها ، ويسألها في فورة نشوته « قولي إنيّ سيّدك » رددت باستسلام «أنت سيّدي» . لم يكفه ذلك . طالبها «أنا الرب الصغير ورضاي عليك من رضاه » . وقبل أن تنطق دخلت في عالمه الرخويّ نافثة عن جلدها حمأة العرق والاحتكاك .

(٤)

أصوات من بعيد .

الصوت يأتيها بتلقائية ، ناعماً ، ناعساً ، يوقظ مكامن إثارة تشبه إثارة الارتحال الى عالم آخر ، أصابعه تداعب القطعة النافرة من القمر . ترانيم ملائكية وسحاب شفيف ، يضيء الوجوه ويسربلها بأجنحة الفراشات الرهيفة . تزداد وطأة المداعبة . يزداد السريان الشبقى ليصل إلى أقصى نقطة فى مجرى النهر ، حيث تنسكب المياه بتواتر شهوانى من فوق أعلى صخرة فى العالم الضبابى الشفيف . يبدو العالم فى أول تشكله وفى أول جفوله ، الغابة المسحورة تذوب فى مطلق ارتحالاتها الضوئية . وتيرة الأصابع تلامس الجسد الموبوء بالنيران . تسمع صوته الرخيم مجدداً :

«هنا استوطن الجنّى ومن هنا سأخرجه» . يقرأ كلاماً ساحراً . أصابعه تنقض على البؤرة الممسوسة . تتأوه . يتصاعد لهاثها . الشلّال يواصل انهماره . «الجنىّ متمكن ... من بؤرة الجسد . لا يريد الخروج» . همست متداعية «ولكن يا شيخ...» ثم نّدت عنها تنهيدة حارقة ، لم تستوعب كلماته الأخرى ، يطفو جسدها فى الماء ، الكلمات تتبعثر وتطفو فوق سياج الصخرة الكبيرة . «من أين تجىء كل هذه المياه؟» . قال الصوت «أصمتى ... إننى أمسكه الآن» الأصابع تتحول إلى شىء صلب وقاس . تختلط العوالم فى التوّ . تتشابك الأذرع . تتمازج التأوهات «لقد خرج المسّ أخيراً» . قال ذلك وهو فى قمة نشوته ثم غاب وجهه وصوته .

وكأن شيئاً لم يتغّير . قال وأنا أفيق من غيبوبة لم أعرف طولها . «لم أعد أفهم سرّ شرودك وغيابك ... رغم أن الشيخ شرح لى السبب عدة مرات» . أردت أن أخبره أننىّ لم أكن فى غياب أو شرود وأن الأمر يختلف تماما عما يعتقد ، هناك سوء تفاهم والشيخ ... ولكن لم أتمكن من النطق . كيف شرح له ذلك عدة مرات... هل يجرؤ ؟!

أن رآني ساهمة ، لم أفق ، تخلىّ عن لطفه ودماثته . بدا آمراً وفظاً . استبدل بوجهه الأول وجهاً آخر . حملق في شرودي وقال بعصبية وهو يزيح اللحاف :

– كفى ... انهضي الآن . لقد سئمت هذه الحالة . سئمت هذا المسّ .

ثم تمتم بغضب مضاف :

– الأولاد قلبوا البيت وكل ما فيه . يجب أن يتّم ترتيب الوضع قبل مجيئهم .

كان حانقاً على نحو غير مفهوم ، وأنا صامتة ، والدوار لم يخلع أنيابه بعد عن تضاريسي .

(٥)

أصوات من بعيد.

عالم مائي لزج. التكوين الهلامي يكتمل. يتمحور حول ذاته، ينقلب معلناً ضغط المكان رغم دفئه الحميم. الحبل يلتف قليلاً حوله وبحركة منزلقة ودورانية يتزحلق خارج الالتفافة القاتلة، بعدها يفرد يديه الملتويتين في محاولة الاجهار بهما، ويطلق لساقيه العنان فيما لزوجة السائل تحاصر حركته. يمسك بالحبل السرّى، ينجرف نحو القاعدة السفلية، يحرك شفتيه الصغيرتين. لا يتمكن من فتحهما فالماء في كل الجهات. وفى برهة تتوالف فيها الأنساق والأعذاق، يتوق لنحيب خافت يختلسه من المجهول. شهب تتوهّج ورنين ناقوس ينبجس من مكمن الرطوبة. ماء وعشب وانزلاق جافل نحو القاعدة مجّدداً. ينزوى منكمشاً فى جهة من بيته الرطب متداركاً أن موعد خروجه لم يحن بعد. قال فى نفسه أن مساحات من الفخاخ قد تنتظر إطلالته، أصاخ السمع قليلاً، سمع صوت نشيج مكتوم، وتأوهات ترجّه وهو فى مكمنه. حركات وانقباضات تنقلت من الخارج نحوه، فينقبض على إثرها ويحتقن دمه فى رأسه، لترتخى أعضاؤه بعدها. أصداف ورخويّات وسائل ينهمر فوق هيكله الهش، من خلال نفق الحبل المتماسك الذى هو كل عالمه. تشتعل جوانبه. يضّج قلبه بدقّات متواترة ومتواثبة. انقباض داخليّ يهز الحبل الأنشوطة وقد ربض قريباً من عنقه كسحابة ثقيلة توشك على كتم أنفاسه. إنبثاق هيولّى، يجعله يتمايل يميناً وشمالاً، يلاصق رأسه فوهة القاعدة ويندفع بغتة، فى انطلاقة مرتبكة، نحو الخارج، لينهمر فوقه السائل اللزج الذي غطى دمه وجهه الجنيني المنفلش... لم تكن سوى ثوان، انبثاق متعجّل هذه المرة لبقية جسده، أكفّ هوائية تحتضنه فيما هو، على غير توقّع منه، يطلق صرخة مدّوية ومستمرة معلناً انتقاله من عالم الماء إلى عالم الهواء. ذلك أشعره بخوف كامن، تغيرت فيها الأجواء تماماً، ولكن ما إن لمست شفته الحلمة الحليبية الدافئة واستنشق رائحة الحضن الساخن حتى هدأ ودخل غفوة نوم طويلة بعيداً عن ربضة الحبل السرّى لأول مرة.

كانت منذ خروجها الآسر توشك على الوقوع فى مغبّة الهواء. تسير إلي هدف محّدد، أن حاجتها للهواء الآن، مثلما كانت حاجتها للماء، فى بدايات ذلك الارتحال الجنينىّ القض فى الرحم، لكن الشيخ مسعود الذى تلقفها طريّة فى أول المطاف لم يدرك قط حاجتها تلك.

(٦)

الآخر لا يزال فى قمة هياجه . يصرخ ويتحرك بعصبية بالغة ويتحدث بغرابة . أول مرة أقنعها أنها زوجته ، وهذه المرة يتحدث عن أولاد قلبوا البيت ، يتحدث عنهم كثيراً كشيء مشترك بينهما ، كأيقونة طلسمية أضاعتها . نهضت ، تماماً مثلما فعلت فى المرة السابقة . وقفت فى وجه المرآة ، التى لدهشتها ، أكدت أن الوجه هو وجهها ، ولكن الهيئة الخارجية تغيّرت . جلباب أسود وخمار حريرى ينسدل على رأسها . أمسك هو الخمار وأزاحه ، ناولها بدلاً منه نقاباً أسود بلون الجلباب لم تعرف من أين جاء به .

قال :

– أسرعى . لقد اقتربت ساعة مجيئهم .

وبدل أن تسأل «من ؟» أسرعت فى ترتيب السرير والغرفة الواسعة والقطع المتناثرة هنا وهناك ثم انجرفت ببلاهة نحو غرف البيت الأخرى لتعيد ترتيبها بعد أن أزاحت نقابه جانباً ووضعته بعناية أمام مرآة كبيرة تتصدر البيت .

من هي هذه الأخرى وكيف هي هكذا منغمسة فيما تفعل ، وكأن الأمر مجرد روتين اعتادته .

شيء آخر آثار الملاحظة عندكِ ، وأنت تطلّين من شباك المطبخ . وجدت أن كل شيء فى حديقة البيت فى مكانه كما هو ، مثلما رأيته أول دخولك للبيت ، ماعدا تمثال المرأة العارية فإنه كان قد اختفى . ما الذى آثار امتعاضك من ذلك ، وجعلك تودّين الصراخ فجأة ولكن الصرخة مارست كتمانها بحذق مدهش .

تشاهدينها الآن وهى تتحرك بخفّة . عدد كبير ومتنوّع الأحجام من طناجر مليئة بالطعام ، ومعدّة للتسخين تملأ رفّ المطبخ الواسع . تساءلتْ إن كانت هى التى أعدّت كل هذا ... ومتى ؟ أين كانت هى أثناء ذلك ... ولماذا الآن لا تتذكر شيئاً مما كان . لم تشأ أن تسترسل فى أفكار أحست أنها مزعجة وتزيدها إرباكاً، خاصة أن الرجل جاء وقال بتلقائية لم تخطئها :

– كانت فكرة جيدة أن نأخذ الأولاد عند أمي .

أرادت أن تسأل عن عددهم ... أشكالهم وأعمارهم ... صبيان أم بنات ... أم... ولكنها عوضاً عن ذلك قالت بتغنج معتاد «أول مرة تفكر فيما أعاني منه ونحن نستقبل كل هذا العدد من الزوار» . ماحكها بحنو ظاهر وهو يقول : «أسرعي . أكاد أسمع جرس الباب ... لولا ذلك لكان لنا الآن شأن آخر ... لقد اشتقت إليك كثيراً ....» .

من أين يجيء التاريخ ليحشر نفسه في رأسها هذه اللحظة . وهل هناك من تاريخ أم أنها مجرد أساطير وكذب . حركة تندفع للأمام دون أن تفارق مرتكزها الأول . ما هو تاريخها . من كانت قبل هذا ، ومن هي الآن ؟ . من أين جاء هذا الرجل وما معنى هذا الذى يدور بينهما ... والأولاد ... انفتح الباب ، دخل عدد من الرجال ، لا يختلفون كثيراً في هيئتهم العامة ، ذات اللحى وذات الأثواب القصيرة. أجلسهم الرجل في الصالون المخصص للضيوف ثم تراكض نحوها وبادرها : «العصير يا امرأة!» . لحظتها فقط انفجرت دون تروّ وكأن أخرى تتحدث «أنا لا أعرفك . كفاك تمثيلاً ... من أنت ؟ ما الذى جاء بى إلى هنا وسط هؤلاء بأشكالهم الغريبة ....» زَم شفتيه محاولاً السيطرة على غضب تعرفه ويكاد أن يكتسحها : «هل عدت ثانية لنفس الموال ... قبل قليل كنت كأروع ما يكون ... ما الذى حدث مرة أخرى ....» ثم ضرب رأسه فى الحائط المقابل : «ما الذى أفعله يا ربِّى بهذه المرأة . الشيخ يقول إنها ممسوسة والطبيب يقول إنها تعانى من انفصام ... كلاهما يعالجها ولا فائدة!» . لم تعرف آنئذ كيف واتتها الكلمات لترد بها ، على مابدا لها ، تجديفاً يحطّ من شأنها : «بل أنت الممسوس . إنك تجبرنى على أن أنتمي لك ولعالم لا أعرفه ولا أريده . لقد جئت اليك صدفة والى هذا البيت الغريب وأنت تعاملنى وكأنى جزء منه» . أدرك بحدسه أن حالتها متصلبة ، وقد تفسد له كل شيء في هذا المساء الهام ، توسل اليها وقال برجاء «أتوسّل إليك أن ترحمينى ... أن تفوّتى كل شيء الان ... لا تثيرى المشاكل فى وجه ضيوف لا تعرفينهم ... وإن شئت سنتحاور فيما بعد» . أخذ الصينية من يدها . خطا بعيداً

وهو يحاول أن يتماسك في خطواته المرتجفة قدر الامكان . كنتِ خلف الباب بعدها تسترقين السمع لما بدا أنه شيء غريب . قال أحدهم بصوت أجش ومبحوح :

– لم يعد هناك ،أى مجال للتأجيل . يجب أن نبدأ فوراً ونعلن لهم من نكون .

وقبل أن يجيب أى أحد أضاف :

– لقد ناقشنا وعانينا الأمر بما يكفي . والآن نحن بحاجة فقط لمعرفة ما سيحدث بعد التنفيذ .

قلت في نفسي «يجب أن أحاوره ما إن ينتهي ... لم يعد هناك أى مجال للتأجيل ... كل هذه الغرابة التى تحاصرنى وتضيقّ علي وتتعامل معى وكأنى جزء من عالم لست منه أساساً يجب أن يتوقف فوراً . يجب أن يدرك من أكون ...

قال هو :

– ولكن يا شيخ المخاطر لاتزال محدّقة والضربات علينا تتوالى .

إنك لا تفكر إلا في نفسك ... في المخاطر والضربات . لم تفكر قط وأنت تستلب حقيقتى أنك لا تكّف عن الزّج بى فى المخاطر . إنك مجرد أنانى لا يفكر إلا في نفسه .

رد الصوت المبحوح :

– لن يفتّ ذلك من عضدنا ، أمام الناس لا يجب أن نكون أو نبدو ضعفاء .

هكذا هى المسألة إذاً ! أمام الناس . ربما الحقيقة أنكم مجرد جرذان تتمخض عن سمومها . كل ما يهمّكم مظهركم الخارجي ... وياله من مظهر ... أما هذا الاستلاب الداخلي لذوات الآخرين فليس مهّماً على الإطلاق . أحسستِ أنهم هنا ليتآمروا عليك . كنت على وشك أن تدخلي فى وسطهم وتصرخي : «لن يفتّ مظهركم أيضاً من عضدى ... أمام الناس وأمامكم وأمام نفسى لستم الا جرذانا مذعورة تبحث عن دور لا يناسبها .» ينتابك الدوار . تسمعين لغطهم من بعيد . كانوا يتحدثون فى أمور مختلفة وكثيرة ، يحتدّ النقاش فيها حيناً ويهدأ حيناً آخر، ولكن الذى كان واضحاً من كل كلماتهم أنهم يعدون لضربات تدميرية فى أماكن متفرقة لم يذكروها بالاسم . ناقشوا لائحة اغتيالات شخوص بعينها ، لم يكن

اسمكِ بينها لحسن الحظ ... هم إذاً جماعة متآزرة يحتّل صاحب البيت موقعاً متقدماً بينهم . ما الذى يمنعه أن يغتالك إن كان القتل لغتهم العادية . تحوّل الحديث الى مايشبه الهمس . لم تسمعى شيئاً بعد ذلك سوى صخب الأطباق التي يعاد توزيعها دون أن تدركى أنك أسهمت معهم فى كل شىء . بل فى لحظات أخرى كان ينتابك شعور بالفخر لاحتواء هذا البيت لهم ... البيت الذى أنت فيه ... ولكن الذى كان يثير الحيرة معهم هو هذا الكم من الاكل وهذا الجهد فى الاعداد له ... هل كل ذلك مجرد واجهة ... لمن ولماذا ؟ شراهتهم فى الاكل أسعدتك إذ أوحت أن الأكل كان معداً بشكل جيد . إنهم شرهين فى أمرين : الأكل والجنس ، الدوار ثانية ... الحال ينقلب الى غيره ، انتابك فى اللحظة الشاردة ب ، الحالين ذلك الطقس الغريب ، الذى تراءى أن الرجل كان يمارسه حين اختلائه ب . ، رغم أن الأمر الآن يبدو ملتبساً بين الحقيقة والوهم وبين الخيال والحلم . سطوته في أثناء فعل الجسد . هل كان حينها يقضم الفستق والحلوى وفى ذروة نشوته يأمرك «قولى أنا سيّدك ... أنا الرّب الصغير» . هل كنت فعلاً أنت التى تجيبين سؤاله بالطاعة فى لحظة الانسحاق بين عالمين . من هى هذه التى تتحدث الآن فى داخلك. من هى تلك الأخرى التى كانت تقول له فى لحظات معينة إنها انجرفت وراء سطوته التى أسماها حباً . وراء جبروته ومداهنته وقد أسماهما حناناً .

هل كانت هى التى تقول له :

«حبك لى جعلنى أقبل ذلىّ. إنك تمدّنى بكل شىء يسّهل علىّ حياتى . المال والرفاهية» . ثم تعاود نفسها لتقول : «لكننى الآن بسبب أشيائك أقبل الحنان الذى لم أعد بحاجة إليه ولا لى حاجة بالحب الذى لم أعد أشعر به . يجب أن أكف عن إيلامك وإيلامى وأن أبتعد عنك إلى الأبد» .

ومرة أخرى كانت تباغته بكلمات لم تكن تعرف مصدرها أو سببها :

«أن تجعلنى أحتاج إليك جعلنى أكرهك . أكره حاجتى تلك . لقد استطعت بإغوائك لى أن تكسر فى داخلى وأنا فى هذا العمر مالم يستطع أي أحد أو أى

شيء أن يكسره . إزددت بشاعة في نظري . أصبحت غير قادرة حتى على تقبل حبك لي رغم معرفتي بعمقه . زادت الهوّة بيننا . لم أعد أشعر بالأمان معك . إنك مجرد رجل أحب أن يستحوذ على بأية طريقة فلم يجد سوى الأغداق عليّ بماله . نجحت الخطة وابتلعتُ .... الطعم حتى لم أعد استطيع الاستغناء عن جاهك ومالك . هذا هو الذي يجعلني أريد أن أنسلخ عنك حتى لو لم تستطع فهم مايجرى في نفسي . أريد إنقاذ هذه النفس منك ومن مالك ومن سطوتك وأنانيتك وتحويلي إلى مجرد كائن استهلاكي لايشبع» أذكر أنه كان يفتح فمه مندهشاً ، لا أعرف أمني أم من كلماتي «من هذا الذي تتحدثين عنه ؟» وحين كنت أقول له «أنت!» كان يرد بعصبية «بل هو عشيقك تخاطبينه من خلالي إعتقاداً أني هو» وأقول له: «هل جننت ؟ إنني لا أغادر هذا المنزل أبداً» . حينئذ يهدأ صوته بعض الشيء ويقول «أنا زوجك أيتها الممسوسة .. وليس لديّ أي جاه أو مال !» . ثم تنفرد دهشته بسخرية ممزوجة بغضب آخر «أم انك تستعينين هذه اللحظة بكلمات قرأتَها وربما شاهدتها في هذا الجهاز اللعين قبل أن أحطمه؟» تزداد وحشيته ، يمسكني من كتفي ويهزنيّ بقوة «من جاء لك بكتاب يحوى الفسق ؟ بيتنا ليس فيه إلا كتب الله والدين فمن أين لك بهذا الكلام؟» . الزبد يتطاير من فمه، يختلط بزبد آخر تفقسه حرارة رأسكِ . الدوار يشتد ، لم يعد هناك من شيء قابل للاستيعاب ، إنما هي فصول غريبة تتوالى وتنبثق من بؤرتها لتتخذ لباس الأحجية والرموز .

(عندما ضغطت قدمك الغامرة أول مرة على البساط المسحور ، من يستطيع أن يحزر ، إلى أي هلال خصيب غير طاهر ، يمكن أن يحط بك الرحال ، إلى أي مضيف من الغرباء المعممّين ، الصاخبين ، يفضي بك ، أو إلى أي ملك ؟) .

قصيدة من هذه ... أعتقد أنه هزار دكو نكلنع ... ماالذي أتى به هذه اللحظة ومن أين جاءت كلماته وسط هزيج كتب بعينها وكل ما عداها لا تحوى إلا الفسق مثلما يقول .

(٧)

كانت المرأة مسترخية فى زاوية مظللة تحت شجرة مثمرة وفى رقعة فسيحة مفتوحة الفضاء، تمسك بكتاب أشعار ترحل معها، فى ضوء سرّى بباغتها بندائه كالندأهة . فى الجانب الآخر من الأرض الفسيحة، احتشد عدد من الغرباء ، معممّين ، صاخبين، يحملون بأيديهم سيوفاً صدئة وأحياناً قناديل لا تسعفهم فى إلقاء الضوء المطلوب لأنها عاطبة فى أكثرها ، متهالكين فى توثب السماء الماطرة بزخاتها القوية ورعودها وبروقها ، لترّج كل الكيانات معاً بما فيهم المرأة القارئة للشعر، حيث تلوّت حول هيكلها ، محتضنة الأشعار خوفاً من التمزق والبلل. كان الرذاذ القارئ، منفلتاً فى جهامته، فرفضت ترقب مشهد السيوف والقناديل الصدئة وهى تتشبث بالكتاب بين يديها وهم يلاحقونها . دارت حول نفسها دورة خاطفة شدّت بها أطرافها المبتلة والمتهالكة وأتجهت صوب الجهة المعاكسة.

غرز الرجل إصبعه فى وجهها المرتعش :

– من أين لك هذا الكتاب ؟

لم تشأ أن تتراجع أمامه :

– هو معى دوماً. أحفظه وغيره عن ظهر قلب. ليس بإمكانك أن تمسح كل ذاكرتى.

– ألم تنسى بعد ذلك التاريخ المسفّ الذى كنت تحلمين به ؟

– ليس لدى أى تاريخ مسفّ سوى هذا الذى أعيشه الآن معك .

إنهال عليها بالضرب ونعتها بأبشع الأوصاف . لم تعد تعبأ ، ربما هو مجرد كابوس ويزول . كان الغضب يندلق نحو هوّة مضطربة فى مكان القلب . صعب عليه أن ينسحب ببركانه نحو السفح فيتلاشى ، ضغط الكلمات وأصدر بها أزيزاً أفرغ به ما بقى فى جوفها من بقايا : «مكانك هنا . البيت وأطفالك .. ماعدا ذلك هو دخول فى الفجور والفسق ولن أسمح به لنفسى حتى لو كنت مصابة بمّس كل الجّن على هذه الأرض» . ابتعد قليلاً ، ربما كان يفكر فيما يقوله بعد ذلك ، لأنه فجأة التفت نحوها ، وزخ فى وجهها بقايا غضبه «لقد زاغت عيناك عن الحقيقة ... وأخرجتنى من طورى . إن لم تثوبى إلى رشدك فلا محال أنّى قاتلك ... هل تسمعين!» . وجهها دائرة مهلهلة ، تتخللها سراديب الماء . قالت بأنين ويأس : «أقتلنى إذاً إن شئت أو دعنى وشأنى» . لم يرق له هذا التحدى السافر . انهال عليها بضرب أقسى «أيتها الفاجرة سأعرف كيف أجعلك تعودين إلى صوابك» .

(٨)

أصوات من بعيد .

غابة تحترق ويفجر أزيز احتراقها وجهاً قديماً نسيته ، لرجل أرغمها يوماً على الخضوع لنزوات الطريق الصعب الذى أوجدها قسراً فيه . الوجه يتراشق فى تلك اللحظة مع غيبوبة الوجه الآخر الذى كان لعائشة . فى ذلك الغياب لقي عقاباً لم يكن يتوقعه . أرغمته على تقبّل مصيره وهو راضخ للفتات ، الذى بقى له ، وصار يتلقفه بكل امتنان . امتنعت عنه عائشة وحرّمت على نفسها معاشرته وهو الذى حشى جسده فى تلك الآونة بقطن الأبوية والأمراض بعد أن تخلّت عنه صفية، وأرغمته على الطلاق ، من زواج تمّ سراً ولم يستطع إشهاره كما وعدها . انقلب بعدها إلى فريسة جاهزة لسعير الحرمان العاطفىّ والجسدّى ... هل ذلك ما أخبره بها الشيخ مبروك ، أم أن الأمر مجرد ترتيب منطقى ، لما آل إليه حال الشيخ مسعود ، بعد تفتّت جبروته وطغيانه ، وخروجه النهائى من جنة الانغماس المجنون ، فى صهيل لذته وشهواته إلى جحيم الازدراء المبطنّ .

جاؤوا إليه فوجدوه غائباً . فى غيابه انكسار وهيبة مشروخة ، يحدّق فى الفراغ ويطلّ من برزخ الأبدية وهو ينادى عائشة وهى لاتّرد ، وإن ردّت بعد إلحاح كان ذلك بإقتضاب .

تطرق طرقات متردّدة على أبواب الرحيل النهائى . فناء أو غيبوبة ، تجىء بعد انكسار مماثل ومختلف ، عن انكسار الشيخ الجليل . تلتقط الهيبة المشروخة من بين ثنايا روحه . كان هادئاً وينبعث نور خفىّ من وجهه النائم ، عارياً من كل شىء إلا غلالة فضية تغطى إنحناءات أطرافه وثنيات الأعضاء المصعوقة . هل كان لحرمان جسده من اللذة ، مثلما لفيض الألم فى جسدها . كلاهما اللّذة والألم يجلبان الرخاوة والانسحاق . تسترجع أوراق الدفلى اللامعة وهى تتسلق جدار البيت القديم . هناك حيث الحديقة الخلفية والفراشات المرتعشة تجاهر بحريتها . رائحة العشب الحاّدة تخترق حواسها المنطفئة . تداهمها ارتعاشة خفّية . أين يقع

الخط الفاصل والمشتبك بين تقاطيع الوجود وتقاطيع الفناء . كلاهما فى تلك اللحظة يطوقان ذاكرتها المشوّشة ، وتدحرجها المثير من رأس جبلى ناتىء ، نحو سفح رملى ينثر غباره فوقها . آنئذ ، ترى وجهه داخلاً فى بذخ اللذة المحرّمة :

قالوا إنها حين أغوته لقضم تفاحة المعرفة فقد أخرجته لتوّه من جنة الخلد المهيبة الى شقاء البحث عن سرّ ما حوله . ذلك السرّ الأبدى المقرون بالشقاء وحده. ولكن ماذا لو لم تغوه ؟ هل كان سيتمتع بسعادته المخلّدة ! «السعادة الدائمة تجلب السأم والملل» هكذا قالوا أيضاً .

وضعت ثمار الشجرة المحّرمة في كف وعادلت بها فى الكفّ الأخرى مغزى الطلاسم وسرّ الأسماء ... انحازت هى للكف الثانية وانحاز هو معها لتجفله الرعشة المقدسة ، وتشوشه مراسم الالتحام . ومنذ ذلك وهو يعشقها ويلعنها معاً ، عين فى اللذّة الأرضية ، وأخرى في اللذّة السماوية . فإذا دخل في رهافة العشب، رقّ قلبه وسلخ من جلده خشونة البلادة ، عابثا بعدها بهدير الشفرات المتلاطمة، تندلق في رأسه نثار الكلمات ، يختبر مع معشوقته حواسه كلها، وإذا ما خشن قلبه لعنها في سرّة وجهره مداريا عجزه عن فكّ الطلسم .. أليس ألم الكشف أبهى وأسمى، من لذّة مسترخية ودائمة دون طائل! هيهات ما بين لذة تنبثق من تعب وبين لذّة تنثال عليه رطباً وهو فاغر فمه تحت النخلة! لماذا اللعنة إذاً؟ يلثم فمه الكنز الخفّي لعري ماهو مكنون ومخبوء.. كل شيء عار عن الحقيقة، لا يهّم بعدها حجم الشقاء الذي يتمازج معه... انتهاك لجهل يبقي الغلالة السحرية والشفرة السرّية دون كشف.

هي الآن الأنثى الطريدة من جهل ، والواقعة بين معلومين ومجهولين ، يطاردها الفناء حتى وان كانت حواسها جميعاً في ذروة الصحوة، وتطاردها اللعنة الأبديّة لانها تجاسرت وقضمت التفاحة المحرّمة.. لم يعد من فرق بين حياة أو موت فكلاهما وجه آخر للغياب . وفي خط المتوسط تتلاطم الافكار، وتتشظى على شاطىء صخري في المدن الرملية . ليغرز الموت كل لحظة أنيابه فى عروقها.

من أين جاؤوا لها بكل تلك الأغلال. أمن أجل محاولة لمعرفة ما هو أكثر جدارة بكينونة فضولية تعشق هتك الأسرار أم لأنها الرحم الحاضن لبذرة الخلق فلا بدّ من عوائق وفخاخ.

(٩)

تزحزح الضوء الخافت عن مركز بصرها . آثار الضرب واضحة على وجهها .. انسحبت والكل ينام لتجد قدميها تهرولان في طريق مظلم. أفزعها أن تجده يهرول خلفها كظلّ شبحّي في ليل مدلهمّ... تنفسها يتثاقل تحت حاجز النقاب الكثيف . امتدّت يدها إليه وأزاحته بسرعة . رأت السواد يتطاير مع هبّة الريح القوية، تمسّ الوجه المعروق مّساً حانياً، متخللة فجوات شعرها المتطاير ، وكأن قوة خفية تنسحب من الفضاء ، نحو مسامها المفتوحة . بقيت تهرول طويلا حتى إذا نظرت الى الخلف وجدت الآخر متباعداً اكثر من ذي قبل. أشاحت عنه، وزادت من سرعة هرولتها . وصلها صدى صوته المنهك: «لن تفلتي من بين يدّي أيتها الفاجرة..» الصوت يشحذ شحنتها الإضافية فتدب في ساقيها قوة غريبة ، كمن إستنفر جمرات مخبوءة تحت الرماد . ترى طريقا جانبيا تنفلت نحوه ، وتنوب في فراغه. شجرة ضخمة تتواثب أمامها كصدر أم حانية.

كانت مأخوذة بذلك المخبأ السرّي في قلب الشجرة ولم تعرف بعدها كم من الوقت مضي وهي تتنفس من المخبأ الرطب طراوته وتدخل ما يشبه غفوة مترفة.

(١٠)

لن تتفيأ بحيطانه بعد اليوم . هذا ما قررته بينها وبين نفسها ، وهذا ما كانت تهزج به، منتحلة المشهد اليومي المجبول بالخذلان ، وهي تسير وئيداً وبعيداً عن غرفه المكتظة بالنساء.

مرة جمعهن في مكان واحد.. جاء بالثلاث الأخريات ، وقبلها كان قد تطرّق لوصف الحال بأنها «سنة الله ورسوله ألا يحق له أربع» جادلته بفطنة الأبجديات الأولى.

«ولكن كيف تشترك في جسدك أربع نساء؟».

قال ضاحكا وهو يمسح شواربه المفتولة «ذلك شأني أم أنكِ تقلّلين من هذا الشأن !».

لم تخلع الأخريات سوادهن، حتى في وسط البيت ، وقد أتى بهن اليه، وليس من رجل بينهن سواه.. اعتبرن ذلك هيئة رسمية للزيارات . العيون وحدها تحدق في بعضها وتضجّ الاقمشة الحريرية السوداء ، بفقاعات الضحك المكتومة ، إذا كان هناك ما يستوجب الضحك... لم تستطع أن تتبيّن وجه أية واحدة منهن ، حتى بعد مرور سنوات طويلة ، على اشتراكهن في أقحوانة ذات الرجل . المعول يمارس نزواته الدورية المنضبطة بكل اطمئنان ، والهياكل المشروخة لا يندّ عنها أي نثار . حوريات مسحورات بجسارة الحظوة، التي يتمتع بها رجلهن المشترك، يقين ثابت أن ذلك حق قدسي اكتسبه من السماء قبل وجودهن. كن إلّاها ، طافحات بالبشاشة ، يكفي الواحدة رعشة موقوتة بجدول موقوت.

قد يمتشقه الزهو والشهوة لواحدة بعينها ، فيرتكب ما هو خارج تلك المواعيد المجدولة ، حسب أيام الأسبوع ، ولكن المحافظة على سرّية ذلك الاختراق شيء مطلوب دائما.. كان يقول في نفسه (النبي كان يفضل عائشة فهل هو أجرم أن فضّل إحداهن على الأخريات) ، بعد كل رعشة ، تتفرغ الواحدة منهن لصلاة الشكر لله، والدعوة للربّ الصغير ان يحفظه ويحفظ صحته

وعافيته ، فمسئولياته كبيرة وهن يعرفن ذلك جيداً، إلاّها، كانت تجد نفسها مع الوقت ، محاطة بصدفة قاسية، تنتابها فيها الرؤى المشوّشة وتتهاوى في كوابيسها الليلية، دون علمه، إنما ليكون هذيانها في حدود الجدران المصطكة للصدفة، مأسورة بتخومها الضيقة ومجبولة بانصهار المؤمنين ، ان «كل ما هو مكتوب على الجبين تراه العين ».«والرجال قوامون على النساء» «وقل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا».

مرة خرجت عن انصهارها باليقين لما كانت تردّده دائما مع نفسها ، فجادلته وهو ينهمر بهديره المائي: «كيف العشق بالنسبة لك.. أم أنك تعشقنا بذات الطريقة.؟» .

غمزها وهو يجنّح في فلواته «أتغارين يا امرأة.. لك مالهّن واكثر».. الشرفة البعيدة نائية في أسرها «بل ما أراه منك هو ضرب في النار» شرب منها حتى الثمالة ، ثم تمتم «ومن النهر أطفيء الحريق . ألا ترين ما يحدث الآن».

دخل أنينه المنتشي وعلى ضفة نهرها ، اغتسل مرة أخرى.... ثم انتفض انتفاضته الاخيرة ، وهجع في السكون الى جانبها.

وضعت رأسها فوق صدره ، وتنفست بعمق قبل ان تباغته «أيخطر لك في بال أن يشاركك أحد في جسدي وبشكل مشروع ومقنّن.. هذا إذا شطح بنا الخيال مثلاً. كالأزمنة الغابرة مثلما يقولون ..» جاء ردّه سريعا «هل جننت.. ما الذي أصابك لتقولي مثل هذا الكلام. هذا خرق لسنة الله ورسوله».

ـ إنني فقط أدعوك لكي تتخيل ما أشعر به وأنت تحشر بين ساقيك المتورمتين هاتين أربع نساء وكل واحدة لا عالم لها سواك.

ـ مادمت قادرا فذلك هو الحلال!

ـ ألا ترى أنك شقيّ بشهوة لا تنطفيء.

ـ ليس هناك ما هو أجمل من الشهوة.. وما هو أكثر منها مجلبة للشقاء إذا لم تجد متنفسها.. ثم إن الاولاد عزوة ومكانة.

ـ لكني غير قادرة على استيعاب الامر كما ترى .

- أبعد كل هذا العمر؟ ما الجديد.. كثير من البيوت في ديارنا تعيش ما نعيشه وأكثر.

- لا تنسَ.. منذ البداية لم أكن راضية.

- دعي عنك هذا الكلام، فأنت أقرب الجميع الى قلبي.

- بل قل واحدة بين أخريات، إنك لا تعرف طعم النار في جوفي وأنا أرتجف هنا وحيدة فيما أنت تتمرغ في حضن أخرى.

- إنه بالحلال يا امرأة .. بالشرع.. ماذا بكِ؟

- بل هو أكثر من أي حرام!

- ها أنت بدأت ثانية بالتجديف والخروج عن الطاعة.

هذا حديث جديد لم يكن يشغلك قبل الآن.

- كنت صغيرة وبدأت أفهم.. والآن لا شيء سوى الخواء يحاصر قلبي في كل مرة أمعن فيها التفكير.

توارت خلف جلده زهرة شبحية . ترتمي في بياض الغيبوبة . تناوش في جوفها حوافر شغوفة بالركل، مسربلة بالهذيان الدوريّ ، ترقب مسامه المعروقة عن كثب.. الدم الذي يجري في عروقها يتوثب بعض الشيء ثم سرعان ما يدخل لزوجة الرخويات المداسة.. «ما الذي بامكانه أن يرجيء فورة دمائها».. السرّ المخفيّ أكبر. إنه الشيء الذي تجهله وتجهل معه أشياء كثيرة عن نفسها .. تعرف ان الحدود مقفلة، ومادون ذلك، يبوح كله برتابة العالم حولها، بسرّ الجدّات موثوق في أعلى شجرة تتنازعه الرياح ولا يسقط.. من يجرؤ على تدنيس السرّ المقدس أو يرجيء، كنقيض له ، ظمأها الصحراوي مادامت كل التعاليم تدفع إليه ، ها هي تكتشف متأخراً أنها لم تكف عن هرولتها طوال الأزمنة السحيقة، لتصل في نهاية الخط «المتوسط» إلى لا شيء . مجرد دورة حلزونية أو دائرية تصل دائماً إلى ذات النقطة . هل صخرة سيزيف المتدحرجة ، من أعلى نقطة يصل اليها ، نحو ذات السفح، ليعاود حملها مجدداً ولتتدحرج ككل مرة ،

هى تنفيذ للعقاب المقدس ، أم أنه معميٌ عن عبثية مايفعل ليكفَّ عنه .. ربما لم يكن عقاباً إلهياً إنما حمق بشريٌ أهوج لا حدَّ ولا نهاية له.

لم تكن الحال تسمح أن تحادث أحداً، حتى ولا الثلاث الأخريات، اللاتى يبدون منسجمات مع الوضع أو يتظاهرن بذلك . وجدت نفسها كمن يتحدى وحده أعتى قمم الجبال، تهمس له بالسرِّ أحياناً وتدارى خفايا القلب مرات ومرات . على غفلة دسّت لها عرافة الحيِّ، سحراً يبعده عنْ أية امرأة أخرى، ويبقيه لها وحدها ، ولكنها فى اللحظة الأخيرة تراجعت عن الوصفة السحرية وانكفأت في زاوية الحديقة وتقيأت . خامرها إحساس غامض أن الذى يتم ترويضه بلغة السحر، سيجعلها فى ربقة الاهانة الأبدية ، مهانة فى ذاتها وفى أنوثتها، لأنها استعانت بقوى خارجية، لتحقيق مآرب لم تسعفها عليه إمكانياتها الذاتية ، آنئذ تخترقها صورة شفيفة قادمة من خلف حجاب ، صورة طريق يمتد إلى مالا نهاية . تتكاثف غصون الأشجار فوقه وتتعانق . نداء خفيٌ يتسرب من كل الفجوات المطلَّة على الفضاء. تحملق فى الفجوات فتراها متناثرة بين الأغصان المتعانقة بأحجام مختلفة .. ذلك يدفعها إلى تأمل أبعد لحياتها ومحيطها الضيِّق، متمثلة حالة إنسان يعيش فى أضيق الفجوات النورانية ولأنه يذوب فيها ، يعتقد أن العالم كله يطل من فجوته، بينما هناك بؤر ضوئية أوسع وعوالم أخرى أرحب ، لكنه محكوم بضيقه وإن وعي ، أدرك أن بينه وبين الانفلات مايستوجب أعماراً كثيرة أخرى . الآن هى تمشى وتشعر أنها مجرد ذرة صغيرة ، فى محيط كونيٍّ خرافيِّ الامتداد . بإمكانها أن تكون هى أو تكون غيرها ، أن تعيش هذا الظرف ، أو تعيش ظرفاً آخر . بامكانها أن تهدأ أو تدمر ما حولها ، ولكن كل خطوة بحاجة إلى شجاعة آلاف من الرجال ، وكل طريق مسدود بجبل كبير عليها اجتيازه ، وقد تسعد بعدها أو لاتسعد .. كل الاحتمالات واردة ومفتوحة . النداء يحرض فيها الاستمرار فى السير . فى منتصف الطريق المشجر ترى اثنين . رجلاً فارعاً ووسيماً وامرأة بهية، كثيراً مايراودانها فى أحلام يقظتها ، تتابع حوارهما دون علم منهما .

الحديث بينهما وصل إلى نقطة احتدام آخر . قالت المرأة البهية فى منتصف حديثها :

– نحن نعيش الصورة ولا نعيش حقيقتنا . نعيش وهم ما نعتقده ولا نعيش حقيقة ذواتنا .

قال الرجل الفارع :

– تبقى الصورة أقوى بكثير من الحقيقة . الوهم قد يكون هو الحقيقة الثابتة!

– لنضرب مثلاً .. أنت كرجل ماذا لو كنت ضعيفاً فى طبيعتك الانسانية . لماذا يلزمك دائماً صورة وهمية للقوة تتستر خلفها ألآن صورة الرجل المتداولة يجب أن تكون قوية .. أنا كامرأة أعيش ضعفى بشكل اعتيادى إنما قوتى هى التى يجب أن أداريها حتى أرضيكم معشر الرجال وهذا عكس مايحدث لكم.

– أىّ رجل لا يقبل حقيقة أن تكون المرأة أقوى منه إلا إذا كانت خارج نطاق دائرته وهو بالتالى لا يقبل أن يعيش حقيقة ما بينهما، إنما وهم ضعفها ووهم قوته إذا كان ضعيفاً . مثلما تقولين هنا الوهم فى صالحه والحقيقة ليست كذلك .. هو مثل النظم الديكتاتورية التى لاتتبع إشاعة الرأى المناقض لأنها تعرف أن ذلك سيخرب بيتها فيما دول أخرى أكثر تقدماً تفسح المجال لكل شيء لأن رقىّ الفكر هو الذى يعمل لصالحها هذه المرة.

– أظنك شططت قليلاً .. ثم هل الأمر منحصر فى التخلف أو الرقىّ وفى كلا الحالين فهو من أجل المصلحة .. أين مصلحتنا إذاً نحن النساء فيما يحدث وكيف قبلنا بما هو خارج مصلحتنا إذا انسقنا وراء منطقك.

– طبيعى أن الأمر متشابك أكثر من ذلك . إنها تركيبة شاملة . لنأخذ مثالاً آخر .. أن تكون المرأة أكثر أخلاقية فذلك فى صالح أى رجل .. لاينازعها فى تفوقها عليه فى هذه النقطة بل هو يكرسها ويقدسها فيها ، مثلما هو يكرس تضحيات الأمهات ووفاء الزوجات .. ولكن أن تكون متفوقة عليه فى الامكانيات

الأخرى ..العقلية أو المهنية فهو لا يقبل لأن ذلك ليس فى صالحه .. يضعه فى خانة الأضعف تماماً .. وصدقاً أكثر مايزعج الرجل أن تتفوق المرأة عليه خاصة إذا كانت زوجته، فان قبل يظل مأزوماً .

– قل لى بصراحة أيضاً .. هل ذلك مايزعجك فيّ .. أنك تشعر بأنى لست بالضعف الذى يجب أن أبدو عليه معك .. أين إذاً مكانة الحب وأين دوره؟

– ربما ولكن من الممكن فعلاً أن يفسد الحب بين اثنين لايمثلان نمطية الصورة المتداولة أو الوهم كما تسمينه .. لمجرد هذا السبب قد يفسد كل شيء.

– وبالنسبة لك!

– بالنسبة لى فأنا أحبك ، وهذا مايدفعنى الآن إلى أن أصارحك بخبايا نفسى كرجل .. أحبك وأفهمك معاً .

– لماذا أحس أن شيئاً ما يفسد باستمرار مابيننا إذا ؟ .

لا يكفى أن نعى حقيقة مانحن فيه .. إنه شيء هلامى وغامض يتسرب كالسم فى دمائنا . شيء يربك تلقائيتنا ومشاعرنا وأفكارنا إن شئت .

– المشكلة أنك تفكرين كثيراً . إنها خريطة دائرة متشابكة .

ألم يُقل إن «ذو العقل شقيٌ بعقله ..»

– ها قد عدنا من جديد .. المطلوب إذا أن أتخلىّ عن عقلي لكى أسعد!

(١١)

تتباعد الصورة . يتباعد صوتها وصوته وينسلخ الحوار من جلده . تفيق لترى مكاناً فارغاً . وحدها والسرير العريض وانتظار قاتل لنوبة زيارة أخرى موقوتة بجدولها ، ثم إذا بها في الطريق الطويل ، تتبع النداء الغامض وتدخل قلب الشجرة.

كانت صورة الأخرى المتلفعة بالعباءة تداهمها . تبصر الآخرين وتسمعهم ولا يبصرها أحد أو يسمع لها صوتاً .. ألم يقل لها إن صوتها أيضاً فتنة . إنه العالم الذى تراه من خلف غلالة. امرأة الأساطير كانت تقاوم الموت المفروض عليها وتتحايل عليه، أما هى فتتحايل على الحياة وهى تندفع باختيارها نحو الموت، الذى تعود لتقاومه كل مرة . رهنت قلبها للريح والريح من شيمتها الانقلاب . هذا ناموس الرهن وناموس الهوى. قد يكتئب القمر، فنراه وتنتحب الشمس وتحتجب فندقٌ لها الأصوات ونناديها ، تجف الينابيع فنحزن ، ولكن هل من يعبأ لمن رهن قلبه للهواء . تنهمر بطيفها المشاكس من برزخ بين الماء والهواء. أحست أن السماء تخلت عنها واختفت النجوم وأن الأرض تتخلخل بين قدميها ، والصوت ينادى بأعلى مافيه من قوة أنه باق هنا كالوتد . انحشارها فى قلب الطراوة العشبية، متدثرة بأوراق الشجرة الضخمة ، وابتعاد الرجل الذى كان يلاحقها عن بؤرة الحدث جعلها ترى المساء مساءً وردياً .. لابد أن فترة طويلة قد مرت ، انقلب فيها الليل نهاراً وأوشك النهار على الأفول .. هل هو يوم واحد أم أكثر . اخضرار منقوش بالجنون ، للأمكنة أيضاً جنونها الخاص وأحياناً نزقها الذى لايضاهيه أى نزق . تخطو خارج القلب ، مشيّعه رأسها نحو الأعلى . سحب فضية تتمازج لتعطى كل مرة ، شكلاً مختلفاً ، وهى مأسورة بالتخوم اللامتناهية على مرمى البصر.

بالمكان صمت لا يقطعه إلا تغريد الطيور ، أفق مفتوح على إطار جبلىّ شاهق. غابات سامقة تدخل نعاسها وكأنها المرائى المعلقة ، ترثى كل من لايلتفت إلى سرّها وسرّ هذا الجمال الكونى الآسر . خطر لها الطيف الشبحى وإن كان

مختبئا خلف شجرة ، مثل شرير الماء (كو) الذى يسبّب للنوبيين القشعريرة، لمجرد مروره خلف الجبل ويراه أحدهم . تلك الحالات الخارقة للعادة ، تمهد لها فضاءً من رغبات خاطفة كأن يكون لديها الآن بساط مسحور يُخفيها عن عين المكان . الناس تخترع خوارقها لأسباب عجزها .. السهم النارىّ، العصى السحرية، طاقية الاخفاء، مصباح علاء الدين، خاتم سليمان ، الحصان الطائر، الكتاب المسحور، كلمة السر التى تفتح باب الكنوز .. هى الآن عاجزة وبحاجة إلى واحدة من تلك الخوارق . البساط المسحور وحده قادر على الاختراق والنأى معاً . لو كانت الأمور تسلس مثلما يحلم الناس لسقطت الأزمنة والمسافات ، وتحول العالم كله إلى رقعة واحدة متراصة . يلوذون بالسحر والتعاويذ ، لصرف آفات الدهر واستحالاته المضنية . مرة قالت لها العجوز فى خط الاستواء «إذا كتبت كتابات معينة ، بدم ديك أبيض ليس فيه إشارة ، فى كفك اليسرى، ومسست من شئت من الرجال أو النساء ، أتاك طائعاً ولو كان مقيداً بالحديد فى حصن من حديد». أين الديك الأبيض الذى ليس فيه إشارة . وهل لو كانت وجدته ومست يومها بكلمات دمه ، يد الشيخ مبروك ، كان أتاها طائعاً وقتما تشاء بدل صلف انقطاعاته المباغتة . ودّت لو تراه . تمسّ وجهه بحفيف أصابعها وتستمد منه قوته. هاهو يدخل فى غيابه وانصرافه عما حوله ، مثل الذى وجد جنية أخته أو أخاها، وربما عشقته أو عشقها . كان الجدّ يسرد متضاحكا للجدة ، قصة عشق جنيّته له ، فتستغل الجدة الحكاية لصالحه ، ولتحافظ على مكانتها فى أعين الأهل والجيران ، وتبرّر لهم سرّ غيابه الدائم . حينها يسقط العيب من اللائحة المزدانة بالنواميس ، إنما المسألة هنا خارج إرادة البشر وخارج إرادة الشيخ مبروك ، والناس تصدق ذلك لأنها تريد أن تصدقه . المضحك إنها ربما انتظرت شيئاً من ذلك وهى داخل جذع شجرة لليلة كاملة ، وربما دخلت غفوة الطبيعة لأيام عديدة ، ولم يزرها مع ذلك جنيّ تؤاخيه أو يؤاخيها .. ضحكت فى سرها ثانية من الفكرة التى يبرر بها بعض الرجال خياناتهم ونزواتهم خارج البيت . ياللخدعة ! أحياناً لا تأتى الأمور، محكمة على النحو الذى يخمنه المرء ، مثلما فعل الجد مع الجدة التى تسعفه فيها عادة ، طيبتها ومعرفتها بأسراره وخروجه عن طبيعة البشر ، ذلك ربما ما يهدىء

فيها اللوعة الضارية . بقيت تودعه مثلما تستقبله ببشاشة وهدوء . وفى مساء خريفى وردي وناعس كان ينعم فيه بدفء الموقد الشتوى ، أهدته خاتماً فضياً ، قالت إن حجره نادر ويجلب له الحظ والحصانة فى ارتحالاته . ابتسم لها الشيخ وقال مداعباً : «كيف تريدين أن يلازمنى الحظ وأنا بعيد عنك ... امرأة غيرك كانت تعطى زوجها فصاً يزيد من العوائق أمامه حتى يرجع إليها ويلوذ بها للأبد». ولكن الجدّة كانت تدرك مالم يدركه أو يتغاضى عنه ، فطنة علمها الدهر إياه . ردت ببساطتها المعتادة «إن شئت أن تذهب فلن يعيقك شيء. إنما هكذا أطمئن عليك أكثر وأنت بعيد عنى». تنحى صوبها واحتضنها، وهو يتنشق أريج عطرها الجسدى المميز ، ويدرك أن حضناً غير هذا الحضن لن يستوعب ماهيته . إنها تدرك بالغريزة أنها تمسك به وبتلابيبه حين تفلته للمطلق . هكذا هو مثل نهر ، سيشهد فى مجراه عبور مصادفات شتى، ولكنه لايتوقف عن الجريان . فمرة تأتى المصادفة على هيئة طيف مائى يتخلله ويشرح صدره،،ومرة أخرى يعقب ذلك الانشراح تجهّم كئيب بسبب مصادفة تعسة، ولأنه اعترك الحياة مثلما يعترك الريّان بحره، يمرر المصادفات حلوها ومرها ولا يجزع من مآزقها، فلا شيء يبقى على حاله أبداً، إنما الخروج من المأزق دون مجازفات كبرى هو مايشغله عادة آنذاك.

قالت الجده مرة : «إن جدك لا يؤاخى جنّية مثلما يدّعى ومثلما أبرّ أمام الناس .. إنما هو يؤاخى نفسه وكفى .. نفسه هذه مليئة بكل شيء!».

تلك العلاقة التى أبسط مايقال فيها إنها شفيفة وعالية الانسانية، هى التى كانت تجمع بينهما ، بينها وبين جموحه ، وتقول إن الأمور، لاترتهن بحواجز الفروق بينهما ، كما أراد ذلك الرجل الشبحى أن يقنع أخراها .. هنا عذوبة تقطر من كل شيء، وهناك قسوة واضطراب، ينّم عن عجز فى فهم الطبيعة البشرية والعلاقة بين الاثنين . ماذا يهم إن كانت تلك الطبيعة النبيلة لامرأة أو لرجل أو لكليهما فى ذات الوقت .. وهل كانت حكمة الجدة فى ذلك الفهم العالي له رضوخاً، أم أنها سلاسة في استيعاب الآخر .. هذا الآخر تحديداً الذى تحبه .. السؤال اللافت فى هذه المسألة : هل هناك من الرجال واحد بإمكانه أن يستلهم مثل تلك الحكمة إذا صادفه الحب مع امرأة بطبيعة تشبه طبيعة الجد !

(١٢)

ألقت بصرها إلى الجهة المعاكسة . رأت الطريق الفرعي الذى دلفت منه فى ذلك المساء قبل أن تختبىء. الرقعة الواسعة ذاتها والسهل العشبى المنبسط، تثب بخطواتها وثباً نحو طريق آخر جديد ، يطل على جهة أكثر اتساعاً وتفرعاً. إنه يقود إلى ضفاف مدينة حجرية أخرى أو مدينة رملية. تداهمها الأصوات والضجيج، وهى تحث السير نحو مصدرها. ما إن وصلت حتى أذهلها ما رأت . من أين جاء كل هؤلاء. بشر بهيئات رثة وممسوخة، وأخرى فى كامل هندامها ونظافتها . الزحام يدخل فى الفوضى ويأتلف مع دخان أسود وغبار يغطيان المدينة الرملية ، بينما النهر الكبير الذى يقطع المدينة إلى جزر متناثرة وموصولة، اسودّت حوافه وتعكر ماؤه من آثار المخلفات والركام البشرى . العيون زائغة ، تتلاطم الأكتاف ، وكل يبدو فاغراً فاهاً، نحو جهة لايعرفها غيره ويتجه إليها ، تختلط الوجوه وتتفاقم حركة المرور القلقة والمرتبكة ، مندفعين نحو بعضهم، فى مشهد ضار لجنون الحجر والبشر . انتقلت من الضفة الشرقية إلى الضفة الأخرى المقابلة ، يدفعها الذهول إلى اختطاط مسارات عشوائية ، تتفرع منها أزقة وحارات تبدأ ولا تنتهى . بيوت قديمة وأخرى جديدة ، تتراص معاً، وتتداخل وكأنه شىء اعتيادى تم تصميمه خصيصاً هكذا منذ الأزل . الأسفلت يصيح صياحاً نافراً تحت وطأة الأقدام ويودع رفاهية كان ينعم بها، قبل أن يزيد البشر كل هذا الازدياد المروّع ، وقبل أن تكثر فيه الفجوات المفتوحة شاقة أعماق الأرض المتعبة ، وبادية كبؤر سوداء تملؤها الانشقاقات والانكسارات . يعلو الضجيج أكثر . الأبواق تحفز ماتبقى من الأصوات النافرة. تتلفت متوجسة وتضيع فى ضباب الرماد المتصاعد نحوها من الطرقات . تقرر أن تتراجع وتخرج من المدينة أسرع ما يكون . حين وصلت إلى زقاق يقع فى جانب من ضاحية المدينة رأت الأخرى ، متلفعة بذات العباءة السوداء التى كانت تلبسها. لا يبين من وجهها إلا عيون واسعة تضفى سحراً وجاذبية على ملامحها دون الغطاء . كيف أبصرتها. أمن هيئتها المضطربة التى تعرفها جيداً ، و هى تسير نحو جهة معاكسة . لاتزال كما

هى تبصر الآخرين ولا يبصرها أحد . لم ترغب أن تستوقفها أو تجادلها فيما آلت إليه الحال منذ أن تركتها وحيدة فى ذلك البيت . ينتابها شعور غير مؤكد حول الذى جاء بها هى الأخرى ، إلى هذه المدينة الرملية ، الآن وهى تسير محاذية لها قالت : «عليك متابعة ما بدأت به أما أنا فقد آن أوان راحتى .. وكفى الله المؤمنين شر القتال!».

كأنما جبلت سخريتها من يأس مطلق ألمّ بها بعد أن فارقتها ، هكذا اختارت أن تبقى مختبئة فى الظل الذى للحائط . لم ترد عليها وأخفقت فى أن تتذكر سؤالا أرادت أن تسأله قبل اختفائها وقبل أن تتسرّب فى الضباب، كشذى عطر صباحى ضلّ طريقه ومكانه وغاب فى زحام مدينة من رماد.

«الروح الشفيفة وكر حزين» . إنها تفتقده الآن بشدة وتفتقد كلماته وهى تقف وحدها محتمية بالجدار . يسبق نبضها سكونه ويتآلف معه ومع وهج يطغى ويدفعها للتحرك نحوه.

تشابك الخطوط

حين أدركتُ أن لذبذبة الصوت معنى
قررتُ أن :
أتحدث
أنفعل
وأصرخ
فلم يبق لدىّ فى هذا المكان
سوى ذلك

(١)

كان كل شيء خافتاً ، رجراجاً تحت ضباب الطريق الطويل ، الذى ينحدر ، ويتفشى ليصل ذؤابة الأعمدة الضوئية ، فتتوهج قناديلها الليلية فى البياض وتندمج ، ليتمثل الممر قطعة من سراب.

استدرت متجهة لطريق فرعى مقابل ، متجنبة الأماكن المأهولة، سادرة فى وحدة منتقاة . المغيب البرونزى يصبغ صفحة المياه الداكنة ، فتبدو قناديل الطريق المضاءة ، وأنا أنحدر على مهل ، كعيون خفر تحرسنى ، صدى أصوات البشر والعربات ، تدق فى رأسى بدأب مسترخ ، وتثير فى نفسى، طمأنينة خفية تمكننى من السير بثقة ، وحين كان الجوع يستبد بى أو العطش لم أكن أتوانى عن طرق أقرب باب، أسأل فيه أصحابه قطعة رغيف وكأس ماء، ونادراً ما كان هذا يحدث، ليغدقوا علىّ بما هو أكثر كثيراً مما طلبت . أحياناً تصادفنى شجرة مثمرة أتفيأ بظلها وهى تسدله ملاءات دافئة ، وتترقرق على مسامى كأصابع الجد الحانية . الآن وقد خرجت تماماً من ضوضاء المدينة ، إلى جهة أخرى بعيدة تفيض بالهدوء ألمّ بى نعاس مفاجيء . فى الأفق وراء المنبسط السهلى لاح لى كوخ كابىّ وحيد مصنوع من خشب ورقائق الأبنوس . الضوء القمرى خلف الكوخ يسحبنى نحوه، بخيوطه الفضّية الطويلة ، وكأنه يستحث النعاس وسط أنداء اللفة الصامتة . ليومين أو أكثر لم أنم وهنا الطبيعة تتواطيء مع النداء، مُتسربّاً من خلايا كائن مشرد مثلى، ينفث اليها بحنينه وشغفه السرّى، داخلاً فى وقار الصمت ومسلماً نفسه لشجنها والغواية.

أقترب من باب الكوخ ، ولوهلة لم تواتنى جرأة طرق الباب أو اقتحامه . إن الذى اختار المكان بهذه الطريقة ، إنما كان يأنس لوحدة لايريد أن يغشاها أحد . أسمع همهمة مبهمة، وألمح ظلا باهتاً لهيئة رجل عجوز، بدا وكأنه الشيخ مبروك.. أستبعد الخاطر سريعاً ، فالجد العتيد يطلّ من أى مكان ولم يكن قط بحاجة إلى أن يختبيء فى بيت خشبى تم تشييده على أعلى رابية فوق جبل شاهق.

النداء يتكرر والنعاس يطغى . مجرد خطوات أخرى وأكون لصق الباب تماماً.. ارتعاشات الشموع فى الغرف المحاذية لبعضها أغرتنى بالمغامرة ، ودون أن أطرق الباب انفتح وحده وعلى مصراعيه بيد غير مرئية . دلفت إلى الداخل، باحثة فى أركان البيت الخشبى عن ظل كائن إنسى فلم أر أحداً، غلالة الضباب الكثيف تحجب عنى رؤية كل ماهو خارج الكوخ ، فلا أتبين إن كان صاحبه فى ركن ماهناك . أنصت للصمت الطاغى مع مزيج من الوحشة، واللذين ، حتماً، تركهما صاحب البيت خلفه وهو يغادر، والغريب أن ذلك هو تحديداً ما أشعرنى بالامتنان، لقد حررنى دون أن يدرى، من تقديم تبريرات وتسويغات، بدت كلقاء ثقيل يعقبه حرج سقيم وأنا أغالب النوم. لايهمّ الآن لمن يكون هذا العش. المصادفات دائماً تخلق أجواءها ومبرراتها ، وأنا قد وطّنت نفسى فى قلبها منذ أمدٍ ، ولا يهمّ أيضاً لمن كان ذلك الشبح الذى تراءى لى خلف النافذة ، فحتى لو لم يكن خيالاً فهو بمجرد اختفائه ، وجّه لى دعوة مفتوحة بالدخول. الآن وقد دخلت ، شعرت أن فى المكان مايجعلنى أستجيب لطغيان التعب ، الذى يستبدّ بكل أعضائى ، بل الأقرب للحقيقة أنى كنت منهكة ، ولسحر الصالة الدافئة وعبقها المثير تأثير مغناطيسى على الحواس . كنبة طرية تتوسط الصالة ووجدتها تفى بالغرض . شعور كسول وخامل يسيطر على أجواء المكان . من المؤكد أنى سريعاً غفوت ودخلت خدره .

(٢)

ينفتح الباب ، يدخل سرب من نساء مبهرجات، يعقبه سرب آخر من الرجال ، أولئك ، القادمون من خط الجليد ، ينزوون في ركن الصالة، ويغزلون من حرير القبل، إيماءاتهم الجنسية الفاحشة. تصرفوا كما لو أنني غير موجودة ، أو بالأحرى لم يكن يراني أي منهم. وجوههم المتعبة ذابلة وسط الدخان العطريّ، وما إن اقترحت «كاترينا» أن يشاهدوا فيلما إباحياً ، حتى تصايحوا معاً بالموافقة. تلوّت أمامهم وخطت بحركات مثيرة نحو أحد الأرفف، حيث سحبت من فوقه شريطاً معيناً ، داخلاً في أشرطة أخرى كثيرة، لم أكن قد رأيتها أن دخولي . «هيا اتبعوني إلى الغرفة الأخرى».

تبعوها وهم في حالة هياج، وجمرات الرغبة المسعورة تستحوذ عليهم وتؤجج مكامنهم . دقائق قليلة وتختلط الأصوات بالتأوهات، تلك الصادرة من جهاز، والأخرى من المشهد الحيّ الذي يحتويهم في الغرفة القريبة، منذ أن تركت كاترينا في المرة الأخيرة، فإنها الآن قد انغمست كلياً في غواية الجسد والكيف. تساءلتُ إن كان هذا هو كل حياتها ، أم مجرد مرحلة رخوية مستبّدة ، قد تمّر بها وتنتهي. تستنفر كل الملذات وتندلق متواثبة نحو الهوّة الأخيرة . مرّ كخاطر برقيّ أن أحزانها ومآزقها قد تكمن في فضاء الحرية المطلقة ، التي راهنت على همومها في داخلها ، وضمن سياق حركتها المتفجرة ، هي التي لم تكن تدرك ذلك ولم تكن تعرفه ، وربما أدركت ولكن لا شيء يقف في وجه حمل كبير ، تعتقد أنها تحمله وحدها فوق أكتافها وتجره جراً في المطلق الغامض ، فليتفجّر السياق كله إذاً ، فهناك من خلق ذلك الفضاء لهم ، لينجزوا فيه كل أدلتهم وبراهينهم ، بعد أن يكونوا قد كشطوا عن جلودهم توترات روح تخلصت نهائياً ، من قلق وكبت الشحنات الجسدية الحبيسة وغيرها . لا شيء يمنع أن تنفلش وتتشظّى كما تشاء، أو تموسق تلك الانفلاشات والتشظيات ضمن معطيات فاعلة ، تم تهيئة كل الأجواء والمناخات لاستقبالها . كاترينا اختارت الطريق الأول ، وها هي تنفجر مع ثلة شبيهة بها ، لمجرد فعل التمرد والاحتواء ، فتلك هي حدود الحرية المكفولة لهم

أو لا حدودها.. تلك هى أسس حضارة الجليد «إفعل ما شئت في نفسك أو لا تفعل شيئاً ، فكل الطرق مفتوحة إلى النهاية ... جسدك حر ، عقلك حر ، إرادتك حرة . وإن أخطأت الطريق فذلك مردّه لك وحدك وحسب ... هناك طرق أخرى ، إن شئت اتبعها وإن شئت تجنبها ، إنما أنت محسوب على جهة الخطأ أو الصواب الذى تختاره وهى التى تحدد مكانتك ... أمجرد ثلّة ضائعة أم ثلّة عاملة «تحرّر ذاتها» لمزيد من العمل المقدس والإنتاج الذى يضعك فى مقدمة الآخرين» . ماكينة كبرى تعمل ، ولا محلّ للضائعين الذين يبقون مجرد ضائعين وحثالة في المجتمع الفاعل . الدخان المعطر ، الذى ينفثونه ، يملأ الآن جوانح الكوخ كله ، الأعضاء تتصارع وتتلوىّ والأصوات الممتزجة ، تدخل دائرة الهمهمة وقد قطعه صراخ فجائى حاد لكاترينا «لقد اختنقت ... نحن بحاجة إلى الهواء النقى» . دقّت بذلك رنين ناقوسها وعلى الآخرين السمع والطاعة . انسحبوا من الغرفة متخاصرين ، ويعلو وجههم الذبول ، يمشون بخطوات مترنحة وملتوية كمن يتجنب فخاخاً منصوبة فى الأرض . انطلقوا فى الضباب خارج الكوخ ، والريح تسعفهم فى نشر الضحكات الرخوية .. عواء ينطلق من الحناجر الثملة كنداءات مستغيثة فى بريّة مظلمة وموحشة .

أما بالنسبة لى فلم أكن على الحياد أبداً ، وجدت نفسى ودون مقدمات فى شارع ضخم تكسوه إضاءات لونية مختلفة . تتشابك الخطوط فيه وتنهمر الممرات الجانبية من كل صوب وفى كل ممرّ إغواء آخر . الشارع الرئيسى والممرات معاً ، تزدحم بكل الأعمار والهيئات ويغلب عليها أولئك الذين هم فى أول عمرهم أو فى منتصفه . كتابات ملونة تعلو واجهات الأوكار الجنسية المتلألئة بين إضاءات خافتة وأخرى شديدة الإنارة ومطاعم جانبية تحتشد بالروّاد . حلقات بشرية كثيرة تتحلق حول شموع مرتجفة ، تحيط بها مختلف الأطباق وأصناف المشروبات . وأماكن أخرى يعلو فيها الهمس ، وتتداح الضحكات الداعرة نحو بعضها ، وتتكاتف الأذرع ، فيما فاترينات بائعات الهوى تشهد ازدحاماً ذكورياً مراوغاً يدفعه الفضول للفرجة ، أغلبهم من بلدان أخرى، والذين يدخلون ، يمرقون سريعاً

نحو الداخل ، حيث وجبات اللذة المقدمة ، لمن يدفع الثمن تتعدد أشكالها ، تحت ستائر الحرير الزاهية ، ليحلّ بعدها كل في فراغه أو وهمه أو نشوته ، ويخرج من المكان أشد جوعا وضراوة ، بعد أن سلخ من أهدابه ، كل التفاصيل التي لم يكن يتوقعها . محلات أخرى تبيع الأعضاء التناسلية المصنوعة من مواد مختلفة وبأحجام مختلفة أيضاً وتجد بين الزبائن من الجنسين إقبالاً ، أولئك الذين يستعيضون الحب أو الشهوة بجهاز بلاستيكي يتمرغون به في مضاجعات ذاتية وخاصة . أما الأجهزة الحديثة ، تلك المفتوحة أو المشفرة تروّج بدورها لولائم العصر في كل مكان متاح ، وبكل طريقة مباحة ، حسب الخطوط وتقاطيعها وشارات المرور الخضراء ، التي تعمل بنظام آلي داخلي ، يملك مقدّرات الضغط عليه القائمون على الأمر ، في الجهة المعنية . الثغرات الشرقية في الكوكب تحظى بامتياز مجاني حيث الدعايات الإباحية موجهة اليها مجاناً وبدون شفرات .

هو طواف يشبه الطواف المقدس الذي كان يمتزج في أزمان غابرة ، بالاحتكاكات الجسدية كجزء من طقس لذّة مشروعة ومباحة . في نقطة نائية، يقف كاهن المعبد القديم يستقبل كل مرة عروساً جديدة ، ليباركها في البدء بطقس الافتضاض الخلوي ، ثم يودعها في يد ذويها المنتظرين خارجاً ، على أحَر من جمر ، بعد أن يكون قد ختمها بختمه الحيوي المقدس ، إلى أن تجيء عروس بكر أخرى ، ربما في اليوم ذاته أو اليوم الذي يليه ، و وقد يصل عدد المختومات بالختم الكهنوتي في اليوم الواحد الى عشر أو عشرين بكراً ، حسب تصاريف المراسم والاحتفالات وتساهيلها ، التي بدورها تبلغ ذروتها في يوم بينما تشحّ في يوم آخر .

الأجساد المقدمة في الشريط الفيلمي المذاع في المحل الكبير ، وفي البيوت ، تفحّ فحيحها الأفعواني ، مثلما أريد لها أن تكون بأمر المخرج . التأوهات الصاخبة ومراسم الأثداء المنتفخة بحساب موقوت ، فيما الساقين المرتكزتين على عجيزة دائرية مهندسة تمّ تدويرها بأحدث الطرق التجميلية ، تشحذ الرغبات

الكامنة في طقس الجليد ، أو تلك الأخرى النافرة من حرارة طقس الاستواء أو المكبوتة حسب أجواء وطقوس المتوسط .. كلها معاً الآن تدخل دائرة الأفعى الخالدة «أنا حامية جداً» و«مولعة» اتصل بى الآن يا حبيبى» وكلمات أخرى ودعوات فجورية ركيكة تأخذ مكانها بالتتالى . من تلك الحمى الرائجة يتداخل غبار الأزمنة، تلك السحيقة والأخرى المعاصرة ، ليسرجوا جميعاً سماوات الرحمة والغفران متعاشقة مع ما هو مباح ومتاح ، يبثون بها فى ماء الحياة كل جنونهم وشبقهم ثم يشيحون عنه ، وقت الجد ، كآخر مزابل التاريخ العصرى الراهن .. ولكن هيهات ، فسرعان ما تعود لتأخذ المقدمة مع إشراقة يوم آخر وهكذا دواليك . ناقضة عنها ، فى كل مرة ، أحكام الأخلاق المرائية والمنافقة ، مندفعة كطاقة قصوى تزيح الثرى وترفعها نحو الثريا ، وترفع ، تلك التى رأوها في لحظة ، مزيلة أخلاقية الى مرتبة الثوابت المقدسة . ها هنا تهرق الأرواح فى لجّتها السحيقة ، وتتهدّل الأهداب خلسة فى المقاهى المكبوتة ، مستنفرة فى الكائنات غبطة الهوى . فن الهوى لاوفيد مجرد بداية تراشقت مع ملاحم العصور الأخرى . فكل شىء «للشىء» والشىء ذاته هو حاكم السيرورة الأزلية . تشيئت التفاصيل بما فيها ، تلك الأرواح ، المغلفة بالأحكام والنواميس الصارمة . اختلطت المعايير الآن دفعة واحدة ، وكل يجد تبريره المنطقى ، لا يهم الآن كثيراً ... امرأة و امرأة ، رجل ورجل ، ليس هو ذلك الشىء اللافت على الاطلاق ، فالاعلان العصرى ينبىء عن كل المتشابهات والمختلفات ويدعو إليه ، والسرب الأرضى ينسج حريره كعادته من نواميس الرغبة والغرائز ... ليس من حكمة ،أو حماقة ، فالنصل القاطع يقطع كل شىء خلسة أو علناً ، إنما حسب رغبة القائمين على الأمر ، وإن كان فى الجليد أو الاستواء أو المتوسط ... لكل مقاييسه ومعاييره فى الأخذ والعطاء والاعلان ، شبكة واحدة لا يضيرها تعدّد ألوانها ومهاراتها المقدمة .

(٣)

بعدها ، عمّ الصمت ، نزلت على السلالم السفلية فى مبنى يزدان بأعمدة طولية مسيّجة بدوائر مزخرفة . خُيل اليّ وأنا أنزل ، أنىّ قد رأيت المكان من قبل. المشهد الخارجي للزخارف شيء مألوف ولكن الداخل ، كما اتضح لى ، يعجّ بتفاصيل أخرى . هنا كل الوجوه صقيلة ولامعة ، نماذج بشرية مختلفة وكأن شوارع وأرصفة المدن القريبة والبعيدة ، قد اكتظت فى يوم واحد بمختلف أجناسها ، ودلقت شحنتها فى بهو هذا المكان .

هتفت امرأة سمراء من وسط الزحام :

«هنا لكل شىء قانون وثمن . لا شىء بحاجة إلى قانون ينظمها مثل المتعة» . ثم ضحكت ضحكة مائعة وتقدمت صفّاً طويلاً انتظم سريعا ، وتبعها نحو ممرّ داخلى طويل تقف فى واجهته امرأة شقراء خليعة ، تدفع بالحضور واحدا واحدا ، نحو أماكن مقفلة بعد أن يملأ كل منهم ما هو مطلوب من بيانات ، ويدفع الثمن مقدما حسب نوع السلعة التى اختارها . القائمة البشرية ، ومن أجل إشاعة النظام ، مصنفة حسب الجنسيات ، وجنسية تعلو وأخرى تنخفض ، حسب قانون العرض والطلب أيضا .

كاد أن يخطئها أحدهم ، تلك الواقفة فى أحد أركان البهو ، وتتلفت بارتباك فى كل جهة . يبدو أنها جديدة على المكان أو دخلت البهو عن طريق الخطأ . سأل الرجل ، بكوفية وعقال ، بلغة أجنبية ركيكة : «هل أنت من طشقند؟!» باغتها سؤاله. بهتت وهى تحملق فيه .

أضاف : «سأدفع لك ما تشائين!» . ربما فى تلك اللحظة فهمت المقصود . شتمته بضجر وتقزز ، ثم خرجت مهرولة من الباب الرئيسى . عند البوابة الخلفية للمبنى الكبير ، وقف طابور من السيارات الشبحية الفخمة ، يتململ بركابه وزبائنه الكثر ، ومن بعضها تخرج هيئات نسائية محتشمة ، بل تقع فى مرتبة «شديدة الاحتشام» حسب العرف المتداول ، البرقع الحريرى الأسود والمنمنم بزركشة

ذهبية فائضة يأخذ موقع الستار ويغطّي كل شيء ، فلا يبين من الجسد المهور بالحجاب الا عينان لامعتان تمسحان المكان كله بثقة ، قبل مغادرة السيارة الفخمة. من يجرؤ بعدها على أن يخدش حياء البضاعة المغلّفة بأثياب أحكامه الجائرة . في الساحة الخضراء المحاصرة بين جناحي المبنى الشاهقين ، يطلّ العراء وينفتح الأفق على مشهد الزواحف وهي تعتلي المنصّات الرخامية ، التي تقود الى الباب الكبير ، وكما يحدث عادة يزدحم المكان حتى يفيض ، مثله مثل البنايات الشاهقة الأخرى ، التي أصبحت موزعة في كل الجهات ، كدليل على الضيافة الحديثة ، التي تمّ من أجلها اختراع الأساليب والسبل المناسبة ، لا ينافسها في حجم الانتشار الا دور العبادة ، ويحدث أن يكون أحيانا ، أو كثيرا ، أن رواد المكانين ، هم أنفسهم . هو الستار الذي فقط يفرّق بين الجليد المعرض للشمس والهواء ، حتى يكون قابلا للذوبان ، والدفء المتوسطي الذي يختبيء ، غصبا عنه ، وراء غلاف سميك ، يحتفظ خلفه بغموض وأسرار لياليه ، وغموض وأسرار تعاليمه غير المباحة أو المتاحة للأعين الفضولية ، التي لا ترغب في شراء البضاعة المعروضة ، وإنما تأتي لمجرد الفرجة المجانية أو هتك الأسرار . هي الخيوط الحريرية أيضا ، بعض الوقت ، تشفي بكارة المدن الرملية الضائعة ، وتنصت لصوت الفجيعة في كل مكان، الا تلك الفجائع الكامنة وراء أغلفتها وسترها ، فتظل محاطة بمهابتها ومحافظة على ما اكتسبته بالخبرة ، من ادعاءات الابقاء على ملامح الجوهر الأصيل والمكنون ، والذي لم يخدش بعد ، وحتى لا يتورط أصحاب الواجهات الأخلاقية ، المحافظون على التراث والمعاصرة ، فانهم يستعينون بالأسماء المستعارة ، لتقوم بفعل الواجهة البديلة ، مع حفظ ماء الوجه لرؤسائهم ، وحفظ طقوس الأصالة في العرض والطلب ، من خلف أحجبة وستر عصرية . من يفهم سرّ اللغة ، يدرك أن الخراب الأخير يحلّ في الأمكنة . لا تهّم فجاجة العرض أو المباشرة ، أو اللجوء الى تفاصيل محكومة بالنفاق ، للحفاظ على شرف وهمي ، فسوق العرض والطلب كبير ، ولا يهمّه تلك الشئون الداخلية ، واللون الأسود الكئيب بامكانه ، أنّى شاء ،

أن يدس نفسه وسط بهرج الألوان الرائجة ويعلن بينها سيادة محفوظة بتراث الشرق والشرف الرفيع .

«ما المزعج في الأمر إذن ؟» قال الرجل ذو العباءة البانخة .

«طريقة النظر الى المسائل . حين يتم طرح الأمور بشكل مباشر ، يتم اقتراح الحلّ بالطريقة ذاتها ... أما كل هذا الالتواء والجنون المبرقع فينخر في البناء كالسوس ولا أحد بامكانه أن يجاهر بالخلل حيث لا خلل مكشوف . » .

طوى عباءته وأخذ نفسا من غليونه الفاخر : «لربما في ذلك حكمة !» .

«حكمة الشرق في توسطها .. أهكذا .. كل شيء مائع حتى .... » .

وقبل أن يختفي طيفه قال :

«تلك ازدواجية من يعيش ماهو ظاهر وماهو باطن .

سلالة من الازدواجيات يعرفها من يعيش فيها .. ليس بيدنا أن نغيّر شيئا .... هذا هو تراثنا ! » .

« ما الذي يختلف إذن ؟ الكبت في هذا الأمر مثل الحرية فيه :.. متى ترتقي البشرية ! »

لكنه سؤال لم يسمعه ، كان قد اختفى قبله . أحسست أن الأمور محكمة على النحو الذي تمّ تخمينه منذ عصور . تحمل الأزمنة سرّها وتمضي، تترك آثارها وإشاراتها على الخلق . يوجّه العراف استفزازه في وجه الفقيه، ويشيح هذا بدوره وجهه ، فالرؤيا تأتيه مقلوبة في كل الأوقات . «إنه زمن مقلوب» .

هكذا يتحدث ويمضي . يواصل سيره المتعرج في الأودية المتعرجة ، حيث يرى كل شيء ، يغيب في ظلمته وينتهك سيادة النور ، إنما رغم ذلك لا حلول لديه أكثر من ورطة يلقيها في وجهه عابرو الطريق ، ولا حلّ يملكه في يده ليهديهم إليه، إنما يضع عمامته المخطّطة على رأسه ويمضي الى حجرة ليركع ركعتين في كل مرة يقف فيه رأسه عن الدوران . لقد توقف أخيرا عن مخالطة القوم

ووصمهم جميعا بالابتعاد عن صوت الله . وحين سألوه « بماذا أفدتنا إذن . أبتعاليم لا تثمر في الأرض؟» لحظتها تعلو همهمته « لقد نسيتم تلك التعاليم ياكفرة » ولحظتها يجرؤ أحدهم فيرد «ولكن الذين في الأعلى لا يطبقون ... فكيف تريدنا أن نحرث في أرض بور ؟» . إنهم يدركون أنه قد وطدّ صلته بأولئك الذين لا يطبقون ، أو هو بالأحرى يقع تحت طائلة إمرتهم .

حينها فقط يصمت ويدير وجهه عن المتسائل المتطفل بازدراء ، ويمضي ليقدم تبريرات أخرى في مكان آخر ، لم يصل فيه السؤال الى ذلك المنحنى الفاجر الذي يربكه . يعلو صوته مرة أخرى ويبتدع فتاويه « ذلك ما تفرضه الطبيعة !» ، أما صفة العجز في المجاهرة بكل شيء ، وعدم تجانس تعاليمه مع لغة ما حوله ، فيطوي صفحتها للنسيان ، وإن عادت وألحّت عليه بغتة، عاد في هدوء الليل إلى صلواته ولعناته .

(٤)

صادفت العجوز فى ذات الموقع الذى تركتها فيه آخر مرة ، بين الأجساد البرونزية السمراء ، تلوى قدميها فى بؤر الأدغال ، وتكتشف بعصاها مواقع المياه المحتملة ، كانت شاحبة أكثر بكثير مما كانت عليه قبل الآن .

هرعت الى شجرة احتفظت ببعض أوراقها وقالت لاهثة :

« ما الذى أتى بك الى هنا . ألا ترين أنها المجاعة والجفاف يضربان بغبارهما كل شىء » . قلت ببلاهة : «مرّ وقت طويل لم أرك فيه . فكرت أن .... » . سدّدتْ الىّ نظرة غامضة : «بماذا فكرت .... الأمر لا يحتاج إلى أىّ تفكير ... أنظرى حولك فقط وأنت تعرفين كل شىء ... هلْ ما يحدث لنا هنا يدخل فى نطاق العقل . لقد تمّ تدميرنا بالكامل ... الجفاف والمجاعة من جانب وهذا الاقتتال الطاحن من جانب آخر .... لم تكفهم الطبيعة فى جورها عليهم ... أبوا الاّ أن يزيدوا الطين بلّة بأيديهم الملوثة بالدماء والجهل ... » .

ثم قالت بضعف مستدركة «سامحينى ... لم يبق لى من العقل شىء . لقد طار كله » . أحسست بالدوار يغزونى وأنا أنظر الى ذبولها ، والى تلك البطون المنتفخة التى تعلو سيقان متيبسة كالعصى . النظرات المستجدية تجعل من العيون أوضح ما فى الوجه المسحوق . أشاحت وجهها وأكملت : «هل ترين . إنهم يبعثون لنا الأسلحة ليستمر الاقتتال ثم يداوون الجرح بفتات الطعام الذى يرسلونه مع بعثاتهم لتنقذ من لم يمت بعد ... ولكن الكلّ يموت... ينفق فى الطريق كأى حيوان شريد وضالّ ... منذ ذلك اليوم والبؤس رسم ملامحه الأبدية على وجوهنا . ارتكبوا المذابح تلو المذابح ووصموا الأدغال بعار الجفاف والموت. إنهم لا يرون الاّ جبروت السلطة التى يريدون الوصول اليها بأى ثمن حتى لو لم يبق فى المكان سواهم ، يحكمون بعدها النهر والريح... ماتت كل الحيوانات مع آلاف مؤلفة من البشر يموتون كل حين.. لكأنما القدر يد أخرى تسعفهم على فعل الموت . إننا نموت.. نموت دون طائل الاّ لأن الطريق الذى إختطته أقدامهم قد قادنا معا الى فم الموت المجانى . مجرد قلّة تلهو بالأعمار . لقد خلقت الحرب فيهم شهوة الدم والشيطان » .

كان الدخان الأسود يتصاعد من فوق رؤوسنا ، مغطّيا على أنين الذين يموتون بأثر المجاعة والحصار . بدأت العجوز تهذى ، وتلوك مع أنينها عشبا جافا ، دون أن ترفع رأسها ، ثم أسبلت جفونها كمن يتهيأ لقراءة وصيته الأخيرة ، ولكنها عوضا عن ذلك ، انتفضت الى الأمام وأخرجت صوتا يلقى بنبوءة قاتمة :

«إنه الموت قادم من كل الجهات والدم سيلطخ وجه بنى آدم فى كل مكان ... لا شيء الآن سوى العنف .. ثم دخلت غفوة لم أتبين طولها . السماء فوقنا متململة، بلونها الداكن والكالح ، من جراء الدخان الأسود ، فى لحظة فاصلة بين النور والظلام . حريق الجمر يكوى الأرض تحت قدمى وهما تتحركان بعيدا عن غفوة العجوز . أجساد ممزّقة تفترش الأرض المحروقة ، دون حتى حماية القبر . لقد عزّت الأرض نفسها عن أجسادهم لتدثرهم فى ترابها ، كثرة الموتى لا تعطى وقتا لأحد لمداراة الأجساد النافقة فى التراب ، كثيرون يموتون فى ذات اللحظة ، أسماك نافقة بالآلاف على حواف شاطىء بحره مسموم ، يصارعون موتهم بالفجيعة والقذائف . ومثل التمرغ فى صدى صوت أغنية حزينة ، يتدثرون بالعشب الجاف ، يراقبون السماء السوداء وهى تحجب عنهم نجومها ثم يترنمّون بكلمات الموت ، لتنبعث منهم رائحة العفن ونثار الأعضاء المبتورة ، مكسوّة بالرياح المتربة ، وهى تحاول أن تخلص الرفات ، من رائحة الموت وتنشره – تنكيلا – فى الجهات النائية . اختفت معالم الحيوية التى كانوا فيها ، خلفوا وراءهم الخراب والوحشة ، لكأن المكان ضربة زلزال أو إعصار وأودى فجأة بكل الأحياء الى الاندثار . لم تبق الاّ شواهدهم وشواهد حياة كانت موجودة فى يوم ما . ما الذى بامكانه أن يحطم الأشياء هكذا . «إنه الدم الذى سيلطخ وجه بنى آدم فى كل مكان . العنف » . أى مقياس للحرية والانسانية يبقى فى وجه الموت الجماعى والمنظم . هل تستكين آدمية الانسان فى مكانها طالما ينشب الأخ أظفاره فى لحم أخيه ؟

(٥)

لا يزال لعبق المكان تأثيره المغناطيسي على الحواس . صدى الأغنيات الحزينة، يتردّد في الذاكرة قادما من ضباب الحلم الى أرض الواقع . أنصت لجلال السكون ، وأنا أفيق من نوم قلق ومرتبك ، لم أشهد مثله قط . تنتابني مشاعر مبهمة . هل كانت كاترينا والعجوز مجرد ذبذبات وأطياف باغتتني حضورها في النوم . ما الذى يفصل بين الواقع والحلم ، أو بين الحقيقة والكابوس. وهل العجوز لا تزال في غفوتها كما تركتها ، أم أنها جاءت تنبىء بموتها المحقق بتلك الطريقة الفاجعة . مثل كاترينا شعرت بحاجتي الى هواء نقيّ، خرجت انظر الى الربوة المطلّة على الجانب الآخر ، حيث كنت أسير في الليلة السابقة ، قبل أن تهديني الصدفة الى هذا الكوخ الحميم . الربوة موشاة بالورد والسنابل ، ومنفلتة من إطار الأفق ، بتدويرة رشيقة ، تبعث بنداءاتها خلسة الى كل من ينظر اليها . ترتفع الشمس ، تلقى بألقها المسنون على الهضبة المسكونة بالنداءات . أستدير نحو الكوخ ، أجد النور يفترش كل زوايا الصالة والممرات ، المعالم تتضح أكثر ، وادهشتي كان الكوخ يمتلىء بكل الحوائج اللازمة ، والمطبخ يشى أن أحدا ، قد وضع أشياءه في آخر لحظة وغادر . الخبز لا يزال طريّا ، وهناك القهوة والفاكهة ، وأنواع الأجبان المختلفة واللحوم ، تحفّز كلها معدتي الخاوية وتحرضها على الأكل ، يشدّني ذلك الشذى الغريب ، الذى يتسرب من الخارج الى داخل الكوخ ، أرجىء الوليمة قليلا وأنسحب وأنا أراقب المكان حولي قبل اتخاذ أية بادرة . في جزء من الطبيعة الآهلة أجد ، طيفا لرجل عجوز كان يقطع شجرة ، ويحوّلها الى قطع من الأخشاب المتراكمة ، ربما بقصد استخدامها لمدفأته المسائية . من يدرى لعله هو صاحب الكوخ الذى لمحت شبحه البارحة . أمعن النظر ، يرفع الطيف رأسه وأنا أقترب ... ويا للمفاجأة ... لم أصدق عيني وأنا أراه يرفع يده بالتحية المألوفة : «هل نمت جيدا؟» . صرفت مندهشة : «أيعقل.. أنت ! وأين اختفيت البارحة بعد أن شككتني في نفسي وأنا ألمح طيفك خلف النافذة ؟ » .

ضحك ضحكته الطفولية المنطلقة ، « لم أرد إرباكك . عرفت أنك مرهقة وفضلت لك النوم بدل المسامرة » . ها هو إذن ساكن الدياجير والظلمات والمشعّ بضوئه في كل الأوقات . وأنا أقترب اندفعت الى صدره المفتوح . الشمس عالية وتتدفق بدفئها في لحظة تماسي معه ، وعلى امتداد الأخضر المكتنز . وددت لو أبقى هكذا لا أتزحزح عن حضنه ، ولكنيّ رفعت رأسي وسألته : « ما الذي جعلك تستقر هنا وأنت لا تكره شيئا كرهك للبيوت ؟ » .

وأضفت « حتى لو كانت في طبيعة ساحرة كهذه » . ابتسم وهو يمسح على رأسي « كنت أنتظرك» . جعل يحدّق في عيوني ويسحبني نحو تلّة صغيرة . «أرى أن الحزن يكبر في عينيك كل يوم يا صغيرة » . أردت أن أضيّع الفرصة عليه حتى لا يتوغلّ فيما لم أكن مستعدة للحديث فيه ، سألته بمرح مصطنع «ولماذا أنت وحدك ... لِمَ لم تستدع هاجر وأنت تنتظرني » . يزيح بعض قطع الخشب من طريقنا ويراكمها فوق قطع أخرى وهو يقول : «بل كانت معي وغادرت قبل ضحوك بقليل » . أهزّ رأسي مازحة « هكذا إذن . من الواضح أنك لا تضيّع اللحظة أبدا دون أن تملأها بمرأى من تحب » . محاولا أن يفلت من المزحة العابثة « أهذا ما ترينه ... فليكن ... ليس لدّي من سبب للانكار .. ولكن أخبريني هل نمت جيدا » .

لم أنم يا جدّي جيدا ، ولكني قلت باقتضاب وأنا أشيح وجهي عنه «قليلا» .

قال :

« هذا ما توقعته . لقد رأيتك تتقلبين فوق الكنبة وأنا أرقبك بعض الليل .. » .

« حقا . كنت ترقبني ؟ » .

« حقا . وكنت أسمع هذيانك وانخطافك بعض الوقت » .

«ربما . لقد راودتني عدة أحلام غريبة ومشتبكة رغم اختلافها عن بعضها » .

« لم تكن أحلاما ! » .

أوه يا جدّ . في هذا لن أجادلك ، فالوقائع والأحلام عندك مشتبكة . أنظر إليه، أحدق قليلا وأقول :

«ربما . من يدري ! » .

يدفع الحديث هو الى ضفة أخرى :

« ليس هذا ما يهمّ الآن . هل تركت الأخرى تغادرك الى الأبد . » .

قلت ببلاهة مقصودة :

« لا أعرف . أعتقد هذا . على كل لقد تعبت من تقلباتها وأحزانها » .

لم أسأله كيف عرف أنها كانت بعد معى . حتما كان سيرد .

« وهـل هـذا سـؤال يُسـأل يا بنيتى » . وكنت بدوى سأقول : «فعلا . لم يعد هناك ما يدهشنى فى كل ما تفعل . كل شىء ممكن الحدوث معك » . أخذت أراقبه وهو يحتضن كومة الخشب المقطوع ، أحتضن بدورى كمّا مماثلا ثم ندخل الكوخ . يتقدم خطوات نحو المطبخ ، يدعونى لاعداد الفطور . أسأله دون توقع « هل هذا الكوخ لك ؟ » قال : « بل هو لهاجر » ثم صمت . ما الذى قادنى اليه دون الأماكن الأخرى .. وكيف . أخفى الشيخ مبروكٌ ابتسامته وقد قرأ أفكارى وقال : « لا يتوغل الانسان فى الأمكنة ثم يختار مكانا بعينه دون سبب » . هل كان يقصدنى أم يقصد هاجر . هو دوما حين يتحدث ، أشعر أن حديثه يعطى أكثر من دلالة . أحيانا أشك أنه مجرد جدّى ، أحسّ أنه شىء أسطورى مستمر كالزمن نفسه . الصباح منعش ورائق ، ويتمازج مع صوته .

أدهشنى وهو يترّنم بكلمات أغنية قديمة . صوته يوقظ فى الصدر، تحفزاً غامضا وشجنا غير مألوف ، قطعته ، لكى لا أسترسل فيه ، بسؤال « ومتى ستأتى هاجر؟ » قال وهو يقطع أغنيته بالفعل «ستطلّ فى أية لحظة ! »

ثم يعود الى لحنه الغامض ، يدندنه مع نفسه وقد جلس الى جانبى وبدأ يناولنى بعض الطعام . « لا تقولى إنك لست جائعة » أهزّ رأسى نافية « بل جائعة جدا . أيرضيك هذا » . كُنّا نشرب القهوة وهو يعلّق على تفاصيل الزمن منذ أن تركنى . دار الحوار فى أشياء كثيرة مررت بها . واستوقفنى وهو يعلق بأريحيته المعتادة فى بعض منها حتى وصل الى سؤاله المربك :

« ثم ماذا بعد يا شهرزاد ؟ » .

قلت :

« لا شيء يا جدّي » .

يطرق رأسه إطراقة متأملة :

« أيعقل ؟ » .

أحاول أن أردّ بطريقته :

« هل تذكر ما قلته لي مرة حين كنت أجلس تحت السنديانة في بيتنا . كثيرا ما تراودني كلماتك تلك ويراودني وجهك وأنت تقولها : الحرية في داخلنا وهي لا تعطي ثمارها سريعا ... يستوي في ذلك من اختبرها ومن لم يختبرها بعد » .

ظننت أني أريحه وأنا أصل الى حكمة وصل إليها قبلي بكثير لكنه يفاجئني بقوله :

«أبعد كل هذا الترحال جئت بهذه الكلمات التي سمعتها منيّ » .

يزداد ارتباكي . أريد أن أتحاشى خيبة ألمّ بي قبل أن تلمّ به . قلت بأسى :

« بل أشعر أن شيئا لم يبدأ بعد » .

قال بسخرية مبطنة :

«هكذا نحن بني البشر . سنبقى لا نقنع بأية حالة نحن فيها ولو استدعى وصولنا اليها عمرنا كله . » .

تعلو وجهه مسحة من السكينة ويدخل المطبخ .

ماذا كان يتوقّع أن أصل اليه . ولماذا يتصوّر أني غير قانعة بما يجب أن أقنع به ، ولكن المسألة ليست هكذا ، إنما التجربة تزيد الانسان إرباكا وغواية ، حتى لو ألمّ ببعض تفاصيلَ لم يكن يدركها . ليست المسألة أن ندرك ونرى فقط وإنما أن تتغيّر الحال التي ندركها ونعي خللها وذلك ماليس بأيدينا ... يزيد الحزن ويكبر ويتسّع ليصبح بحجم مجرّة قد تبتلع كواكبها ولا يتغيّر بعدها الكثير مما حول ذلك!

أسمع صوته من المطبخ يناديني :

«أما كنتِ تبحثين عن اختيار ذاتي للأشياء ! » .

أتحرّك نحوه وأقول وأنا أرمقه باستسلام :

«أتعتقد أنيّ اختبرت شيئا . الحياة أكبر من ذلك بكثير .. وحتى هذا الذي عايشته يبدو الآن هلاما أو سرابا ... المجتمعات عاجزة عن أن تبلور رقيّها حتى ضمن ما تتصوره هي من أفكار ... أليس ذلك ما يجعل منّا نحن الافراد مجرد كرة صغيرة في ملعب كبير » .

يجتاحني بغتة حزن كالاعصار . أرتمي في حضنه دون أن أبكي رغم رغبتي الملحّة في فعل ذلك بين يديه . لم يكن بمقدوري أن أشعره أنيّ مخذولة الى هذا الحدّ .

يسود صمت يقطعه بدعوة صغيرة :

« تعالى نشرب الشاى خارج الكوخ» . أوافق ولا أضيف شيئا .

ونحن في مواجهة الأفق يغمرنا ضوء الشمس والعراء المكشوف .

قال مشجعا :

« لا أنكر أن المسائل ليست بسيطة ... لا تتضح ولا تُحلّ بمجرد معايشتها . الأمر بالطبع أعقد من ذلك بكثير ... ولكني كنت أتوقع على الأقل ... ماذا ... لنقل مزيدا من الصلابة من جانبك تجاه الأشياء » .

هكذا هو قرأ داخلي تماما . أستردّ من استفزازه لي بعضا من قوة وأنا أوضّح :

« وما دخل الصلابة في الشعور بالخذلان . خذلتني المعرفة ولكن لمْ تخنّي صلابتي بعد » .

أقطع السؤال بهاجس ينتابني قبل أن أنتظر ردّه :

« هل تعرف . اشتقت كثيرا الى أمي والبيت . أحيانا أتمنى العودة لمجرد أن أراهم ... وأنا أجلس بعض الشيء تحت السنديانة مثلما كنت أفعل سابقا » .

علّق ضاحكا :

«وتتغذيّن بالخيال كما كنت تفعلين أيضا ... » .

أردت أن أسترسل فى شوقى لعالمى البرىء ذاك فإذا بى أرى وجهه وقد اكفهرّ كمن تذكر شيئا محزنا :

« ولكن لا ... لا تفعلى ذلك يا شهرزاد ! » .

« ما الذى لا أفعله يا جدّى ؟ »

تتسّع حدقتاه :

« هل نسيت أنك هربت . هل تعرفين ماذا يعنى هروب الفتاة من بيتها هناك... إن إخوتك.... » .

لم يكمل . أدار وجهه نحو الرابية وجلس يتأمل . باغتني خوفه من مجرد الشوق الى البيت . كنت قد نسيت ما يتبع تصرفى ذاك من عواقب . تنتقل الىّ عدوى توجّسه وأنا أسأله :

«وهل يعنى هذا أن أظل مرتحلة هكذا الى الأبد ؟ » .

أشعر بقسوته لأول مرة وهو يردّ :

« لقد أردت أن تكونى وحدك ... مقطوعة من صلة الدم والرحم ... استبدلت بهما المعرفة فى مكان لا تسمح فيه النواميس حتى بخروج البنت من بيتها وحدها... لقد وضعت إذن مصيرك بين يديك ... أردت أن تكونى حرّة ... أن تكون حياتك محكّ اختبارك الخاص ... أن تولدى فى الكون مجددا دون قيودهم وسلاسلهم ... اخترت الوحدة فى العراء ومهما كانت ضراوة ذلك فقد نجحت فى اجتيازه ... والآن تقولين إنك بشوق ... أليس ما فعلته هو ما كنت ترغبين فى فعله.... الشوق يعنى التفكير فى العودة ... العودة الى الوراء بعد كل الذى قطعته وربما حتى ذلك لن يتسنى لكِ ... إن إخوتك ... » .

ولم يكمل مرة أخرى . ما الذى يخفيه . قلت وأنا غير مصدّقة لكل ذلك التوبيخ:

« يا جدّى .. لقد انتابتنى فى لحظة شعور بالتعب والحنين ... ولم أقل إنى أريد العودة ... أعتقد أننى لا أريد ... الى جانب أنى لا أجرؤ .» .

قال بصوت خفيض وكأنه لم يسمعني بل يجترّ مع نفسه أفكارا خاصة :

«بعودتك لن يبقى أي شيء » .

لم يفصح أيضا . أدركت أنه يومىء لرد فعلهم القاسي .

الشيخ مسعود وأبنائه ... تماما مثلما رأيت مطاردته للغزالة في ذلك الكابوس الذي أعيشه الى الآن .

الشيخ مسعود الذي لم يأخذ من الأعراف والتقاليد الا مظهرها ، وحتى ذلك المظهر بامكانه أن يهرقه سراً تحت أقدام الأبكار إن صادف واحدة منهن ، مثلما فعل مع صفية وغيرها قبل ذلك . يردّد التعاليم ولا يرتدع بأي منها . هل هو الذي سينصب المشنقة إذاً وله كل الحق في ذلك حسب عُرف ما حوله . من يحاسبه قبل أن يحاسبها .

قلت للجدّ بلا مبالاة هذه المرّة :

« هل هو الكابوس الذي ينتظرنا في آخر الرحلة ؟ » .

هل كان يهجس بذات الفكرة التي كنت أهجس بها :

«ليس بيدنا أن نُبقي الأشياء كما نريد لها أن تبقى أو نغيّرها حسب ما نراه... والاّ ما كان من جدوى لأي شيء نسعى اليه ... لا يخلو الأمر دائما من عواقب مزعجة وربما قاتلة » .

ينزلق في حفرة عميقة ثم يطفو على مياهها الآسنة ولا يطلب مساعدة أحد . أدركت أنه مأخوذ بنهاية لم يتوقعها ، لمجرد أن فكرة وجودي هناك قد باغتتنا معا . أنزلق مثله في الهوّة السحيقة وأطفو مثله ، مأخوذة بحالة الطفو مهما كان الانزلاق صادما . ومثله أتوق لنحيب ناصع يزيح شؤم الكابوس الأخير . ولكن ماذا لو فكرّت فعلا في العودة إليهم . أعتقد أن الصياد الذي كان يقتفي أثر طريدته في فلول الليل يفقد الأمل في إيجادها ... في تلك اللحظة عينها ، يرى مستغربا طريدته تتفيأ شجرة بيته ... لابدّ أنه فاغر فمه دهشة لمثل ذلك الوقوع الأبله الذي لم يتخيّله . أما تلك المناوشات والمجازفات التي دخلها ، كاستعداد يليق

بالطريدة الضارية فقد ضاعت كلها هباء ، لمجرد أن الغزالة البلهاء جاءت للشرك برجلها ، بعد أن دوّخته ونجحت في مراوغة كل محاولاته .

قلت والفكرة تسيطر على رأسي :

«أشعر أن هناك ما تخفيه عنّي ... وهذه ليست عادتك معي يا جدّ» .

وكأنه أراد أن يخلص من ثقل يجثم فوق صدره :

«لقد عرفت أن إخوتك يبحثون عنك في كل الأصقاع!» .

يفاجئني قوله :

«أبعد كل هذه المدة؟» .

«بل هم لم يتوقفوا قط عن البحث ولكن مشاغلهم كانت تعيقهم أحياناً» .

«إلى ماذا يسعون ؟ إلى دمي ليستعيدوا به براءة شرفهم المطعون؟» .

حدجني بنظرة مترقبة قبل أن يتهيأ للوقوف ، وما إن وقف حتى شرّع صدره للهواء والشمس وغطّت نورانية ملامحه وهو يتمتم مستديراً نحو الداخل :

«لكل شيء أوانه ... لكل شيء حلّ ... دعينا الآن من هذه الخواطر الكئيبة وسنناقشها معاً فيما بعد» .

كلامه أدخل بعض الطمأنينة إليّ . أحسست أنه لن يتخلّى عنّي مهما حدث ومهما بدت الأمور الآن معتمة . لم أعد أعبأ فليحدث ما يحدث . حدس خفيّ يداخلني ، أن أترك الأمر الآن وأستقبل إحساسي بوجوده الآسر معي . مجرد دقائق أخرى وتطلّ هاجر من الباب . كانت في كامل زينتها وتألقها ، على عكس ما رأيتها به ، في المرة الأولى . لم أبد أية دهشة لذلك ، وأنا أراها توبخني بلطف:

«كوخ متواضع كما ترين ... لن أسألك إن كنت قد ارتحت فأنا أعرف أن الكنبة غير مريحة – تستدرك – ولكن لماذا لم تنامي في الغرفة المهيأة للنوم؟» .

أضحك وأنا أمازحها :

«كيف لم أحدس أن هذا الكوخ لك أيضاً خاصة وأن به لمسات مماثلة لما كان في الكوخ السابق الذي رأيتك فيه أول مرة . هكذا أنت امرأة الأكواخ الجبلية ! ..

أو امـرأة الجـبل ! – أضـفت – ولكن إفـرضـى أنىّ قـد عـرفت أنه لك فـهل كنت تتوقعين أن أؤثر نفسى بالراحة على حساب راحتك أيتها المرأة الطيبة ؟» .

هنا ردت بتوبيخ مضاف :

«هذا يعنى أنك لا تعرفين مكانتك عندى يا ابنة الترحال !» .

وأنا أسمعها تسللت الجدّة إليّ فى برهة خاطفة كالبرق . أتأمل وجه هاجر ، هناك شبه ما ، غير مرئى ، بينهما . ربما بعض حركاتها أو نوع معاملتها لى ، منذ أن رأيتها فى الكوخ الجبلىّ الأول هناك . ولكن مـاذا لو أن الجّد كـان رجـلاً عاديّاً مع الجّدة ، يتصرف معها كما يتصرّف بقية الأزواج مع زوجاتهم ، هل كانت الأوضاع حينها تتّسق بما يتناسب مع كينونته الخفيّة . هل السّر مثلاً فى تلك الكينونة الذاتية ، فى الكائن الداخلىّ الذى يطويه كل منّا خلف جلده ، وما إن نُظهر ذلك الكائن حتى يحدث أن يفهمه فينا من لم نتوقع منه أى فهم أو تعاطف... مثلما كانت الجدّة مع الجّد ... ها أنا أتأمل للمّرة الأولى جانباً آخر فيه ، أحسّ أنه خُلق من صوت الرياح ومن فجائيتها ، غضبها ورقتها ، ومن يصادق الريح أو يُخلق منها ، يدخل تلك المنطقة الغريبة ، حيث لا اعتدال ولا تعاليم ثابتة . القلب الكبير وجّه دفّته للكشف ... كشف كل ما هو خارج الحدود ، وما إن يجتاز تلك الحدود الخافية حتى لا يعود نفسه كما يعرفها ، لا يعود ذلك العادى ذو السجايا الواضحة والمعروفة ، يدخل اللغز ويتحوّل الى كائن بألف كائن . قفزة مرعبة فى المجهول ثم يستمدّ منها كل جبروته واختراقه للمألوف . الريح تعلّمه قوانينها وتعطيه دفقها الجبّار . تكشف له المعالم والاشارات ، وتأخذه الى حيث لا يعود نفسه أبداً ، وإنما آهل بالصوت المبهم ونداء البحار ومتاهة الصحارى . إنه ذلك الذى لديه عّدة وجوه ، وكل يوم يمضى تتناسخ الوجوه بوجوه أخرى ، ليس التعدّد هنا بمكيال النفاق والتلوّن الخبيث ، وإنما بميزان الثراء الداخلى وتشكّله . كائن عميق مثل البئر أو سيرورة الكون وأفلاكه . ليس سوى الصمت ما يحتاجه بين حين وآخر ، ليس الأرض ولا خيوط الماضى ، إنما تدفّق الزمن بما لم يكشفه له بعد . أمن أجل ذلك أنا فى حنين دائم اليـه ، ولا يضـيرنى هذه اللحظة وجـوده

الحالم مع هاجر رغم شدّة تعلقي بالجدّة التي تركتنا ورحلت ... هل ذلك ما كانت تعيه الجدّة نفسها ؟!

هذه المرة صوت هاجر هو الذي يقطع تدفق الخاطرة :

«كنّا بشوق اليك ... في الليلة الماضية لم يكن هناك ما يشغلنا أنا وهو غيرك».

أقفز إلى جانب آخر من الفكرة وأتساءل متخابثة :

«ظننت أن الأمر بينكما كان أفضل من ذلك ... من مجرد الانشغال بي !» .

تتدارك ما أوحيت اليه فترد وابتسامتها لم تفارقها :

«كل ما بيني وبينه دائماً هو الأفضل!» .

ربما هذا ما يجعلها تبحث عنه ، وتنتظره باستماتة الحالم . حب كالخيط الرهيف ، لكنه القادر أن يصل بين حياة وحياة ، كائن وكائن كأقوى ما تكون الصلة ، من أجله قد تنتحل الأقنعة ، وتضطرب في وجوده ، مثلما لاحظت ، كمراهقة صغيرة .

ينهض الجدّ ويسحب هاجر من يدها :

«قومي الآن معي فلدينا الكثير مما ينتظر أن ننجزه ... لم تتناول فطورها جيداً هذا الصباح وهذا يعني أن نعاقبها بشيء دسم يصلح للغداء والعشاء معاً».

ثم خاطبني مباشرة :

«هل توافقين ؟» .

أسعدني أن أنظر إليه وهو يمسك بيدها هكذا :

«ليس هناك ما يدعو للغبطة أكثر من أن أراكما سوياً تعملان!» .

دار دورة مشاغبة حول نفسه وقال :

«هذا يعني أنك قد نفضت يديك تماماً من العمل معنا ... ولكن لا بأس ... اليوم سنعاملك معاملة الضيف» .

وقبل أن أجيب ردّت هاجر :

«بل سنناديها حين نراها مهيأة لذلك ... أعتقد أن هذا يلائمها أكثر من مجرد كونها ضيفة تعدّ الدقائق انتظاراً للطعام» .

«جميل ... سنبدأ نحن إذاً منذ الآن ... سنتبل في البداية اللحم – قال موجهاً كلامه لي – هناك أصناف عديدة منها ستتذوقينها وتأكلين منها كلها ... هذا فرمان من الجِّد !» .

انسحبا وهما يتضاحكان . كانا في أحسن حال فعلاً وهما معاً .

تساءلت : لماذا ينفصلان إذاً بين حين وآخر ، وهي التي تعرف جيداً كيف تجذب رجلاً مثله ، دون أن تشعره بمحاولتها لامتلاكه ، مثل الجدة في ذلك أيضاً . لعلهما تدركان بذات الحدس ، والدرجة من الحساسية ، ما يجمعهما بطائر ، قدره أن يطير ، ثم يحطّ على غصنه الأثير حين يتعب . يداها تلامسانه بلطف ، مثل زهرة نديّة تأبى أن تخدش اليد التي تلامسها . هو رجل كل الأوقات بالنسبة اليها وهي ، بعد الجدة ، أنثاه المفضلة . لا يهّم في أيّ الأوقات يلتقيان ، فكل الفصول مهيأة لذلك اللقاء . لا تفارقه دهشته ورقّته وهو يجالسها ، ومثلما تفعل دائماً ، لن تستبقيه إذا أراد الرحيل ، ولن تسأله متى يكون موعد اللقاء القادم .

بين لقاء ولقاء هي في انتظاره مثلما هو في انتظار عودته اليها . أتلك الحرية المستحيلة التي يتبادلانها في كل الأوقات ، ودون أي تصنّع أو نقاش ، هي ما تحفظ الجذوة مشتعلة بينهما دوماً ؟

ربما هناك ناتج من الحزن في الفراق المتناوب . ولكن أليس ذلك الحزن الشفيف أيضاً ، مثل حبهما ، هو ما يؤججه ويشير اليه ؟

ما معنى حب دون حزن ؟

حتماً هو لا يكتسب صيغته الجدّية ، الا بذلك الشجن الذي ينبيء عن كل الأشياء ، ولا ينبيء عن شيء في ذات اللحظة ، مثل الحياة ذاتها .

وماذا عنها هي ... من بامكانه أن يدرك ما تشي به خطواتها ونوازعها . لعله ذلك الرجل الغامض ، الذي التقته في الأدغال وطغى عليها بنورانيته ، واستطاع أن يلامس مخزونها الداخلي بشفافية متناهية ... هو وحده الذي قال :

«لا أقطع طريق امرأة تريد الترحال» . ولكن ماذا لو قطعه بين حين وحين ! مثلما يفعل الجد الآن . هل كانت حالتها معه ستشبه حالة هاجر مع جدّها أم العكس .. ومتى كان الحب يتعارض ، مع البحث عن أشياء أخرى بذات الأهمية ، يقف هو الحب ، على رأسها على أية حال .

لماذا كانت تتصوّر ، أن المرء يجب أن يتخلى عن كل شيء ، ليكسب ذاته ، مثل عالم جليل منكفيء على ذاته وأفكاره ، وزاهد في كل ما عداهما . هل هي فلسفة الشرق التي رسّخت هذا المفهوم أم أن الأمر في كل مكان وزمان يستدعي ذلك . أين ترحل إذاً أمطارها ونيرانها حين لا تجد ما تمطر فوقه أو ما تشعله ؟ ربما الامتلاك ، ورغبة الاستحواذ ، هو المنحى الخطير في أي جانب ... ولكن هل يستكين ما بين امرأة ورجل دون هذا الامتلاك . الحب أنانية في نهاية المطاف وهو امتلاك ، شاء احدهما أو لم يشأ. الزمن، الى الآن ، لم ينتج بعد ثمار المحاولات الدؤوبة في نفي ذلك .

ما بين هاجر والجّد، يبقى الصمت بينهما هو جذوة الاشتعال والارتحال ، هي لا تتطلّب حبًا انسيًا متداولا ... كل رجل ، لايقنع الاّ بامتلاك أنثاه ،مهما شرد أو حاول الافلات من قبضة هذا الهاجس ، الذي يرقى لطبيعة الغريزة، والا كانت ، تلك الانثى بالنسبة له مجرد حالة عابرة أو مجرد محطة قادر هو على عبورها للضفة الأخرى، في كل مرة يرغب فيها في العبور، ولكن الجّد يشعرها أنها الضفّة الدائمة حتى لو لم يمتلكها ، وهي تعرف ذلك جيدا بغريزة وحدس الأنثى . ومثلما هما الآن ، يدخلان معا طقوس الألفة والمشاعر الحميمة ، وهما يعدّان شيئا للشواء، فانهما يفعلان ذلك في كل الأحوال الأخرى .

لماذا الشواء ؟ لماذا الليل والجمر يرتبطان بطقوس العشّاق، أو حلقات السمر الليلية الأليفة ، بين بشر متلاحمين. لكأن نيران الشمس الحارقة التي تهدأ في الليل تحرضّه – وهو المرتحل دائما – على استعادة ذاكرة الجذوة المشتعلة ، ضمن مدارك رمزية وجمالية مختلفة وأخرى. النيران هي دوماً رديفة الحب في كل طقوسه .

مع كائن آخر غير الشيخ مبروك كان بامكانها أن تسرق نفسها فى خلوة عابرة. معه وحده لا تعبأ بأية خلوة، لأنها تكون فيها وهى معه. الذبذبات الطاغية تأخذ مساحتها الكليّة فى حضوره .

هما الآن معاً ، يعدان المكان لشواء الغروب. اختار الشيخ مبروك تلك اللحظة الفاصلة بين هيئة زمنين لاشعال ناره. تتّضح الألسنة النارية ويتضح لون جمرها ، مأخوذ هو بلون النار، جلسا متقابلين على التلّة القريبة، يبدوان مرتجفين بلغة القلب التى لا تهدأ ولغة الأشعار .

قام بخفّة ، جمّع الحطب المتكوّم وبدأ فى إيقاد النار .

قال وهو يسافر بعينه نحو الجهة التى أجلس فيها قريبا منهما :

«هذه لمجرد الدفء فى البداية.. أما المراسم فبعد قليل» . تطايرت رائحة الغار. إنها لا شك ، تذكّره بطقوس الفجر الليلية التى ارتادها مرارا . الجبال تبتلع الرائحة ، والمجهول النارى يطل برأسه بين أزيز الخشب وهو يتفحّم . فى جهة ما بعيدة، ارتفع صوت عواء ، قد يكون ، تشمم رائحة الوليمة وطقوسها عن بعد . شيئا فشيئا ، حلّ المساء ، وانطفأ الضوء فى فلواته الفالتة من كل الأطر . كانا ملتصقين ويتهامسان فى أول الظلام وأنا أقلّب فى الفحم الذى تحوّل جمرة. ضحكة خافتة انطلقت منها اليه .

ما الذى كان يوشوشها به ليحوّل قلبها الى فضاء نور. وهل هو يقول أكثر عندما لايقول . لا شك أن الذى يخفيه عنها كثير جدا. ولكنه يدرك انها تحدسه دون أن يقوله ، فهو قد خُلق ليعبّر عن نفسه بالرموز والاشارات أكثر مما يعبر بالحروف والكلمات . هل عادة كل الذين ينطوون على ألغاز كبيرة، بشر صامتون فى أغلب احوالهم !

المساء ..

يتسرب شذاه اليها وإلى هاجر وهما يستمعان الى حكايات الجدّ الجديدة ، ورغم طقس التالف مع هاجر، إلا أنه يمتلك قدرة تزجيتها ، فى الشحنة الممتلئة بينهما، وكأنهما خُلقا هكذا كمشهد أزليّ فى الطبيعة ، مشهد نورانى يخصها

بهما وحدها . غاية وجودهما هكذا معاً أن تعيش هى الطقس وليس هما .

سألته :

«كيف هو العشاء ؟ أين هو ؟» .

كان يحرّك الجمر وهو يقول :

«ألم أقل لكِ إنه سيكون عشاءً دسماً ...» .

مشيراً إلى طنجرة كبيرة :

«هنا ترقد كافة أنواع اللحوم المتبلّة ... المرة الأخرى سنشوى غزالاً» .

تذكرتُ الحلم . الشيخ مسعود والغزالة المطاردة .

قلت مداعبة :

«أتمنى أن لا يكون العشاء الأخير !» .

تغيّر لون وجهه . يدارى إحساساً مكبوتاً لكنه يلتفت بثقة نحوها :

«أؤكد لكِ أنه لن يكون» .

الليل البهيم

كمثلـى لـم يَهـمْ بهـذه الـدنيـا أحد
وعلـــى هـــذا فلـــو أنها قُرَبَتْ إلىَّ.
مغنمـــا بـــــارداً لصحــــت ولـــو
طفل أنا بعد ، : هيهات ، هيهات ! ..

سيوران
«توقيعات»

(١)

ما سرّ الليل ؟

لماذا تذهب الأفكار فيه بعيداً ، وتتّشح المشاعر بحضورها الكامن ، وكأنها على وشك الانفجار .

من تلك النقطة الهيولية ، التى لم أعد أذكر شيئاً عنها ، بدأت المرواغة بينى وبين الليل . تعاودنى الأسئلة ذاتها ، وأنا أقرأ صفحته المدلهّمة . وكما فى فنجان قهوة ، تتعرج الخطوط فى سواده وتتداخل ، لتجىء غجرية غامضة ، فتفك الاشارات ، أحاول بحواسي المتنافرة ، أن أقرأ البياض فى أفق الفنجان الأسود .

ورغم ما يتيحه هذا الليل من قدرات ، تتواثب فى كل ما فيه، بشكل سرّى وخفىّ ، الا أن الحدقة تبقى متطلعة دوماً، إلى ضوء يتسرب مع الفجر بعده . تصحو كل الكائنات بعدها وتنام حواسي ، فالليل هو موعد الصحو مع الكمون ، وتلك العوالم الداخلية الغريبة ، التى قد تتبدّى حيناً ، أحلاما مشحونة بالدلالات ، وتتبدّى حينا آخر كوابيس تنشب أظفارها فى ورم هواجس داخلية مرعبة، فتهيئه للطفح واخراج ما فيه، لكأن الذى يحدث لم يحدث ، أو هو قد حدث قبل أن يحدث، وإنما فى سياق آخر وفى زمن آخر .

فى ظلال ذلك الصمت ، يدخل كل شىء ، هدوءه وربما صخبه، وهو يحاول أن يستأنس ، فورة الظلام المتكاثف فى فضاء ملغز . مأخوذة بالكثافة والأسرار التى ترافق الأمكنة ، عشق يستبدّ فى حينه، تجاه ما هو مستور ، وتخبئه الكائنات فى حين خلوتها مع ذاتها ، أو مع الآخر الذى يشبهها كثيرا، إن صحّ التقدير. جموح طافح فى أن أعيش حيوات الآخرين كلها دفعة واحدة، لا يفتّ فى عضدى ، الاحساس بأنها قد تكون مجرد حيوات متكررة ، فليس ذلك وحده، هو ما يثير الفضول ، الهاجس يصل الى ما هو أبعد، الى سبر حدود الأغوار البعيدة فى النفس، والتى عادة تتكشف أكثر فى الليل البهيم، وسبر تجليات الطبيعة بجبالها وهضابها وبحارها، وما تتبادله مع الكائنات من ألغاز وغموض .

وتلك اللحظات الاستثنائية، التى يدلهمّ فيها الليل، فيوارى خلف حُجبه، آهات مشتركة تنبعث من ملايين الأفواه فى لحظة واحدة، وكل خلف جدار بيته الموصد، حينها ينزلق الوقت نحوهم، ويؤجج فيهم الحب، ثم يتوقف الوقت عن سريانه، ليصطاد معهم، تلك البرهة الحميمة، والخارجة من إطار الجسد المحدود الى آفاق الروح اللامحدودة، ولولا ذلك لعاش البشر كحيوانات البرّية ، يضاهونها فى شراستها . ولكن لم الحيوانات بالذات، رديفة المنفلت من الطبائع؟ هى أيضاً تعيش ما يعيشه البشر، تسرق من الزمن وقتها الخاص، وحميميتها الخاصة، وربما تدرك أكثر من غيرها، طبيعة ما تهدر به الغرائز، فتتصرف معها بتلقائية، دون أن تعبأ كثيراً أو تبالى بالفخاخ المنصوبة، وهى فى إسترخائها، أو النواميس لأنها لا تعرفها، أو الزوايا المحفوفة بالخطر، لأنها لا تراها، خطر الكائنات الأخرى، القادرة بوحشية ذكائها المعقدّ والمركب، أن تلقم لها الموت بطعم رخيص .

هكذا، وحدهم البشر، سلالة العنف المنظم، قادرون على الفتك الأقصى، بكل شئ بما فيه أنفسهم. تتساوى فى ذلك الحكمة والحماقة، فلكل منهما تضاريسه وأساليبه، وهم منفلتون نحو خلق الغايات، التى تبدو فى ظاهرها منظمة بالقوانين، وهى فى حقيقتها وُجدت لتتيح لهم مزيداً من الفتك، وأن يستبدّوا بكل شئ وفى أية لحظة، والقانون فى النهاية لا يحمى المغفلين ... آه ما أكثرهم ! هؤلاء المغفلين !

آى سرٍّ لهذا الليل ؟

ومن أين تجئ الوجوه المتعدّدة والرموز المتناقضة لكينونته؟ مثل شجرة النار أو عاشقة الغابات المحترقة، مثل نيرون الذى أحرق مدينته، لينتشى بمشهد الحريق وألسنة اللهب، مثل أولئك النوبيين الذين يؤمنون بسكان قاع النهر ويتصورونهم يسكنون مدناً ليليّة كاملة، بقصور وشوارع وطواحين، بل وبسواقى أيضاً وهم فى جوف الماء الحالك ... كل هؤلاء وغيرهم يأخذ فعلهم بهاءه ويستمدّ رونقه في الليل.

حضارات بأكملها، تأخذ بعضها، صفة بلادتها وتخلفها، من الوجه الأول لليل: الظلام ... فيستبدّ القائم على شؤون الخلق، بطغيانه، ويكّشر عن أنيابه الصفراء ضمن طقوس، قيل إنها، ظلامية، يتربصّ فيها بكل ما هو ، خارج المعتقد الأسمى للحضارة البليدة، ولو كان عُرفاً أو تقليداً بائداً .

مثل كل ذلك وغيره، هناك أيضاً ما يجمع بين خواص الليل؛ وسرّه، وخواص الوهم . فكثيراً ما تكون الحقيقة مجرد وهم، ويكون الوهم هو الحقيقة، ما دام الليل يغطيه ويستمد لباسه من تعاليم الظلام . أكثر شرائع القتل والخراب ، تأتي من الوهم، الذي يأخذ لباس اليقين أو الشك ... ثم تدخل الضحية حلمها أو كابوسها ... بهما وحدهما تقتل الملك، وتدمّر هيكله، وتلعب بصولجانه ... مجرد حلم وتنفيس عن العجز الواقعي، فلا تجد أمامها الاّ الحلم، تتوحد من خلاله السلطة العليا، بسلطة الذكورة المستبدة بتفاصيل الحياة ... والضحية تقتل الاثنين معاً ... مجرد كابوس ويمضي ، ويخال لها إنها قد قتلت الأب أيضاً، ذلك الأب المحكوم بشكوكه وتعاليمه، فهل أنجزت في الليل والنوم ما كان ينبغي إنجازه في النهار والصحو ؟ .. الضحايا تعتقد ذلك ، ولايبقى لأحدها ، الاّ أن تناجي بعدها الأعضاء والحواس، وغالباً ما تكون للنساء . في المناجاة تودّ لو تقول إن اليدين ليستا لمجرد الترتيب المنزلي، ولا العينين لمجرد رؤية ما هو تافه ، ولا العقل لمجرد ترديد التعاليم الجامدة ، ولا القدمين لمجرد الدبيب الأبله في الطرقات الملتوية لمدينة رملية، وليس الجسد لمجرد التغطية والمواراة، أو كوعاء للحمل .. فالحواس تومىء بمدائحها لما هو أسمى وأعلى في الكشف ، إنما هي هكذا سادرة في اللافعل، وفي فراغها، تحت حماقة الوصايا المحفوفة بالأسيجة والظلام .. ما فعل آخر لرموز الليل هنا ! .

ما السرّ أيضاً ؟

ليس الخارج أو الظاهر، هو ما يشي به، وإنما ذلك البرهان الداخلي أو الباطني على وجود الشئ فيوجد، الانسان صنيعة فكره ومعتقداته وليس صنيعة الحقائق .. ألهذا يعطي الليل مثلاً كل المساحة الفائضة ، للالتقاء بعوالم الخفاء ؟ أهو الليل، صديق الاسرار والألغاز والمبهم .. مؤازر الجنون والهذيان والكوابيس والأحلام ، تقارن العتمة الداخلية، التي للنفوس بعتمته، ليبقى الجهل بالنفس، وتلك المناطق المتوارية أكبر من أي جهل ، لا يكشفها الانسان إلا في لحظات بصيرة خاطفة. مثل السنابل تتمايل برهافتها وضعف هسيسها ، وفي لحظة بصيرة غريزية تتضح لها الرؤية.. أن ريحا قوية قادمة لتقتلعها ، فتنحني لها مادامت باقية، لتعاود بعد ذلك استقامتها .. ألا يشبه ذلك ما تفعله النفس البشرية

الجاهلة بأدغال عتمتها الداخلية ، إنما بصيص إدراك خاطف ، يتيح لها رؤية مباغتة للضوء فتتصرف وفق بصيرتها في أفق ليلي ممتد .

طبيعتنا ذاتها تشبه الليل، التخفّي والمبهم وغير المنظور مرة أخرى . مثل الليل نبطن أكثر مما نظهر ! قادرون على الايهام، أكثر من قدرتنا على الكشف والافصاح أو الوضوح . ومثل الليل أيضا ينقلب المخفّي فينا على ذاته بغتة، وإلى نقيضه . فينا جميعا ذلك السرّي الذي لا يراه أحد، كالمساحات المجهولة في الطبيعة ، حين لقائها الدوريّ بالليل، حتى الريح العاتية، ليس بإمكانها أن تبدّد ذلك السرّي ، قد تجعل من المياه المنسابة ، في الممرات السريّة للطبيعة ، أو للنفس، مجرد صوت غامض ، يتسرب من بعيد، دون أن نعرف مصدره .

ما الذي بامكاننا إذا أن ندركه غير أوهامنا عن ذواتنا والآخرين . وتلك الرحلة المضيئة من أجل أن نفهم أكثر أو نعي ما لا نعيه ، الى ماذا تؤول في نهاية المطاف. وهل حياة واحدة، في مدى زمني قصير، تكفي لسبر غور كل ما حولنا ، وهي تنام في خفائها بعد كل شيء ، ومساحات الليل فيها تفوق كثيرا المساحات المضيئة والمكشوفة ! قد نصل في برهة خاطفة او فالتة الى فهم المعنى.. ما الذي خلق تلك البرهة الكاشفة ؟ هل هو الارتحال نحو الخارج ام نحو الداخل في أنفسنا ؟ أم هناك اشتراط لأسبقية أحدها على الآخر ؟ وهل الوعي يسعف في الكشف ، أم أن وعينا قادم من الوعاء الذي يوضع فيه أي شئ ، فتتحول الأوهام إلى حقائق في مخلطه ! . أمن أجل هذا تكون الكائنات الفطرية ، وغير الواعية ، أقرب بغريزتها وحدسها ، إلى الارتباط بحدس الطبيعة ؟

وبالنسبة للبشر ، لماذا الحب بكل تجلياته الإنسانية المتفرعة ، وحده قادر على كشف المخزون الهيولي الرابض فينا . وحين تتداعى الكائنات نحو ذاتها الشفيفة ، تكون قدرتها على الكشف أكثر ، رجحاناً للاتصال بطبائع العلاقات ذات الغور البعيد . مثل قُطيّن يناوش أحدهما الآخر برغباته المحمومة ، حتى إذا اكتملت المناوشة ، وفعل إله الرغبات فعله ، هدأ .. القطان قليلا ، بعدها يستسلم الطرف الرافض ، لفعل المباغتة التي كان يرفضها ، لأنه يدرك بغريزته أن الأمر في حقيقته لم يكن اعتداء ، وإنما مراوغة

حواسّية واستنفار لما هو موجود فيه وكامن .. وتعبير عن الرغبة المتبادلة في الاتصال الحميم ، كل مع الذى يشبهه ... مجرد وجه آخر للغريزة أو للطبيعة ، هكذا يتمكن الطرف الأول من سبر الغور البعيد فى داخل الطرف الآخر حتى لو كان قطا وقطة .

ثم ماذا ؟

قد يدخل الليل بعدها ، فى فوضاه ، وجنونه ، وشغبه . وقد تعصف الريح به ، وبكل ما يخبئه فى ظلاله المعتمة ، وقد تجىء عاصفة رملية تقلب كل هدوئه العميق والمسترخى . قد تجيش حينها ، العناصر كلها ، وتستنفر طقوسها الكامنة ، وهى تواجه العصف الفجائى .. قد وقد .... ولكن كم هى وقورة العناصر ، حين تقتفى فلول الليل ، تناوش إغواء الشرك المستفحل ، فى عزلة جسورة ، فيما الدّوامة الرملية العاصفة ، تلعب ببقايا خرابها ، ثم لا تجد أمامها الا أن تخجل أخيرا من المقاومة الضارية للعناصر ، لها ولقوتها الحمقاء ، ينكمش الرمل على نفسه ، ويعود إلى طبيعته كعنصر متوحّد مثلما هو ، مُدارياً خجله فى أحضان الليل المستتر ، والذى لا يكشف سرّه أبدا ، مهما واجه من عتوّ ، وجبروت ، وليبقى إلى الأبد ، رمزا لما هو سرّى وغامض ومعتم فى الطبيعة وفينا .

(٢)

النهار .

لم يكن نهارا معتادا . الكوخ غارق فى قطنه الضبابى ، متباهيا بنثاره من السحب ، وهى تنزلق إلى الداخل ، واصمة الفراغات المحاصرة فى ضبابها بالجفول . كنا مستنفرين معا ، بالدهشة والغبطة ، ونحن نرى أجسادنا ، متماهية مع البياض المطلق وهو يغطى الكوخ من داخله ، والفضاءات المفتوحة فى خارجه . أكثرنا غبطة ، كانت هاجر ، تداعب السحاب برهافة أصابعها ، خشية أن يتبدّد ، وتشقّه بقامتها التى ضاعت ملامحها ثم تقتطع ندفاً منه ، وتصطنع لعبة قذفها فى وجه الشيخ مبروك ، الذى بدا كئيبا على غير عادته ، ورغم ذلك فان كآبته الظاهرة ، لم تمنعه من القيام بدور صغير ، مجاراة لها ، بتحركه حركة بطيئة ، وكأنه يجاهد الانطلاق فى كثافة السحاب ، مثلما فى مشهد أسطورى . كنا نتبادل الضحك والمرح ونحن نخطو معا نحو عتبة الكوخ الذائبة ، فى هيولى البياض لنطلّ منها على انديـاح ضبابى كبير ، لم نكن نتوقعه ، ولم نشهد مثله . وكما فى الحلم ، الفضاء يهرق ثوابته من شجر وجبال ووديان ، ويدفعها إلى الامتزاج القطنى ببعضه ، كأنما نقف فى إطلالتنا منه على ضفة مهجورة ، فى أول تشكلات الكون . هكذا أتخيل أن الكون قد بدأ . فى خضم مثل هذا الهيولى الأبيض تشكلت معالمه ، ونحن الآن نشهد الخليقة فى انبثاقها الأول .

رياح خفيفة تهب ، وبغتة ، تحمل إلينا صدى ضجيج منفلت من مكان ما ، نتبيّن أنه اسطبل بعيد على الرابية التى كانت مواجهة لنا ، ولم تعد متّضحة المعالم منذ الآن ، أطياف تتراكض فى السرمد الضبابى ، متوهجة بلون السواد الناقض ، ومأخوذة بالغضب نحو خيول أطلقت صهيلها العالى ، وبدت منفلتة ، حسب توقعنا ، من باب مرتوج لجم حركتها حتى لحظة تمردها . لاشك ، أن الأطياف المتحركة خلفها ، قد بوغتت وهى تفتح باب الاسطبل كعادتها كل صباح ، ولم تجد للأحصنة نائمة كما هو مألوف ، فى ذلك الوقت ، وكما خمنت

بشكل غامض ، وإنما كانت تتراكض فوق الرابية العالية والفسيحة ، وتثب فى الأرض المندّاة بالرطوبة والبياض ، وفى تطلق أجسادا رهوانة ، داستها أقدام الظلام ، وحررّها الأفق الضبابى الكثيف ، وربما حرك فيها غريزة مبهمة لكسر الحواجز ، مما دفعها للتوثب نحو الباب المقفل ، ودكّاً بضربات أقدام متزاحمة ، مثل أرواح أيقنت فى لحظة فالتة ، استباحة زهو أحلامها العريضة ، بأسر طال أكثر مما تصورته . هكذا تخيلنا الحدث ولغونا فيه . هاجر تتساءل إن كانت الأحصنة تنسى مع الوقت حرية حركتها ، وانفلاتها مع الريح ، فى الأوقات الحرجة ، جاء سؤالها ضائعا وسط زحام الأصوات المرتاعة والحدوات وهى تدك أرض الرابيـة وتخدش سكون الخلق النائم فى بياضـه . كل نداء من الأطيـاف السوداء ، يرتدّ إليها دون استجابة ، عبر صهيل متوثب ، وغير قادر على استيعاب أى أمر أو نداء غير نداء انطلاقه .

قالت هاجر مبددة ذهولنا :

– رغم هلع الرجال فإن مشهد انفلات الأحصنة مشهد ساحر وسط ما يحيطنا .

بالكاد يبين وجهه وهو يؤكد ملحوظتها :

– خاصة وهى تجاهد فى انفلاتها كل هذا الضباب الكثيف .

البارحة ، شعرتُ به يخرج خلسة إلى العراء خارج الكوخ . مكث بعض الشئ وحيدا ، حيث هاجر كانت نائمة ، ثم دخل ليجلس ، على الكرسى المقابل للكنبة والتى أنام فوقها ، وأنا أغطّى وجهى بساعدى ، مما جعله يعتقد أنى نائمة . سمعت نشيج صوته لأول مرة . خلت أنه ربما يبكى ، لسبب ما ، فى وقت متأخر من الليل ، مما دفعنى أن أمنع حركتى كلياً حتى لا أحرجه . الآن يبدو متماسكا ، رغم سحابة الكآبة ، التى تغطّى ملامحه الذائبة . ولأجعل الأمر طبيعيا قلت بدورى:

– ألا يمكن لكل هذه الكثافة المعتمة رغم بياضها أن تضيّق حدود الرؤية لديها فتسقط تباعا من فوق الرابية العالية نحو حتفها ؟

استرد الشيخ بعضا من بهجته وهو يعلق مازحا :

- يبدو لى أن الأحصنة حين تنطلق لا يهمّها سوى انطلاقها . لا تضع فى حركتها حسابا لأى عائق . ربما تنقاد بغريزتها وفطرتها وراء فكرة أن الانطلاق بالنسبة إليها فى حدّ ذاته هو الغاية وهو الهدف الذى خلقت الطبيعة أجسادها وأرواحها خصيصا له .

أحسست أنى نجحت فى أن أزجّ به فى حوار قد يخرجه ، من بعض ما ألمّ به البارحة ، سألته باهتمام :

- ألهذا السبب رأينا أصحابها تتراكض خلفها بكل ذلك الهلع ؟

هز رأسه مجاريا اهتمامى باهتمام مماثل . وفى نبرة جادة ومستحوذة قال :

- بل لأنهم يدركون تماما أنها قد تقود نفسها لحتفها دون أن تعبأ . بالنسبة لهم يكونون قد خسروا ثروتهم فيها أما بالنسبة إليها تكون قد كسبت مذاق حريتها ولو لآخر مرة !

هل حقا تتصرف الأحصنة هكذا ، أم أنه يرمى بكلامه مرمى آخر يعنينى به وربما هذا ما يجعله فى كدر يدفعه خلسة إلى البكاء فى آخر الليل .

فكرت هاجر قليلا . تألق وجهها فى الرذاذ الضبابى ثم قالت متسائلة :

- ألم يتم ترويضها فتطيع . إنها ليست أحصنة بريّة على أية حال .

شعّ إحساس مبهم من وجهه وهو يتأملنى ثم اتجه نحو ألقها :

- لا فرق .... الأحصنة أكثر الكائنات حساسية تجاه حريتها ومهما تمّ ترويضها فقد ينتابها هاجس التمرّد فى أية لحظة تستعيد فيها بريّتها المدجّنة وقد تباغت صاحبها بما لم يتوقع .

الضباب . الحوار . الوجوه المتمازجة فى الهلام ... ربما ذلك معا ما جعل كلمات غريبة تنتابنى وتخترق صوتى لأردّد أمامها بعض ما عجزت عن إكماله فى حضورها :

«الحرّية ... مثل براق ساكنة الجبال والأدغال والأفق ، مثل الثمرة الشهية فى تراب العالم كله ... تقتل نفسها قبل أن يجرؤ أحد على قتلها .»

ابتسمت هاجر وهى تستوقفنى :

– هل أوحى لك حديث الحرية والأحصنة المنطلقة بهذا الكلام الذى يشبه الشعر ؟

أجبت وأنا أصارع خواطر أخرى تقفز إلى فمى :

– ربما !

لكن الشيخ مبروك جاء تعليقه مختلفا وغير متوقعا :

– ألا يدفع الشعراء عادة حياتهم ثمنا لكلماتهم !

– بل ثمنا لحريتهم !

لم أشعر بالمباغتة . دائما ما أعتقد أنه أقرب إلى باطنى منّي . ولكى أؤكد أكثر على ما هو متيقن منه أضفت :

– كثير من الشعراء وأصحاب الكلمة والفكرة والموقف دفعوا رقابهم ثمنا لكلماتهم وأفكارهم ... فى كل الأزمنة حدث ذلك ولا يزال يحدث حتى الآن .

التفت إلىّ . لمع ضوء مُجهول فى عينيه مجددا ليخترقنى به رغم حاجز الضباب الكثيف . قال مؤكدا ومتراجعا عن سؤاله :

– نعم .... الفكرة والكلمة وقبلهما الحرية وراء كل شئ لا جدال .

هززتُ رأسى بالايجاب . ومثل الذى بحاجة إلى تأكيد مضاف يريد سماعه قلت باندفاع :

– أليس كذلك يا جدّى !

لم يرد ، وإنما أصدر صوتا ، فيه حشرجة مكتومة ، وهو يدير دفة الكلام :

– يخيفنى الضباب حين يكون كثيفا هكذا !

ندّت عن هاجر ضحكة صغيرة أقرب للدهشة منها للسخرية :

– أنت ! أيعقل ! إنك لا تعشق شيئا مثل عشقك للضباب .. منه تستلّ غموضك ولا تتغذى عروقك بشئ غير الكثافة .

- ثم سألته – أنىّ لك هذا الخوف إذا مما تعشقه ؟

غطت سحابة كثيفة ، تحركت نحوه ، كل هيكله ، لم يبق منه شئ يصلنا وكأنه قد اختفى وبقى صوته وحده ، دليلا على وجوده بيننا :

- ومن قال إن الخوف لم يكن يرافقنى دائما ويرافق كل تحركاتى وهواجسى ومشاعرى .

راعنى أن يتحدث فى تلك اللحظة بتلك الروح ... داهمنى مشهد بكائه البارحة أو غيابه الآن فى السحابة ، فشعرت أن فى الأمر هاجسا جدّيا يقلقه ... ذلك ما دفعنى أن أستنهض فيه عزيمته وربما عزيمتى :

- ما الذى حدث لك يا شيخ مبروك ! هذه أول مرة أسمعك تتحدث فيها عن الخوف أو تعترف هكذا بالمخاوف !

خرج من السحابة ، حدّق فينا ، معا ، أنا وهاجر ، تحديقة طويلة وهو يلتصق بنا ، ثم أدار رأسه إلى الجهة المقابلة ، حيث الرابية والضباب ، لم يردّ وإنما تنهدّ تنهيدة عميقة ، وبعد شئ من الصمت قال باقتضاب وهو يدرك أننا ننتظر كلماته :

- ما يدريك ... ربما هى مخاوف تتصل بك وحدك .

- مستدركا – أو بكما ، أنت وهاجر وبقية من أحب فى هذه الحياة .

ابتسمتُ فى وجهه :

- إنها مجرد وساوس حول الأحبة ... وساوس العواجيز نحو صغارها ... أم أنك تريد الآن أن تثبط من عزيمتى بعد كل وصاياك المشجعة !

غمرته إشعاعة خاطفة وربما كان يحاول أن يتدارك خطأ وقع فيه أمامنا ، دون إرادة منه . عادت ابتسامته على استحياء ، متوغلا فى الأفق ، ومتمعنا فى القطن الأبيض ، الذي بدأت كثافته تنزاح ، تحت وطأة الإطلالة الخجلة والمتوارية لشمس الظهيرة ، تتسلل ببطء وتبدد التماسك الأبيض ، شيئا فشيئا .

قال :

– ألم أقل لك إن الضباب يخيفني . وحده القادر على استثارة كل الكوامن والأشجان دون أن يعطينا فرصة التفكير في كيفية السيطرة عليه .

ثم أضاف بذات النبرة الهادئة في صوته وقد استعاد شيئا من ثقته :

– وحدها الشمس أيضا القادرة على هزيمته وجعله ينزاح بهيولاه عن الأرض... ها هي تصعد إلى أفقها العلوي وقد خرجت أخيرا لتجره نحوها وتذيبه ثم تبدده في سماء المعركة وليس أرضها .

بدت الفكرة ساخرة بعض الشيء ، تلك المعركة السماوية بين الشمس والضباب ، إنما هدوء صوته ونبرته الواثقة أكسبها تألقا فريدا . ابتسم وابتسمنا معه ، ونحن ننظر هذه المرة إلى السحاب ، كطرف مهزوم في المعركة ، لكنه الطرف الذي لم ينسحب بعد ، يقاتل بكل ما لديه من أسلحة . إنه يحتل أركان الكوخ ، ويأخذ أشكالا قتالية مختلفة ، يزج بكائناته المتوحشة ، وهي تأخذ أشكالها منه ، وتتدافع نحونا ، وكأنها حضرت خصيصا ، لتشاركنا في الاندياح الوجداني العارم نحو الأشياء ، قبل أن تستلّ نفسها نحو الخارج وتستمرّ في معركتها مع الشمس ، التي كانت تقوى كل لحظة . على الرابية المقابلة ، والتي هي دون ملامح واضحة حتى الآن ، كانت معركة أخرى تدور . لم يكن الصهيل المنفلت قد كفّ عن مراوغته للأطياف ، وقد استمرت تلاحقها طول مدة حديثنا ، وإلى هذه البرهة ، وكانت تخترق عيوننا بين الفينة والأخرى ، لكنها في لحظة كان الشيخ يكمل فيها تصوره ، كان قد هدأ أكثرها ، وبقي بعضها سادرا في غوايته ، منفلتا وعصياً على العودة إلى الرتاج والاسطبل .

قالت هاجر :

– لقد بقي منها ثلاثة الآن إن لم تخطئ عيني ... ربما فرسان وحصان ... نعم.. ها هي فرس .. حصان .. وفرس أخرى .

سحبنا الجد من أيدينا نحو الداخل :

– ليس هذا ما ترينه يا هاجر وإنما ما تريدينه أن يكون أيتها الخبيثة ! قولي.. ألم تلاحظي أيضا أن الحصان كان شائخا بين الفرسين !

علا صوت ضحكنا . يا له من جد رائع ... كل شئ يتحول معه إلى ما هو نادر

وفريد .. هاجر تتمايل بما أضحكها ثم تنظر إليه بعيونها الجميلة :

– بل رأيته منطلقا بقوة عكس ما تريد أنت .. تعال وأنظر ... ألا ترى كيف يتقدّمهما فى الانطلاق .

استمر فى مداعبته الكلامية :

– نعم ... إنى أراه يسحبهما أيضا إلى داخل الكوخ ويطلب منهما مترجّيا الموافقة على تناول الافطار والقهوة ! أليس كذلك أم أن نظرى قد ضعف أخيرا .

قلت :

– بل هو كذلك ... ألا ترى أنهما موافقتان على ما يقوله ... بل إنهما منقادتان له تماما !

تمتم بطيبة :

– هذا جيد .. يروقنى كثيرا أن أراهما أحيانا يسلمانى القياد ... إياكما والتمرد ... يجب أن تسمعا كلامى طوال هذا اليوم !

دوّى ضحكنا مجددا . المساحة المزدحمة بالكائنات الضبابية لا تزال تحتل فضاء الكوخ . قالت هاجر مندهشة :

– أنظرى ... لقد احتلّت سحابة كبيرة كنبتك التى تنامين فوقها !.

كنا نسْبح فى الرذاذ الأبيض المتطاير ، وأصواتنا تأخذ قوة القذيفة ، أن تنطلق من حناجرنا نحو البياض . نرى الأخضر الذى فى الخارج يتشكل لنا هياكل خرافية أخرى ، تنتزع من دواخلنا ، آخر ما تبقى فيها من عصارة الشجن المستنفر . زاوية الرؤية تقاوم لتفرق بين الجانب المضئ الذى سقط عليه ، الشعاع الأصفر ، والجانب المعتم الغارق فى عتمته . انسحاب نحو الهلام ، ودخول فى الامتزاج النافر للوحة . ما الذى يحرّض النفس أكثر من ذلك التمازج الكلى الرهيف ، بينها وبين مفردات الطبيعة وأبجدية عناصرها . من أين ينبثق الحزن الفجائى إذا فيما العناصر تدخل بهجتها وبهاءها وخفاءها .

قلت دون مقدمات ونحن نعد الفطار :

– جدّى .. قد أترككما اليوم .... لقد نويت على الرحيل .

اضطرب بعض الشئ لكنه لم يكن مندهشا :

– ولماذا اليوم بالتحديد ؟

قلت :

– لأنه يشبه أى يوم آخر . ما الفرق ؟

قالت هاجر :

– لكننا اليوم تحديدا سعداء أكثر من أى يوم آخر .. خصوصا فى ظل كل هذا البياض الفاتن .

وحين شعرتْ بصمتى وصمت الجد أضافت :

– جدك كان يتوقع هذا بل ويرغب فيه . لقد تحدثنا البارحة قبل أن أنام وهو يعتقد أن إخوتك يبحثون الآن عنك وربما فى المناطق القريبة من هنا .

لم أعلق . إنما تركت الصمت يستحوذ على الكوخ الغارق فى ضبابه ... كذلك فعل هو ولم ينبس بكلمة أخرى .

انقشع الضباب تدريجيا . تواصلت شكوى الأطياف ، مستعيدة ملمحها الأصلى ، كعدد من الرجال ، وهم يطاردون ، بعد ، فرسا على وشك الوقوع من فوق الرابية ، تتواطأ مع القدر ، فى إصرارها على وقفتها الخطيرة على الحافة ، وتكاد أن تقع فى الهاوية السحيقة . خرج الجد وعاد بحزمة من الحطب المقطوع ، وقال وهو يلقم المدفأة ببعض منها :

– تلك الفرس الجميلة ... إنها على حافة الهاوية وهى بحاجة إلى معجزة تنقذها . ليس بيد الرجال الآن إلا تركها دون أية مبالاة تحسبها حصارا .. فقد تتراجع وحدها .

كنا وحدنا . نظر إلىّ نظرة حزينة وقال :

– سأبقى هنا بعض الوقت رغم أنى أرغب فى مرافقتك . ولكن أخاك الكبير رآنى منذ زمن صدفة فى هذه النواحى وعرف أن لى فيه مكانا . ربما جاؤوا هنا وهم يبحثون وهذا ما أريده .. قد يكون بامكانى معرفة ما يدور فى ضمائرهم

تجاهك وقد أحيدهم عنه .

قلت مستسلمة :

– أعرف يا جدّ .. أنا متيقنة أنك لا تتخلى عنى مهما حدث .

ثم إنى لابد أن أنهى مسارى وحدى وهذا ما سأفعله على أية حال .

سألنى :

– وهل تعرفين الطريق جيدا .. فى جانب منه يقود إلى الريف عندهم ... انتبهى جيدا حتى لا يسوقك الطريق إليهم فى حالة الخطأ .

– سأنتبه .. وإن أخطأت فذلك هو القدر .

– أفكر أن أصحبك إلى الطريق الآمن .

– أنت تعرف .. ليس من طريق آمن الآن .. قد يكونون فيه وهم يبحثون .. قد يكون انتظارك هنا أكثر فائدة ، خاصة أن المفاجأة ستأخذهم حين يتأكدون من شكوكهم حول وجودك !

– لازلت لا أفهم كيف ساقتك قدماك إلى هنا ؟

– أنسيت ما قلته وأنا أفكر فى ذلك يوم رأيتك خارج الكوخ .. «لا يتوغل الإنسان فى الأمكنة ثم يختار مكانا بعينه دون سبب» على أية حال لم أكن أعرف وأنا أتجه إلى هنا أننا لسنا بعيدين كما يجب .

قال وقد زاد حزنه :

– تلك هى المصادفة ... والمصادفة تغير حياة كثير من البشر كل يوم .

(٣)

وعلى أمل مصادفة مبهجة كنت أودعهما . عند الظهيرة كنت أنعطف نحو قمة جبلية ثم أتجه نحو السفح من خلال ممر ضيق منحدر . الشمس بدّدت مع منتصف النهار ، أغلب الكثافة الضبابية ، وأبقت على المزيج الشفيف كغلالة بيضاء ، تفصل بين المرئيات في الأرض ، وذلك الخط البعيد الذى يحدد نقطة التقاطع مع السماء . أنحدر وعيني تتجه بين التفاتة وأخرى ، نحو الفرس على الحافة ، تطلق صهيلها الممتد ، مدركة بالغريزة مكمن الخطر ومثار الاغواء ، الذى هو بمثابة الشرك ، من الرجال الرابضين أمامها . بين هاوية ورتاج ، تختار الرقعة الواقعة بين بين ، لا تتقدم إلى الأمام أو إلى الخلف ، إنما تربض فى نقطة شائكة ، قد تنقلب فى لحظة إلى موت محقّق ، أو كما هو التوقع ، قد تدفع الفرسان إلى اليأس ، فيفكّوا حصارهم ، لتنطلق دون رتاج يلجمها ، ودون إسطبل ، يمنع عنها حركتها . واقفة ترمقهم باشفاق وكأنها تقول إما الموت أو الحرية .

انتحيتُ فى وثباتي ، نحو الجانب الغربي ، بعيدا عن مشهد الرابية . اختفى الكوخ تماما الآن ، سادرا فى بياضه ومغيّبا تلويحة الجدّ ، لم ألتفت إليه بعدها ، تأملته من بعيد ، وتداركت خلفه طيف هاجر ، دافعة إياه للدخول إلى الكوخ . أرادت أن توفر عليه كمدا إضافيا وهو يرانى أذهب فى المطلق الأبيض .

كلماته الأخيرة لم تفارق رأسى :

«حاذري يا صغيرتي فالضباب لا يزال كثيفا وممرات الجبل خطرة ... لا تخطئى الطريق ..»

بين التوجس والتردد والعناد قلت له :

«لا تخف يا جدّى .. ألا تراه .. إنه ينقشع بين لحظة وأخرى» .

هذه أول مرة أتركه فيها ، قبل أن يباغتنى هو بالاختفاء كعابته ، أجاهد

مشاعر متنازعة ، ولكن الأمر لم يعد يحتمل التأجيل . أتلفت حولى بقلق ، خوفا من أن يداهمنى أحد أعرفه أو يعرفنى ، فتنقشع غلالة السريّة التى أحيط بها حركتى . تناهى إليّ صدى صهيل كان يضعف مع كل خطوة أخطوها إلى المنحدر .

أتساءل إن كانت بعد ، على حافة الجبل معلقة بين الهواء والهاوية . أرفع رأسي ، السماء فى تلك البقعة داكنة ، وعلى وشك أن تفلت كل مائها . فى المنحدر أتدحرج قليلا قليلا نحو السفح . اجتزت الجبل الكبير وأحسست أن الطريق سيغدو أكثر سهولة منذ هذه اللحظة .

وقع بصرى ، على مقبرة صغيرة ، فى ناحية مشجرة ، من جبل قريب ، بين الصمت وعالم الأموات ، يتردّد نداء تحمله الريح كل مرة ، وتدفع به إلى مكان علوي ، يليق ببراءة السكون النهائي . ليس هناك أكثر براءة من الموتى ، بمجرد أن يدخلوا غيابهم المطلق ، يراقبون حركة الحياة بعدها ، قسوتها وأطماعها ونزقها وأوهامها ، بعيدا عن صخبها ، الذى لا تكتمل متعة الأحياء إلا به وفيه .. هكذا كانوا هم أيضا ، قبل أن يدركوا سرمد ما حولهم وسرابيته ، وقبل أن يدخلوا النفق المظلم والطويل ، الذى انتهت إليه رحلتهم القصيرة مع الحياة .

الشمس تشقّ خط الأفق ، وتلتحم مع نثاره الأبيض ، بتسربات ضوئية ، تحدّد حواشي سحبها السوداء ، بإضاءات لونية متناسقة . يصلنى الصوت «بإمكانك العودة إن شئت .. الجد هناك وهاجر . ليس هنا إلا رغبة شبحية قد تقودك إلى الهاوية» . تشتعل أطراف السماء فى جانبها المعتم بنور أخاذ ومنبهر . أسير وئيداء أقتفى فلول الغسق على ربوة عالية ، كان عليّ أن أقطعها خلال دقائق ، قبل أن تغمس الشمس دفئها ، فى غيهب بحر بعيد . التعب يستبدّ بأطرافى المتهالكة ، وربما انتحل الخوف معه أعراضا جسدية . شعرت بالدوار وأنا أتفيّأ قليلا جناح شجرة ، معلقة بين كثبان رملية ، شربت قريبا رذاذ المطر والضباب الرطب فتماسكت ، مكتظة بغواية الاسترخاء فوقها ، وفوق ترابها الليّن. عن بعد أرى رجلاً يصيخ سمعه، لأنّات جمل يرخى له

الرسن، وددتُ لو أناديه وأركب على ظهر سفينته الصحراوية ، لكنى تراجعت فى اللحظة الأخيرة . لا أزال قريبة بعد من المقبرة الجبلية، تطلق فى ذاكرتى حشد الموتى المجهولين . يشدّنى إصغاؤهم الحكيم لمسار الزمن وتعاقبه ، مستنفراً فىّ آخر طاقاتى، وأنا أنسج بها أبجدية ، لا تقبل المراوغة، فى مواجهة أولئك الذين يبحثون عنىّ طويلا، في أفق يتأرجح بين المكيدة والفخاخ.

أستحضر ، ذلك اليوم الذى كنت عائدة فيه وحدى ، صوت نحيب يهدر من آخر الطريق، يبسملون ويحوقلون ، فالرجل الوحيد مات ، ومرّ على موته أيام عديدة ، ولم يفطن إليه أحد ، الا بعد أن خرجت رائحته كالجيفة العفنة . حين اقتحموا منزله، وجدوا الفئران ، قد أكلت معظم لحمه وشوهت وجهه كله . كنت فى السابعة من عمرى ، ما رسخ في ذهنى منذئذ هو الوحدة والموت المرعب ، أسمع وصف المشهد من الجميع، ولكنىّ أحس أن لاشىء فيه ، قد ردعهم بعدها ، فكل شيء إلى نسيان . فكرة الموت فى الوحدة أو العراء ظلت تلازمنى فترة طويلة وربما أسستْ مطاردتها لذاكرتى الصغيرة ، شحذا استثنائيا ، لاختطاط طريق خاص بى ، قبل أن أقع فى منتصف الطريق ولا أصل إلى نهايته.

الغلالة البيضاء تحجب ملامح الطريق حيث أتجه ، متهالكة من وهن أخذ يدبّ فى أطرافى . مددت يدى نحو كيس الزاد وزمزمية الماء اللذين زودتنى بهما هاجر. أخذت ألوك بعض الطعام دون رغبة منى ، متواطئة مع صمت الموتى وحكمتهم ، فى يوم بعيد آخر ، اخترقنى صوت امرأة تلد. زقاق ضيق وطويل ووجع مخاض مريك . قيل إن الطفل بقى ناكفاً عن الخروج ، حتى إذا خرج استبدلت الأم بآلام المخاض حمىّ النفاس . كانت شديدة على ضعفها ، جعلت تنتفض وتهرق العرق الغزير ، وهى بين أنأت الغيبوبة التى دخلتها وصرخات أقاربها. يتابعون بعجز احتضارها بين أيديهم ، ولا يملكون ردّ القضاء أو يتفطّنون لمستوجبات علاج يتجاوز بدائية وصفاتهم الشعبية- فى الريف . لم يمض سوى يومين على ذلك ، عرفتُ بعدها من نسوة الحىّ أن الأم ودعت حياتنا الزائلة ، وتركت بين يدىّ زوجها طفلا قلقا ، لايكفّ عن صراخه وهو يبحث عن صدر يطمئن بين ضلوعه وغاب . فى البداية قطّروا قطرات حليب ملأوا بها القطن ورشفوه إياها، تبرّعت عائشة

بارضاعه جامعة بينه وبين ابنها الرضيع ، ليكسبوه أخا في الرضاعة ، ترعرع في حضن أمه مدة سنتين. لم يكن الأمر بالنسبة إليه ، إذا مجرد ذلك السائل الأبيض اللزج، إنما الدفء الذى افتقده قبل أن يعرفه. ترك الأمر في نفسها أسى كبيراً ربما لم يعرفه غيرها، فالأم المتوفاة كانت شابة في العشرين . عيون هلعة وأثر لا يُمحي ، والقرية نسيت الأمر كله ، وهي ترى الطفل اليتيم يترعرع في أحضان امرأة أخرى . بالنسبة إليها بقي شبح الموت في الولادة يطاردها مثل الموت في الوحدة . اختلط الأمران وتشابكا واختارت وحدتها ، على حساب غريزة أمومة ، كانت ترجئها دائما برفض الزواج . لا أحد كان يعرف ما بها ، ولاالشيخ مبروك نفسه .

ماذا سيحدث لو شذّت هي بين الآخرين ، في الابتعاد عن فكرة التواصل مع الآخر ، من خلال أسرة متناسلة . كل شيء عندها مؤقت ومؤجل ، حتى تلك الشئون الصغيرة التي يقتات بها الآخرون ، في يومهم ويتحملّون بها ومعها عثرات الزمن ووحشته . لم تفارقها تلك الوحشة قط .. ترافقت مع هواجسها الدفينة وسط لغط صباحي وهمس يستنفر نومها . حدست أن شيئا مريبا يحدث في البيت. قالوا إن الجدّة العطوف ماتت . تركوها سادرة، في غفوتها المريبة ، فيما كلمات الشيخ مسعود تدقّ كالمطارق أذنيها : «أمر غريب .. لقد تجاوزت الجميع في لحظة احتضارها ورمت نفسها على البنيّة . حليب الموت الذى خرج من فمها وهي تحتضر كان يغطي رقبة المسكينة من غير أن تصحو .. من الواضح أنها انتفضت فوقها وأسلمت الروح بينما الصغيرة نائمة لا تدرى بشيء».

هل من رعب أكثر من ذلك الحديث ، ظنًّا منهم أنها أيضا نائمة ! لم أنطق ولم أر مراسم الجنازة الا في آخرها ، دخلتُ فجوة حميّ قاسية. ، وارتميتُ لأول مرة في حضن أبي . اندسستُ في صدره ، والجميع يعتقد ، أنها حميّ المفاجاة من موت الجدّة التي كنت متعلقة بها كثيرا ، إنما الأمور كانت قد اختلطت بشكل غريب . لم يدرك أحدهم سبب الغيبوبة المتلازمة مع الحمّى ، وأنا بدوري لم أشأ أن أبوح لأحد .. أي أحد ، الرعب الذى انتابني منذئذ ، وأنا أسمع الوصف

المؤثر للحادثة.

رعب أكثر من الموت نفسه. غيبوبة لم أصحُ منها إلا لأجد أهل القرية ، كلهم مجتمعين في صحن دارنا ، كسروا قبلها باب الغرفة ، حيث كنت أنام ، مدثّرة بلحاف سميك ، والباب مقفل خلفي وهم يئسوا من فتحه ، ظنوا أني قد مُتُّ كمدا . حين فتحتُ عيوني على مرأى الزحام ، والزعيق كان كل منهم يقترب مني ويقول «الحمد الله على السلامة .. لقد ظنناك قد مُتُّ» لم أفهم شيئا ولا سرّ الغيبوبة الفاجعة، وهل إن كنت قد ارتحلتُ إلى الموت فعلا وعدت إلى الحياة بمعجزة .. أكانت غيبوبة ، أم موتا سريعا ، لايعرف أحد كيف خرجت من نفقه ، ووسط فراغ الأخيلة الجافلة ، وتداولهم في شأن الموت ، كنت مأخوذة بالغياب في كل لحظة أعيشها . أشعر أن هاجسا مريبا يستبدّ بي ويدفعني نحو المستحيل .

لم أكن بعد قد تخطيت كثيرا حاجز المقبرة المهجورة، أشك فيما أنبتته في رأسي ، من أحداث قديمة ظننتُ أني قد نسيتها إلى الأبد . خروجها المباغت هذا جعلني أدرك أنها واقفة هناك ، في جهة بعيدة ، مثل الشفرات التي تنتظر من يفكّها . تقلصت أحشائي من اكتظاظ الذاكرة التعسة بمشاهد الموت ، وهل أني داخلة إلى إيماءاته الصريحة وأنا معه وجها لوجه . كيف استطاعت تلك الأخرى التي بداخلها ، بعيدا عنه ، أن تتحدّى سبل الوحشة المتسرّبة من كل شيء .. أبَتْ ألا أن تدخل في قلب العاصفة ، وتختار طريقا يوشك أن يؤدي بها ، للوقوع كل مرة ، فاذا بها تنهض كالعنقاء من رمادها .

لولا ذلك لعاشتْ طريدة الأوهام إلى الأبد ، خائفة من أن ترفع رأسها إلى منابت الريح.

تفقدتُ المكان ، الذى كنت أسير فيه . بدا لي أنيّ غبت تماما عنه ، وأنا سارحة ، فلم أدرك زحف العتمة إليه .

كنت أخطو فوق سهل ليّن ونديّ ، ذكّرني بالعطش فارتشفت من الماء قليلا . أندفع الآن نحو طريق مفتوح . أتنفّس الصعداء وأنا أودّع قمم الجبال العالية خلفي ، وأترك أثرا مغلفا بهدأة أهل الجبل ، الذين لم أر أحدا منهم سوى ذلك

الرجل الاشعث وجمله .. ربما مرّوا من أمامى ، ولم ألحظهم وأنا أترك خلفى ، شيئا بدا معلقا بين السماء والأرض . تركت هواجسي المعتمة فى تلك المقبرة النائية ، لا أحد مثلها يعرف معنى هذا الانسياح الفورى نحو النور .. أعرف الآن، مثل القاطنين هناك ، فى عزلتهم ، أن الظلمة ضرورية ، وأن الهاوية مجرد اجتياز لا مجال لتلافيه ، من أجل الدخول فى عُري الزمن وترويض كوامنه الثابتة . أسير مرصّعة بالمجهول ، الرفيق الآخر الذى يلازمنى دوما منذ فترة ، أهمهم بكلمات غير واضحة حتى بالنسبة إلىَّ . ماذا يحدث لو رآنى الآن الشيخ مسعود أو أحد إخوتى . كيف سيكون استقبالهم لى وقد عرفوا أنى منقادة إلى ما هو أبعد من أفقهم . أى شهب منفلتة ستنطلق من وجوههم .. وقسوة الطفولة التى عشتها .. ألم تكن كافية لترويض ما تبقّى فيهم من شهب نزقة .. كيف هى عائشة الآن والخالة الطيبة التى لاتتعب من صمتها ولا من وشوشة خفية تدسها فى أذنى أختها كلما جلست قريبا منها ، وكأنها تحمل صوت الغابات المبهمة ومراثى الأدغال ، بعد هدأة زلزال مدمّر ألمّ بها ، وعصف بما تبقىّ من قدرة على الحزن أو على البكاء.

اقتربتُ أكثر من منتصف الطريق . حلّ المساء رائقا ولامعاً بوميض النجوم ، وهى ترفرف برقصتها السماوية من بعيد، فرحة مثلى بانقشاع الضباب الكثيف فى تلك البقعة .

قبل أن تعاود إلقاء وشاحها على الخليقة مرة أخرى. أندفع إلى الأمام ، أتسلّق هضبة رخوة مكسوّة ببعض أعشاب جافّة ، تراودنى كلمات أغنية حزينة تهمس بالسرّ ، سرّ الأحياء والأموات معا . اللغة السرّية تجرى الآن ، وتتسرّب إلى كل الجهات كنهر عظيم لايتوقف.

شعرتُ أن يدا تدفعنى من فوق الهضبة، التفتُ فلم أر أحدا . أتماسك فى مشيتى المتعثرة، أجاهد الانحدار من أعلى الهضبة نحو حضيضها . مسافات طويلة قطعتها قبل أن أنحدر . تغمرنى الآن موجة من انتفاضة عنيفة ، وأنا أتحسّس مكامن خطوى ، قبل أن أستدير إلى طريق جانبى مغمور بالأشجار والنخيل وستار الليل . أطوف بين ضفتى النهر الصغير الذى يشقّ المكان . لم

أنتبه أنها الجهة التى آوتْ فرارى قبل ذلك بعدة سنوات ، وأنها الجهة التى تباغت فرارى الآخر ، وتجعلنى متسمّرة فى النقطة الأولى حيث بدأت . لقد وقع إذا ما حذرنى الجدّ منه .. أهو الطريق الذى يقود إلى القرية .. أعدت إليهم بنفسى وأنا أحثّ الخطى بعيدا عنهم لأنجو من مطاردة أكيدة . الطريدة أمام المصيدة الآن .. اجتاحنى اكتئاب لامثيل له وبثّ الشؤم فى ذرات الهواء التى أتنفسها . لابد الآن من العودة مجدّدا إلى الطرق الجبلية علّها تقودنى إلى طريق معاكس يبتعد بى عن طعم تحاشيته طويلا. وأنا أحثّ الخطى مرتبكة، تعثرت إحدى قدميّ بصخرة بها نتوءات ..

لم تكن الا مجرد برهة خاطفة أو زمناً طويلا، حضر فيها الأموات . ميعهم ، جرّنى بعضهم إليه فيما وقف آخر ، يتأمل سقطتى وسكونى . «هل عرف ُحد لماذا عادت؟» قال ذلك الذى يجرّنى نحوه . أردت أن أصرخ أنى لم أعد .. أرجوكم أسعفونى لكى أبتعد. ولسبب ما ، لم يخرج صوتى بل صوت الآخر وهو يقول «يبدو أنها فى غيبوبة أقسى من الموت» .. تساءلت : ما الذى حدث .. ما الذى ألم بهؤلاء لكى يحيطوا بى هكذا .. ويتركونى للعجز .. لماذا لا يساعدوننى فى النهوض قبل أن يداهمنى أحد من البيت. سمعت أحدهم يقول : «وهل بإمكان أحد أن يعرف سرّ امرأة شاردة!» رد الآخر : «هى من اختارت هروبها .. إن أهلها يبحثون عنها منذ سنوات ولم يجدوها .. فكيف جاءت إليهم بنفسها » ما هذا الهراء الذى يحدث الآن حولى. صوت آخر «ذلك شأنها وحدها . من يدرى ربما رحلتْ إلى جدهّا الذى اختفى هو الآخر فجأة ولم يتأكد أحد بعد من موته» . أحاول أن أرفع رأسي ولا أستطيع . أحسست بقشعريرة . كيف يحدث أن أسمعهم ولا أستطيع أن أفتح عينى أو أقوم من عثرتي . لم أعرف تفسيرا للألغاز التى انهالت على من كل صوب . أرى بنات القرية يتضاحكن وهن دائخات . إحداهن تقول : «ماذا كانت تريد هذه الفاسقة من هروبها ؟» جادلتْ أخرى ، كنا نتحاور معاً : «لقد أرادت البحث عن ما أخبرتنى به مرة وقالت إنه الشىء النفيس ؟» . سألتها الأولى: «وما هو هذا الشيء النفيس ؟ » ردت التى كنت أحاورها «لا أعرف. فسرّته لى ونسيت» .

تلجمها الدوخة المستشرية فى حديثهم الساحر . هل انتقمت لكبريائها أم أن

الأمر لايتعدّى ، صهيل فرس يتفتّت فى عرائه وفى السقوط المروّع فى الأعماق المعتمة . الذين جروّها نحوهم يتحاورون مرة أخرى . فطنت إلى أنهم يرونها ببصيرة الموتى رغم كل شيء.

أو هم يراقبون حياة متأرجحة بين عالمهم وعالم الأحياء ، أولئك المغدورين بالفرح المؤقت. قيل إن الجنون وحده يفكّ الطلاسم المستعصية ، هذا ما أوحى به الذى يجرّها نحوه ويناوش روحا لا تريد أن تخرج إليه «ماذا لو ادعت الجنون!» قال الذى رأته يتأمل هدأتها دون أن يقترب: «أنسيت .. الجنون إذا أصاب إمرأة فهو جرم يستحق القيد والحصار» . لم ينته حديثهم الشائخ بعد .

«لم أر أجمل منها»

«ربما تلبسّها الجن فانزلقت دون إرادة منها نحو الخطيئة».

«أهى خاطئة ؟ إنها مريضة وقعت فى فخ مرضها».

«عن أى مرض تتحدث؟»

«أليس الجنون مرضا. وإلا ما الذى يدفع بفتاة إلى الهروب من بيتها غير الجنون».

«وأين بيتها هذا ؟»

«أنسيت ثانية .. إنه هناك قريبا منا».

«لا تجرّها إذا . أتركها وشأنها .. ألا ترى أنها لم تمت بعد .. إن الأمر غامض كما أرى» .

تذكرتُ مراراً الهزيمة الأقسى . هزمنى السيف الخشبى الرابض بين ضلوعى.. ما الذي أريده بعد . أدهشنى أنىّ لم أكن حزينة فى الغياب وإنما متعبة ودائخة .. الوجوه السرابيّة تراقبنى وهى تتململ ولم تبتعد كما توقعت. هبّت نسمات شمالية مشحونة بالرطوبة . أفرك عينى المتعبتين، لأدخل وجها متحجراً كان لعائشة وهى تضمنى إلى صدرها بدفء نارى وسراديب الدموع تشقّ طريقها نحوى.. كانت هناك وجوه أخرى لم أتبينها وأنا أدخل مرة أخرى فى الغياب .

(٤)

تنهيدة غامضة تحاصرني . كنت أكثر عزلة وغياباً ، أسمع ثغائهم يطفو على سطح الهواء، الذي أتنفسه بصعوبة . إنسحاب أوشك أن أصحو منه وأنا بين الفراغ والامتلاء ، بين الخدر وهمهمة متناثرة ، تعلق بالجسد ولا تنفذ إلى ما بعد المسام . مواقد نيران محتدمة ، في أمسية صيفية شديدة الحرارة ... هكذا رأيتهم وأنا أفتح بوابتيّ روحي نحوهم ، يحومون حولي، بمايشبه نواح الصياد ، وقد أخذه الغيظ ، أن يرى فريسته ميتة ، قبل اصطيادها ، أرادها حيّة ليستلّذ بفعل القنص ، فاذا هي بين يديه جثة هامدة.

رغم ذلك كنت أحسّ بفرح منسيّ ينتابني وأنا أرى نفسي ممددّة بين أيديهم ، مستعيدة إشارة الجدّ الأخيرة، حول الفرس التي كانت تراوغ مقتنصيها ، وهي بين فخاخهم والهاوية . هل وقعت أخيرا لتترك في داخلهم حسرة لا مثيل لها.

وحدها عائشة تقطع صلافة الشحنة المتوترة ، مقتربة من أمومة منسية ، ما إن رأتني أتحرك ببصري نحوها . قالت بحنّو ذكرني بالجدّة «كيف أنت الآن!» سيمضي وقت طويل قبل أن أعرف كيف أنا الآن. ما أغاظ أخي الأكبر ، وهو يروح ويجيء متلظيا بجمر نيرانه ، أني لم أرد رغم كل تساؤلاتهم . قررّ بعدها أن يقفل باب الحوار نهائيا معلنا فرمانه بصوت خشن : «لقد قتلت أبينا حسرة . مات الشيخ مسعود حتما بسببك!» أرادت عائشة أن تقطع كلامه ولكنه أضاف «لن يغفر لك أحدنا ما فعلته بنا» . عائشة هزت رأسها بيأس ونفور : «ليس هذا أوان الحديث في مثل هذا . أبوك مات وليرحمه الله بسبب مرضه . والآن هي بيننا ولم تمت .. الوقت يعالج كل شيء» . قال أخي محتّدا «ليتها ماتت هي الأخرى لتخلصنا من ثقل هذا العار» . الشيخ مسعود مات إذا ! لم تكن المسألة مجرد رؤية ضبابية! ذلك أشعرني بثقل الكلمات ، لم يكن لديّ حتى قدرة الحزن على ما سمعت . إنما بين السراب والعدم ، الغياب والحضور ، كنت أترنح، دائخة موغلة في المزيد من الاحساس بالاستلاب .

كم مر من الوقت بعدها ، والكلمات تأبى على الخروج ، فليس بامكانها الآن ومع فجيعة التأكد من موت الشيخ مسعود ، أن تبرر شيئا . لا أعتقد أنهم أدركوا

ما أحسّ به ، وأن اليقين قد فارق عالمى ، فى تلك الآونة ، وفارقتنى الكلمات دون إخطار . أحسست أن جميعهم فرسان مزيفون ، فليفعلوا إذا ما شاؤوا بنوازع زيفهم المقيت . قال الأخ الذى يليه وهو يشفق علىّ من ذهولى «لقد أهنتنا .. خرقت وجودنا ..» لم يتمالك نفسه فسكت . لماذا لم يكمل إدانته . هل كان يتوخىّ ردّ الاهانة التى لحقت به أو بهم ، ببعض كلمات أسحبها من فمى ، مع شىء من الدموع أريحه بها . أن يشعر أنىّ نادمة فيصبح لعقابه وقعا أقسى! لماذا إذا لم يسحب مديته ، ويغرزها فى قلب الاهانة ويمضى. ولماذا بنبرة غامضة، يشفى غليل وجعه ؟ لقد نزفتُ كل الماء الذى فى الجسد . لم يبق الآن شىء أهرقه بين أقدامهم مجرد مشهد ضبابى لايشبه ، فى أى جانب منه ، ضباب ذلك الصباح ، الذى بدا حينها حلما جميلا انحسر . لقد مات الشيخ مسعود ، حسرة ، كما يريدون إيهامها الآن ، ليأتوا هم بعده ويتسلموا مدية الانتقام من شرف الأبوية المطعونة . إنهم رغم كل شىء ، وبعد كل شىء ، ورثة ما يجب المحافظة عليه، دونهم ودون ذلك ، دم ينبغى أن يتمَّ سفحه ليسلم الشرف الرفيع. إنتبهت إلى أن الغزالة الموشومة بالسفك وهى تراوغ الشيخ مسعود فى مطاردته لها ، لم تكن مرصودة منه ، إنما هى مرصودة ، دون أن تعرف ، من الذين جاؤوا بإرثهم ، يحملونه فوق أكتافهم ، إليها. هل كان موته فرصة سنحت ، أم هم الآن مثقلون بما أورثهم به.

يغيظهم أنها لم تأت إليهم نادمة ، ولاينتابها إحساس من ضيّع طريقه وحياته، كما يفهمون ، وإنما هى الآن هنا صامتة، وفى صمتها مواجهة مهينة ، لكل ذلك الصلف ، الذى يتبدّى فى وجوههم كل لحظة . لم يعد الأب سلطانا ، إنهم هم أبناؤه، وورثته ، قد أخذوا بين ما أخذوا منه ، جهامة تشير إلى رجولة مستعصية على فهمها . فليفعلوا ما شاءوا إذا . لم أكن قط أقوى مما أنا فيه الآن . الموت ولا انتظاره . فليستردوا وجودهم المكفهّر ، بعد أن استردت هى وجودها ، ومعه ذلك الشىء الكامن فيه ، والذى لن يدركه أىّ منهم أبدا مهما قالت. لم أكن خائفة وإنما حزينة ومشفقة ، أقرأ نشيدى خلسة، أسلخه من هدب العيون المشرّعة نحوى بادانتها ، لأعود فى الكلمات إلى حنين شاهق ومفقود ، لغبطة تتفيأ بواحة

منشودة.

عبر الضباب أرى نهاية المطاف فى الغيب . مجرد لفتة خاطفة، تكشف بوميضها المغلق ، محفوفة بشهب المغزى العميق ومثل نافورة يتطاير منها الزبد أراوغ الماء وأشرب من نبعه ، تاركة لهم زبده فى الهواء . وبدهاء الأقحوانة أفلت من الخرائب ، نحو أفق يظلله الغسق فى مبهمه . ما الذى أردته ولم أنتزعه . ألم أنثر بلابلى ، لتبصر عنىّ مغلق المعنى وبرهة الكشف . هل يضيرنى بعد الآن مجازفة أخرى.

فليرتموا فى حنقهم وسخطهم ويتركوا لى ارتجافات الغياب، أرفو منها دثارا ، أكثر دفئا من كل نواميسهم ، وأعرافهم ، وطقوس شرفهم ، وأنى مجرد لحم وعظم بين أيديهم ، أما الروح فتوصد أمامها الأبواب . مجرد أن أسرج عنقى للانشوطة، فان ذلك وحده يدفعهم نحو الخيبة ، خيبة أقسى من خيبة الضحية، فاغرين أفواههم، كالبلهاء ، ليلتقموا من العتمة بقايا أصداف صدئة وعفنة . يضجّون وينتشون بالملذات المحرمّة ، ثم يجيئون طافرين بأهازيج التعاليم المناقضة ، ليدلى كل منهم، بدلو حكمته ، حكمة أقرب إلى البلاهة والحمق ، بعدها تتوارى القرية ، فى غلالة الظلام ، لتقطر خمرها المعتّق بالهمس والنميمة والشائعات والليل.

(٥)

وقفوا ملتفّين بالتأهب للحظة الحاسمة . لحظة يستردون بها عافية منسحبة منذ زمن فرارى . عائشة تنتحب خلسة، فالقرار الأخير جاء بغير رضاها ، هى أنثى وهم ورثة الذكورة المستبّدة . أنبأتهم بما لايريدون سماعه :

«من يدرى ما الذى عاشته وما الذى جاء بها !».

شحنة التعاطف الخجلة فى صوتها وكلماتها ، جعلتهم أكثر حنقا وبأساً . فما الذى يدريها هى ، بما يستبد بهم أمام ذكور العائلة والقرية .

«لقد قررنا وهذا قرارنا الأخير . هى التى اختارت فناءها. لقد انتهى الأمر .. يا أمى» .

كانوا يستنفرون ، الجمر المخبأ بين أكوام الحطب المتراكمة على عجل ، فكرت.. مشهد النار أكثر سحرا من طعنة مختلسة، أكثر كرامة وأقل إهانة ، مضرجّين بالارتجافات الساخطة، يعلو فمهم الزبد ، ويريدون التخلص من الطقوس سريعا.

لم يشأ أي منهم ، المجازفة ، للقيام بما هو ضد مشاعرهم، فالاختراق للمألوف ليس من شيمتهم، الأمر الآن خارج أيديهم ، العرف يدعوهم للتستر وراء أبجدية الوجوه الأولى ، ليصونوا باشتعال جسدها المحترق ، فطنة الأجداد المتوارثة . زادت الريح، اتقدت النار كالجحيم . لم ينسوا أن ينصبوا المشهد، أمام كل القرية ، اختارا فسحة واسعة تتسّع لفرجة الجميع ، ربما صرخ البعض هلعا وربما همس البعض الآخر رجاء ، ولكن الاشارة الأخيرة قد صدرت ولا رجعة عنها. تجمعّوا معا حول الحلقة النارية . إقتربت العواجيز ، ينفثون فى وجهها كلمات تشي ببعض تعاويذ قديمة ، معلنّين تعاطفهم الأخير معها فى مشهد الاحتراق . لقد طوّقوا الحلقة بضجيجهم فى البداية ، ثم انخطافهم وذهولهم الذى لم يفيقوا منه بعد. كانت تتقدم ، نحو النيران المشتعلة ، وعائشة واقفة فى البعيد ، تراقب خطوها بذهول مضاعف ، متواطئة مع شعور خفّى، ينتابها أن شيئاً معاكسا ، سيحدث ويجعلها تفيق من الكابوس الجاثم على صدرها . كيف جاء فى تلك اللحظة ، لكننى رمقته بين كل الوجوه . الشيخ مبروك يتقدم نحوى من بعيد

ويبدو أن لا أحدا غيري يراه . النار تلتهم حطبها بينما الشبح الفضي يقترب من الدائرة المشتعلة ، ها هو يمدّ يده نحوي ، نحو تلك المغلقة بسرّها ، أهيم بين يديه طيفا مرافقا ، يبتعد عن المكان : أدركتُ أن عائشة تراه معي ، كانت ترقبنا وتبتسم بحنو متكرّر، فيما كان الآخرون واقعين فى ذهولهم ، بين مرأى جسد يشتعل ، وطيف يعلن فراره لمرة أخرى ، وربما أخيرة ، وبشكل أكثر مباغتة من كل الذى حسبوه .

يد ترجنيّ بقوة وصوت نافذ يكرّر :

«إصحي . ما الذى جاء بك إلى هنا .. ألم أحذرك من الطريق الخطأ !»

وجهه الآن يذوب بين الصحو والغياب ، ينفلش ويتأرجح، بصعوبة أراه وبصعوبة أكبر أتمتم :

«لقد وقعتُ . على الصخرة» .

أُقفلُ ستار وجهى .. أدخلُ الدوار المنتشى بين يديه ، وهو ينتشلنى من فوق الصخرة ، ويمد يده نحو رأسي ويتساءل :

«وما كل هذا الدم ..!»

ثم يضيف :

«هاجر لديها دواء شاف . إطمئني» .

كان يحملنى ويتجه بى نحو الجبال العالية وسط الظلام .

رقم الايداع: ٢٠٠٠/٣٣٨٤
I.S.B.N
977-07-0710-4



فوزية رشيد

كاتبة روائية من البحرين.

كتبت القصة القصيرة ونشرت أولى قصصها عام ١٩٨٣ في مجموعة بعنوان «مرايا الظل والفرح».

نشرت مجموعتها الأخرى «كيف صار الأخضر حجرا» عام ١٩٨٦. ثم أعيد طبعهما في كتاب واحد بعنوان «غابة في العراء».

روايتها الأولى «الحصار» نشرت عام ١٩٨٣.

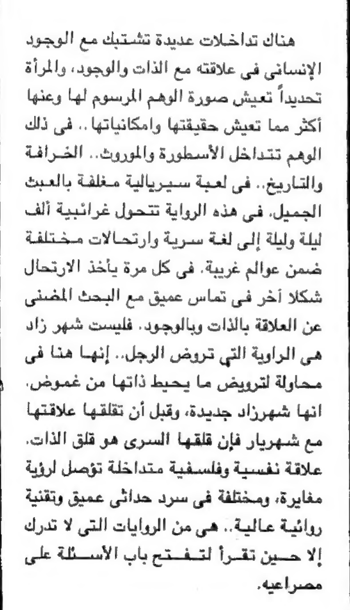
روايتها الثانية «تحولات الفارس الغريب» نشرت عام ١٩٩٠.

ثم نشرت «امرأة ورجل» عام ١٩٩٧.

تكتب وتنشر مقالات نقدية، وثقافية، وسياسية في عدد من الجرائد والمجلات العربية.

ترجم العديد من قصصها إلى الانجليزية، والألمانية واليابانية، والدانماركية.

تقيم في القاهرة إلى جانب البحرين منذ عام ١٩٩١.



هذه الرواية

هناك تداخلات عديدة تشتبك مع الوجود الإنساني في علاقته مع الذات والوجود، والمرأة تحديداً تعيش صورة الوهم المرسوم لها وعنها أكثر مما تعيش حقيقتها وامكانياتها.. في ذلك الوهم تتداخل الأسطورة والموروث.. الخرافة والتاريخ.. في لعبة سيريالية مغلفة بالعبث الجميل. في هذه الرواية تتحول غرائبية ألف ليلة وليلة إلى لغة سرية وارتحالات مختلفة ضمن عوالم غريبة. في كل مرة يأخذ الارتحال شكلا آخر في تماس عميق مع البحث المضنى عن العلاقة بالذات وبالوجود. فليست شهر زاد هي الراوية التي تروض الرجل.. إنها هنا في محاولة لترويض ما يحيط ذاتها من غموض. انها شهرزاد جديدة، وقبل أن تقلقها علاقتها مع شهريار فإن قلقها السرى هو قلق الذات. علاقة نفسية وفلسفية متداخلة توصل لرؤية مغايرة، ومختلفة في سرد حداثي عميق وتقنية روائية عالية.. هي من الروايات التي لا تدرك إلا حين تقرأ لتفتح باب الأسئلة على مصراعيه.

العدد القادم من روايات الهلال :



تصدر : ١٥ ابريل ٢٠٠٠

روايات مصرية للجيب

النغمة الجميلة العذبة فى ربوع الوطن العربى من مشرقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة فى عقول الأولاد والبنات

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع